بيت أبو بيوت

حسام خوام آل يحيى

رواية

"تصوري إني أرك الآن ملاكاً, تصوري أنت ملاك يا لورنا "

أخر ما قاله النحات العراقي جواد سليم لزوجته لورنا قبل أن تفيض روحه لبارئها صبيحة يوم الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني/ يناير عام 1961.

لقد ذكرت بعض الشخصيات العراقية بالتحديد بالاسم وأدخلتهم كأبطال لأحداث هذه الرواية المتخيلة وهم:

الحاج محمد الخشالي صاحب مقهى الشابندر, حجي فؤاد صديق عمر حجي محمد الخشالي ومساعده في المقهى, النحات العراقي الكبير نداء كاظم, الشهيدة المسيحية رفاه توما, مع تخيل أشخاص أخرين دمجتهم في حياة الذوات المذكورين أعلاه لتكتمل الحبكة الروائية. لقد أدخلتهم في الرواية لوطنيتهم التي سمعت عنها وروحهم المحبة للعراق ووحدته لذا استسمحهم العذر لذلك.

أما العملاق المرحوم جواد سليم فأنا قد اقتبست من قصته الحقيقية وجعلت منها حدثاً رئيسياً في هذه الرواية, أيام تفانيه في إنجاز نصب الحرية قبل موته رحمه الله, أما السر الذي زرعه في النصب وتناولته في الرواية فهو الأمر الذي بقي عصياً على إدراك الكثيرين وأنا منهم, لذا نوهت .

حسام خوام آل يحيى

إلى من يقرأها...

منظمة الأمم المتحدة

مجلس الأمن الدولي

القرار الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي في جلسته المنعقدة بالرقم 10255 المنعقدة في العاشر من شهر كانون الثاني يناير عام 2021:

إن مجلس الأمن إذ يشير إلى جميع قراراته المتعلقة بحق تقرير المصير لشعوب جمهورية العراق "سابقا " ويؤكد على التزامه المطلق, بحل النزاعات سلمياً بين الدول الثلاث المنبثقة عن تقسيمه وهي:

جمهورية شيعه ستان, جمهورية سنه ستان, ودولة كردستان, وقد أتخذ المجلس في هذا الخصوص القرارات الآتية وبإجماع أعضائه:

1- يعين السيد (مارك بايدن) مبعوث أممي ومشرف على تنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولي الخاصة بحل النزاعات التي قد تنشب بين الدول الثلاث التي انبثقت عن التقسيم بالطرق السلمية, ويوضع تحت إمرته

قوة دولية يكون الغرض منها إقامة مناطق عازلة, بعد تثبيت الحدود بين الدول الثلاث, بما يضمن عدم نشوب نزاعات مسلحة بينها.

2- يعين الممثل ألأممي حاكم مدني أجنبي لكل دولة من الدول الثلاث, وفق آلية تحددها المنظمة الدولية لاحقاً, على أن يكون ذلك الحاكم المدني هو القائد العام للقوات المسلحة, ورئيساً للسلطة التنفيذية والمشرف العلم على سياسة الدولة الداخلية والخارجية, يعاونه مجموعة من الموظفين الدوليين, ويستمر تعيينه بالمنصب حتى الأول من شهر كانون الثاني عام 2022, وهو موعد تسليم السلطة لرئيس منتخب لكل من الدول الثلاث, يتم اختيارهم بموجب انتخابات عامة تشرف عليها المنظمة الدولية في البلدان الثلاث.

3- تشكل لجنة خاصة, تكون تحت إمرة المبعوث ألأممي المعين (مارك بايدن) ويرأسها هو, لتنفيذ قرارات المجلس, بخصوص تثبيت الحدود ما بين الدول الناشئة الثلاث, بناءً على توصيات اللجان السابقة, وما توصلت إليه من نتائج بهذا الصدد, وتفتح لها مقرات ثلاث, يكون الأول في مدينة الرصافة عاصمة جمهورية شيعه ستان, والثاني في مدينة الكرخ عاصمة جمهورية سنه ستان, والثالث في مدينة أربيل عاصمة دولة كردستان.

4- يستمر عمل اللجنة السابقة, قدر تعلق الأمر بالوثائق والنتائج والتوصيات التي توصلت إليها, على أن ينضوي أعضاءها جميعاً في البعثة الجديدة, وينتقل مقرها من العاصمة الأردنية عمان, إلى المقرات الثلاث الجديدة, بحسب المقتضى, والتوصيات التي ترتئيها البعثة الجديدة.

5- يستمر عمل لجان تقصي الحقائق, للتحقيق في الجرائم ضد الإنسانية, التي حصلت في جمهورية العراق " سابقاً " إبان الحرب الأهلية التي جرت عام 2019, والتي أودت بحياة مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء, مع انتقال تلك اللجنة من العاصمة الأردنية عمان إلى المقار الثلاث الجديدة التي ستفتح في المدن أعلاه.

6- ينتهي عمل البعثة بمجرد تحقيق المبتغى المنشود منها, وهو تثبيت الحدود بين الدول الثلاث, وحل النزاعات السلمية بين جميع الأطراف, بموجب تقرير يقدمه الممثل الأممي للمجلس في فترة أقصاها الحادي والثلاثون من شهر كانون الأول من العام 2021, غير قابلة للتمديد, تمهيداً لتسليم السلطات, لحكومات الدول الثلاث, الذين ستختارهم شعوبهم.

رئيس المجلس

العاشر من شهر كانون الثاني / يناير 2021

الفصل الأول

التقسيم

على جسر الأئمة, تقف بقايا امرأة, تستصرخ غيرة الأجانب, بعد أن ماتت الغيرة لدى أبناء جلدتها ورحلت عنهم وبلا رجعة, سوى من واحد كان هناك صدفة, أو بالأحرى قد جاء به القدر يدعى محفوظ.

" عيوني سيدي خلصني منهم, ابوس ايدك... أرجوك خليني أعبر أنا شيعية... ذولاكه همه يريدون يغتصبوني وره ما قتلوا زوجي كدام عيني وكدام أطفالي, جثته مرمية هناك, أطفالي خايفين شوفهم ...

" زين اخذ بس جهالي وما عليك مني؛ لأنهم راح يقتلوني بعد ما يغتصبوني ... سيدي ... بس أطفالي! الله يخليك ..."

في ظهيرة ذلك اليوم القائظ من أيام شهر أيار/ مايو عام 2021, وقفت تلك المرأة المنكوبة على أعتاب حاجز عسكري تشرف عليه قوات حفظ السلام الدولية التابعة للأمم المتحدة, بمنتصف جسر الأئمة الرابط بين مدينتي الكاظمية والأعظمية " سابقاً " على نهر دجلة.

كانت ممزقة الثياب, تنزف الدم من جراح كثيرة تغطي معظم أنحاء جسدها المهتوك الهزيل, تجر طفلين بيد, وتحمل رضيع على صدرها باليد الأخرى, وتسند كتفها شبه العاري على الأسلاك الشائكة, مذهولة, تتلفت خلفها, حافية القدمين, ملطخة بالدماء, حاسرة الرأس بشعر أسود سرح داكن وطويل.

كانت تنزف الدماء بغزارة من جراح عديدة. على وجهها أثار كدمات كثيرة, تحمل على صدرها شبه العاري طفلاً رضيعاً لم يبلغ سنة واحدة من العمر, والذي تدلى منه ثدييها للعيان- بعد أن مزقوا ثوبها الأسود الذي كانت ترتديه - وباليد الأخرى كانت تضم على فخذيها ولداً وبنت لم يبلغ أكبرهما من العمر خمسة أعوام, وهي ترتجف من الخوف.

ملامح وجهها جميلة, رغم كل ذلك الدم الغزير الذي سال منه, وتلك الكدمات الكثيرة التي عليه. فجمالها على ما يبدوا من ساق لها هؤلاء الشرذمة؛ فوجدوا فيها فسحة ينفسون فيها عن غرائزهم المكبوتة.

"سابقاً " تعني أن الأسماء قد تغيرت كما هي النفوس في البلد الذي كان موحداً وتجزأ.

الكاظمية صارت حنيفية, والأعظمية, تغير أسمها لحي الجوادين! هذا ما كان مكتوباُ على يافطتين كبيرتين, كل واحد منهما مثبتة عند كل جانب من جانبي الجسر.

حتى الجسر قد تغير أسمه القديم, كما تغير اسم المنطقتين اللتين يربط بينهما.

لقد سموه " الجسر رقم واحد " وأصبح حداً فاصلاً بين دولتين مستقلتين هما: جمهورية شيعه ستان وجمهورية سنه ستان, وبقيت لوحة صغيرة

تحمل الاسم القديم للجسر "جسر الأئمة" وكلماتها باهتة منحنية عند مقدمته جهة الرصافة, ربما لم يتجرأ أحد على خلعها من هناك؛ لما يحمله الاسم القديم من هيبة دينية للمكان فيما سبق!

"هي محفوظ تعال! ماذا تقول هذه المرأة! ترجم لي كلامها؟ "

ينادي النقيب الأمريكي الجنسية داوني, وهو أمر القوة الدولية في تلك النقطة, على المترجم محفوظ, وكانت تلك أول عملية ترجمة يقوم بها المترجم محفوظ, العراقي الأصل الأمريكي الجنسية, بعد أن وصل الليلة الماضية قادماً من الولايات المتحدة الأمريكية, ونسب في تلك النقطة, التي تشهد يومياً عشرات الحالات المشابهة لحال تلك المرأة المنكوبة: رجال, نساء, وحتى أطفال صغار يتوسلون للعبور إلى مدينة الرصافة عاصمة جمهورية شيعه ستان قادمين من منطقة الكاظمية سابقاً, والتي تعرف اليوم بالحنيفية, أو بالعكس قدموا من مدينة الأعظمية سابقاً, والتي تعرف اليوم بحي الجوادين, كل أملهم العبور إلى الكرخ عاصمة جمهورية سنه ستان؛ هرباً من الموت المحموم الذي كانت تعج به شوارع المدينتين, وبالجملة, في كل يوم.

محفوظ مترجم يقارب عمره الأربعين عاماً, حنطي الوجه, وسيم الملامح, حليق الشارب, بقوام رشيق.

النقطة على الجسر مكونة من أحد عشر فرداً فقط, ينتمون للقوة الدولية أو (الجسارة) كما يسميهم السكان المحليين من كلا الدولتين الفتيتين نسبة إلى تواجدهم فوق جسور بغداد؛ لتأدية واجبهم وهو مراقبة الحدود, وقد تعرف عليهم محفوظ من خلال المرافق الذي قام بإيصاله إلى هذه النقطة صباح ذلك اليوم, وهم كل من:

النقيب داوني أمر القوة, وهو أمريكي الجنسية, يبلغ من العمر حوالي الستين عام, مستدير الوجه, طويل القامة, ضخم البنية, بشعر كث أشيب وبشارب فضي غليظ. الملازم تشارلز بريطاني الجنسية, وهو شاب يافع أشقر, حليق الشارب, ذو قوام رياضي متناسق, وملامح بريطانية ناعمة وسيمة.

بالإضافة لعرفاء سبعة جميعهم يحملون الجنسية الاسترالية, وهم كل من: ستيوارت خفيف الظل, نيفل, كارل, جاك, براد, جون, والأسمر الضخم ماديسون.

يضاف للقوة الطاهيان الهنديان, العجوز الأعرج كومار, ومساعده اليافع راجي, وهما المسئولان عن إطعام الفريق, وصيانة مولدات الطاقة الكهربائية للنقطة, والجميع يتحدثون اللغة الإنجليزية.

النقطة على الجسر محدد واجبها من قبل قيادة القوة الدولية بواجبين فقط لا غير(وهذا ما مبين على لوحة الإعلانات في النقطة, التي قرأها محفوظ لحظة وصوله, كما طلب منه النقيب داوني أن يفعل ليطلع على عمل النقطة وواجباتها ويلم بمهام عمله الجديد)

الأول – تعتبر نقطة "الجسر رقم واحد" منفذ حدودي بين البلدين الجارين(جمهورية شيعه ستان وجمهورية سنه ستان) للتبادل التجاري و تنظيم حركة المسافرين بين الدولتين, علماً إن حركة المسافرين متوقفة وممنوعة في الوقت الحاضر, وحتى إشعار أخر لدواعي أمنية.

الثاني: يكلف فريق النقطة, بالإضافة لواجباته أعلاه, بواجبات ومهام من قبل القوة الدولية, على أن تكون تلك الواجبات, في مدينة الرصافة عاصمة جمهورية شيعه ستان حصراً, وبالتنسيق مع مقر القوة الدولية في الرصافة في القصر في بحي الجوادين.

محفوظ للمرأة بعد أن تمشى نحوها مسافة طويلة؛ فهي كانت بعيدة عن النقيب ورفاقه عند أول الحاجز, خلف الأسلاك الشائكة والمتاريس, يرافقه العريف المسعف ماديسون:

"ها أختي شكو احجيلي ؟"

فأجابته المرأة لحظة سمعت كلماته العراقية بصوت خافت مبحوح مصحوب بالبكاء والعويل, بينما كانت تترنح من شدة التعب والإعياء, بعد أن نزفت جراحها دماءً كثيرة, وكان لها لهاث تتقطع من أثره جملها القصيرة المتتابعة:

" أنت عراقي الحمد لله ... ميليشا برزان, كتلوا زوجي ورموا جثته هناك براس الجسر... جروني حت يغتصبوني وشككوا ملابسي علي, تركوني من شافوكم وره ما ضربتوهم طلقات ... "

ترجم محفوظ كلامها للنقيب داوني بصوت عالي, من مكانه حيث يقف متوسطاً المسافة بينهما, فهز النقيب رأسه (دلالة الفهم) ثم أخرج علبة سجائره من نوع (camel) من جيب بدلته الزرقاء, بينما كان ينظر بضجر لتلك المرأة وأطفالها.

أشعل سيجارة بقداحته (zeppo) التي حرك زنادها على الحجر مرات عدة حتى ظفر منها بلهب, وأخذ ينفث منها الدخان بنهم, وكان حينها ينضح عرقاً غزيراً من شدة الحر؛ فالشمس كانت في كبد السماء وقت الظهيرة اللافحة, علاوة على حمله الثقيل من درع وصف رصاص وغيرها فقال لمحفوظ بصوت خافت وحازم:

- سلها إن كانت تملك بطاقة شخصية من نوع ش؟

لم يعرف محفوظ ما هي البطاقة ش؟ فهو قد وصل بالأمس, لما تبقى من بلده, بعد غياب عقد من الزمن.

وطنه الذي تركه أخر مرة من مطار لطالما عرفه على إنه مطار بغداد الدولي, فلما عاد إليه وجد أن أسمه قد تغير, وصار أسمه مطار الكرخ (هذا ما قرأه محفوظ على يافطة المطار حين هبط فيه قبل ليلة واحدة)

فمثل محفوظ لن يعرف بالطبع ما هي البطاقة ش تلك, لكنه ترجم ما قاله النقيب على الفور دون نقاش, فردت المسكينة على السؤال بالصراخ, واللطم على الرأس, والخدود, وكأنه قد تعرض لها بالشتم و السباب:

" لو كنا نملك بطاقة ما صار هذا حالنا ولا صار اللي صار بينه"

دهش محفوظ من ردة فعلها العنيفة, وعاد مهرولاً نحو النقيب داوني, الذي كان يحتمي خلف المتاريس, ويراقب الموقف عن كثب من خلال الفتحة التي في الجدار الكونكريتي, حاملاً بيده سلاحه الرشاش, ويقف بتأهب لهؤلاء المسلحين الذين ربضوا في الناحية الأخرى هناك, يحملون بأيديهم أسلحة مشرعة, وكانوا ثلاثة أو ربما أربعة, يتربصون عند طرف الجسر جهة مدينة الكرخ, قبالة موقع الشعبة الخامسة. وهي تقف مذهولة بين الجانبين. فقال محفوظ وعينيه ثابتة على تلك المرأة المنكوبة وأطفالها الذين كانوا يصرخون:

- سيدي ما هي بطاقة ش؟ ولماذا لا تسمحون لها بالمرور إلى جانب الرصافة؟

لم يجب النقيب داوني على تساؤل محفوظ بل قال له بحزم:

- قل لها أن ترجع أنها لا تملك حق العبور لمدينة الرصافة!

فهمت المسكينة كلام النقيب دون الحاجة للترجمة, فصوته الجهوري المرتفع الذي نطق به كلمات الجملة, وتعابير وجهه المفرطة بالقسوة, وإيماءاته التي لوح بها بيده لمترجمه من خلف المتاريس؛ أوحى لها بعدم قبولهم لطلبها بالعبور.

فبدأت تتقهقر للخلف, وهي تحمل وتحتضن أطفالها الثلاث بقوة, وهمت بالعودة نحو أولئك الوحوش الذين كانوا ينتظرون عودتها إليهم بفارغ الصبر.

فهم عرفوا النتيجة مسبقاً على ما يبدوا, وأن القوة سوف تطرد المسكينة وأطفالها عاجاً أم أجلا, ولن يسمح لهم بالعبور, وسترجع إليهم ليكملوا معها ما بدأوه.

فصاح بها محفوظ بصوت عالي ونبرة حازمة:

- اوكفي!

والتفت نحو النقيب المنزوي خلف متاريس النقطة وهرول نحوه:

- سيدي إذا عادت سوف يغتصبونها حتماً, وسيقتلونها هي وأطفالها بعد أن ينتهوا منها. عذراً لتدخلي لكنها فقدت زوجها للتو, وإن منعك لها من العبور سوف يؤدي لا محالة إلى قتلها مع أولادها, فلا تشترك معهم في الجريمة أرجوك!

الملازم تشارلز والآخرين من أفراد القوة, وقفوا يترقبون ما ستؤول إليه الأمور, لاسيما وأنهم توقعوا أن يطيح أمرهم الحازم بهذا المترجم الجديد

أرضاً بلكمة منه, جراء تدخله بعمل وحده النقيب هو من يقرر فيه حتى الأنفاس, وأخذوا يترقبون ذلك كنتيجة حتمية لا محالة؛ إذ إنهم عاشروا النقيب داوني في النقطة على الجسر منذ خمسة شهور, ويعرفون حزمه وصرامته, وعدم تقبله التدخل في قراراته.

كيف لهذا المترجم الواصل حديثاً أن يجادل أمراً مباشراً من رجل مثل داوني؟ وهو المعروف بالحزم والشدة والصرامة, والذي لم يجرأ أي منهم على جداله ولو على سبيل الدعابة والمرح!

تساؤلات رددها تشارلز وغيره من أعضاء الفريق في سرهم بينما شهدوا النتيجة الصادمة حينما رأوا نقيبهم الجلف هذا مكتفي بالصمت دون أن يحرك ساكناً عقب تدخل محفوظ.

لا بل وازدادت دهشتهم أكثر؛ حينما أعطى النقيب أمراً مباشراً للعريف ماديسون بإدخال المرأة وأطفالها إلى النقطة, بعد أن صمت لبرهة, مطأطأ رأسه نحو الأرض في سكون.

فعلى ما يبدو أن كلام محفوظ, وحال المرأة وأطفالها المأساوي؛ قد هز مشاعر الإنسانية في وجدانه, وكان ذلك جلي عندما أشعل سيجارة ثانية من عقب أخرى قبل أن يطفئها, وراح يشد منها الدخان وينفثه بكثافة حتى أزفت

بسرعة, و لم يتبق في عمرها سوى أخرها, فرماها تحته على إسفلت الجسر المحفر وداسها بحذائه كسابقتها, وقال بصوت منخفض:

- قل لها أن تأتي سوف أدعها تبقى معنا لحين اتصالي واستفساري من القيادة العليا للقوة الدولية المتمركزة في المنطقة الدولية الخضراء عما يمكن أن نصنعه لها...

وسط دهشة أفراد القوة الباقين, الذين يعرفون أمرهم العنيد, الذي لا يتراجع عن قرار يتخذه أبداً, لاسيما أن كان في تراجعه خرق للقوانين! فتأكدوا إنها ستنجو هي وأطفالها, سيساعدها النقيب بعلاقاته الواسعة مع موظفي مكاتب اللجوء التابعة للأمم المتحدة, والتي كانت تمنح حق اللجوء لبعض العراقيين, ممن يحضون بفرص قليلة كتلك السيدة المنكوبة, التي يوصي عليها رجل متنفذ مثل النقيب داوني.

فحين ذاك ستنتشل من هذا الوحل العطن, وستمنح عمراً أخر, مثل ميت تبعث روحه للحياة من جديد.

فرح محفوظ وناداها بعد أن هرول نحوها, أخذها من يدها وأدخلها هي وأطفالها للداخل, بعد أن فتح لها البوابة الحديدية بنفسه, ورافقها هي

وأطفالها لمطعم النقطة يرافقه العريف ماديسون؛ ليسعفها من جراحها الكثيرة.

أجلسها محفوظ وأطفالها على طاولة من طاولات المطعم, ثم نزع قميصه وربط أزراره بعد أن وضعه على جسدها شبه العاري ليستر ثدييها البارزين بعد أن مزق أولئك الوحوش ثوبها. جلب لها ولأولادها الطعام والماء, وجلس بالقرب منها يراقب حالها الرث وهيئتها المشعثة بدهشة واستغراب. كانت صامتة, أو بالأحرى جامدة مثل صخرة صماء, مر وقت طويل ولم تأكل لقمة من الطعام الموضوع أمامها على الطاولة. ربما بسبب الحزن على زوجها المقتول للتو, والذي رميت جثته في نهر دجلة المتخم بالجثث الكثيرة التي تلقى فيه يومياً من جهتي النهر.

محفوظ أخذ يطعم الأولاد الصغار بيديه, كانوا يأكلون الطعام بشراهة من شدة الجوع بعد اختلطت دموعهم بما يأكلون. كانت أمهم تراقب بعينها الذابلتين ذلك الشهم الذي أنقذها من الموت المحقق بينما العريف المسعف ماديسون منشغل يضمد جراحها الكثيرة, فقالت لمحفوظ :

- أسمي دنيا وهذه البنت (وأشارت نحو بنتها التي كانت تأكل من يده) اسمها رقيه وهذا الولد اسمه حسن, وهذا الرضيع اسمه محمد.

لولا وجود محفوظ لأصبحت تلك المرأة وأطفالها الثلاث طعاماً لأسماك دجلة كزوجها المسكين الذي شهد النقيب وغيره من أفراد القوة أولئك المسلحين وهم يرمون جثته في النهر بعد لحظات قليلة من دخول المرأة وأطفالها للنقطة.

تمتمت أول كلماتها بصوت خافت:

- أستاذ أنت عراقي؟

- كنت عراقي وهسه أنا أحمل الجنسية الأمريكية.

أخبرها محفوظ إنه قد هاجر من العراق قبل نحو عشر سنوات وعاد في الليلة الماضية للعراق ليعمل مترجماً مع القوة الدولية لحفظ السلام, ليكسب لقمة عيشه ليس إلا, لكنه كرر وعده لها بأنه سوف يساعدها محاولاً طمأنتها.

لكن الفضول دفعه لأن يسألها عن عراق ما بعد التقسيم, وطلب منها أن تحكي له عن أوضاع البلد المفكك, وماذا تفعل شيعية مثلها في دولة سنه ستان بعد أن تم تقسيم البلد عام 2020؟

- ليش بقيتي في أراضي جمهورية سنه ستان؟ وما انتقلتي لجمهورية شيعه ستان التي تتبعينها مذهبياً؟

وتساؤلات كثيرة راحت المسكينة تجيبه عليها تباعاً بعد أن التقطت أنفاسها وشعرت بالأمان.

فقالت له:

- سألتني هل تملكين بطاقة ش أم لا ؟ تعرف شنو هذه البطاقة ؟

أخبرته إنه بعد الحرب الأهلية عام 2019 , وبعد تقسيم العراق عام 2020, خيروا العراقيين بين ثلاث أنواع من البطاقات, كل واحدة سيتبع حاملها دولة من الدول الثلاث الجديدة وهن: ش للشيعة, س للسنة ,والبطاقة نوع ك للأكراد. في بداية الأمر لم تكن هناك مشاكل, فالسني المتزوج بشيعية مثل حالتها بإمكانه أن يختار بطاقـــــة س؛ باعتباره سنياً, وستشمل البطاقة زوجته وأطفاله رغم إنها شيعية. وبالفعل استصدر زوجها تلك البطاقة, ومكثوا في دارهم في منطقة الكاظمية قرب مرقد الإمام الكاظم عليه السلام قبل أن ... "

وسكتت وأخذت تتنهد بحسرة كبيرة...

- أكملي يا دنيا شصار بعدين؟

قال لها محفوظ وهو متشوق ليعرف أخبار فاتته عن بلده لعشر سنوات, فأتبعت:

- فجروا المرقد الشريف, وبالجرافات والبلدوزرات سووه بالأرض, وهذا الذي ديصير بالعراق كله عقاب رباني على تلك الجريمة الجبيرة. انت ما سمعت بالصار هناك من جنت في أمريكا؟ مو نشروا الخبر بالتلفزيون, لأن بعد التفجير صارت الحرب الأهلية واتقسم العراق.

رد محفوظ نافياً بذهول:

- لا ما سمعت

شرح لها إنه ففي بلد مثل أمريكا لا تصل فيه كل الأخبار, العراق بالنسبة إليهم هناك بلد نائي لا يهمهم ما يجري فيه من أحداث.

وطلب منها تكملة الحديث عن بلد ولد وترعرع فيه, قبل أن يتركه, ويحصل على الجنسية الأمريكية عام 2010, بعد أن عمل مترجماً مع الجيش

الأمريكي لمدة عام, ثم منح حق اللجوء إلى الولايات المتحدة كغيره من المترجمين.

بلد ما عاد يكترث لأمره, لكنه, وبعد الذي سمعه من هذه المرأة, أخذ يعير له الاهتمام ويسأل.

- كملي اختي!

فأخذت هي الأخرى تسرد عليه الأخبار التي فاتته بأدق التفاصيل: أحداث دخول تنظيم داعش الإرهابي للبلد عام 2014, وعن تلك الأحداث الرهيبة التي عصفت بالعراق خلال فترة ما بعد التقسيم, بينما كان محفوظ ينصت بخشوع لما تقول. مثل راوية محترفة لم تدع حدثاً غاب عن علم محفوظ إلا وقصته له تلك المرأة المنكوبة. تركت حزنها وكل شيء وراء ظهرها وانشغلت بإخبار محفوظ بكل شيء: أخبرته عن الحضارة التي طمست معالمها, وعن متاحف البلد التي بيعت قطعها الأثرية للأجانب بتراب الفلوس. حتى التماثيل والنصب التي كانت تزين الشوارع والساحات العامة وغيرها كلها سويت بالأرض نتيجة الحرب, وما تبقى منها حطمه الناس وخربوه.

قصت له كل شيء, وفي نهاية الحديث, نزعت قميصه عن جسدها وناولته إليه متعجباً, وقالت له بعد أن طأطأت رأسها للأرض بلهجتها البغدادية:

- هاك قميصك البسه أستاذ ما كو داعي تسترني لأن ما عاد يفيد... صار سنتين عدل أنا يوميه بحضن أمير من الأمراء أو قائد من قادة المليشيات... وزوجي الله يرحمه ما يكدر يحجي وياهم لأن كالوله هاي فتوى دينية سموها جهاد النكاح...

أخبرته عن تلك الفتوى, التي تبيح للأمير الذي إن أعجبته أي من النساء, على والديها أو زوجها أن يسلمها له على الفور وإلا سيقتل! لأن الفتوى تشمل البواكر والمتزوجات.

أعاد محفوظ القميص على جسدها النحيل وخرج إلى النقيب داوني ورفاقه الذين عادوا لواجب المراقبة, وقف بجانب النقيب وهو يكفكف الدموع التي ما أنفك يذرفها خلال الربع ساعة التي جلسها مع تلك المرأة المنكوبة, وأخبره بما أخبرته به فقال له النقيب داوني, بعد أن نزع عن عينيه نظارته الشمسية, عبارة زادت من حزنه وألمه ودهشته:

- هل تعرف إن هذا الذي سمعته من تلك المرأة لا يقارن بما هو على أرض الواقع يا محفوظ؟

- ماذا لو أخذتك إلى معسكرات الاعتقال القسري في دولة شيعه ستان؟ هل سمعت بها وبما يجري خلف أسيجتها الشائكة؟

وأتبع:

- على فكره! هل تظن أن هذه المسكينة ستكون بمأمن لو قمنا بالسماح لها بالعبور ببساطة إلى مدينة الرصافة يا محفوظ؟

محفوظ وهو يراقب عيني النقيب التي توسعت حدقاتها فجأة:

- بالطبع ستكون فهي شيعية, وسوف يرحبون بها في دولة قائمة على المذهب الشيعي وكلهم من الشيعة هناك.

هنا أردف النقيب قائلاً, بعد أن علت وجهه ابتسامة خبيثة تحمل معها حقيقة مرة تخالف ما جزم به محفوظ, بشأن كونها ستكون بمأمن هناك:

- هل تعلم ماذا قصدت بأن زوجها سني وهي شيعية, ولا يزالان متزوجان ويسكنان في دولة سنه ستان؟ معادلة لن يفهما مثلك وأنت قادم للتو لهذا البلد بعد غياب!

وأتبع بعد أن جلس خلف المتاريس على كرسي خشبي قابل للطي بطريقة ما:

- إنها وزوجها القتيل وأطفالها الثلاث هؤلاء إما هم بلا أي بطاقة من البطاقات الثلاث! ببساطة لم تمنح لزوجها الجنسية, بسبب لتمسكه بزوجته وعياله بعد العام 2020, أو إنهم قد سحبت منهم بطاقاتهم لذات السبب!

وأتبع:

- في بلدهم الذي فيه أحد أظلم القوانين على وجه الكرة الأرضية, وأنا أعرفه تماماً من خلال حالات كثيرة مرت علي هنا على الجسر قبل وصولك, أعايشها كل يوم تقريباً, ومنذ خمسة أشهر, كحالتها وعيالها يا محفوظ! أعني قانون الجنسية في سنه ستان, الذي يفرض على المتزوج بشيعية وله منها أطفال, أن يطلقها فوراً ويرمي بعياله خارج منزله, ولا يحتفظ بهم معه؛ ليحصل على البطاقة س الخاصة بالدولة الفتية, أو أن تسحب البطاقة ممن صدرت له وتمسك بزوجته الشيعية بعد أن يكشف أمره, تصور؟

وأتبع بينما كان محفوظ ينصت بذهول:

- ليست قوانين سنه ستان وحدها ظالمة يا صديقي ففي الجهة الأخرى ليس الحال بأفضل, فقوانين شيعه ستان ظالمة أيضاً...

دعني أبين لك ذلك من خلال حالة هذه المرأة, والتي ستكون هي مثال للشرح مع الأسف.

وأتبع:

- بما إنها شيعية متزوجة من سني, ولم تترك أراضي جمهورية سنه ستان حتى اليوم, أي بعد التقسيم ولا تزال تعيش هناك, فهذا يعني أنها وأطفالها لا يحملون البطاقة ش وهو الواقع صدقني. وان قمنا بإدخالها من ذاك الباب الذي تراه هناك, أي لمدينة الرصافة ومنطقة حي الجوادين (وأشار إلى الباب جهة جانب الأعظمية)

هل تعرف ماذا سيكون مصيرها؟

و أجاب على تساؤله بنفسه, وسط ذهول محفوظ الذي اكتفى بفغر فمه على مصراعيه:

- سيكون مصيرها معسكرات الاعتقال القسري الذي ...

وسكت النقيب تماماً وأشاح بوجهه عن محفوظ, وضرب الأرض ببوته بقوة فأحدث ذلك جلبة قوية لفتت انتباه الجميع, ونهض من مكانه وراح يخرج علية سجائره المحشورة في جيب سرواله بسبب الدرع الواقي الثقيل الذي

يرتديه, وعيون محفوظ تترقب النقيب حتى يكمل له حكاية البلد المهتوك بكل تفاصيلها المرة والأليمة.

أشعل النقيب السيجارة, وجلس يكمل لمحفوظ السيناريو المرعب ذاك:

- سأخبرك أمراً: هل تعرف أنها لو ظفر بها أولئك المسلحين واغتصبوها ثم قتلوها هي وأطفالها الثلاث, سيكون أرحم لها ولأطفالها من عبورهم الجسر لأراضي جمهورية شيعه ستان؟

نعم! لا تتعجب يا رجل ولا تستغرب, فأنت جديد هنا, ولا تعرف شيء عن بلدك الأم, الذي تركته عشر سنوات, فكل شيء قد تغير, وحصلت فيه أشياء لن تستطيع إدراكها بحديث عابر تسمعه مني خلال ساعات الواجب!

سأخبرك...

أولاً بعد أن نفتح لها الباب سينقض عليها حرس حدود دولة شيعه ستان, وهم كأفراد ميليشيا برزان, ما سوى من صفة الرسمية التي أضفيت عليهم, بزيهم المرقط وهويات يحملونها في جيوب بدلاتهم ليس إلا! سيسألونها ذات السؤال الذي وجهته إليها وترجمته أنت:

هل تحملين بطاقة ش؟

وحتماً, ولأنها بدون تلك البطاقة ستجيبهم بالنفي, وهنا تسكب العبرات كلها! ستساق فوراً لتلك المعسكرات: التي تقع في منطقة النهروان, شرقي مدينة الرصافة العاصمة, وهي عبارة عن مخيمات شاسعة على مد البصر يا محفوظ, وهم يحتجزون فيها من مثل هذه المرأة عدداً كبيراً من الذين لا يثقون بهم على أراضيهم أولاً, وثانياً حتى لا يتكفلون بإطعامهم من خزينة دولتهم التي هي خاوية أصلاً, وهم يتكدسون هناك بمئات الآلاف, نساء, رجال, وأطفال ومن مختلف الأعمار, تعيلهم المنظمة الدولية, وبالكاد توفر لهم وجبة يتيمة في اليوم, لا تكاد تسد رمق طفل صغير؛ فالحرب أتت على خزائن الدول الثلاث بالكامل. وحتى هذه الوجبة اليتيمة لن تحصل عليها مرأة وحيدة وضعيفة مثل هذه المرأة في تلك المعسكرات, لأن الحياة في معسكرات النهروان فيها قانون واحد يسري لا غيره وهو: البقاء للأقوى!

ثم أعقب بسؤال لمحفوظ:

- أنت بالأمس قد وصلت, صحيح؟

محفوظ وقد تشتت ذهنه كلياً بحيث أصبحت إجاباته متلكئة وبطيئة:

- نعم بالأمس ليلاً...

داوني:

- هل شاهدت أضواء المدينة من الجو؟

محفوظ:

- كلا!

داوني:

- هل تعلم لماذا؟

محفوظ:

- كلا...

داوني بعد أن أخذ يعد على أصابعه:

- السبب ببساطة: لا كهرباء في هذه البلدان, لا حضارة, لا علاج, لا تعليم, لا إنسانية على الإطلاق... تصور؟

وأردف:

"في المعسكرات هناك, بما إن المسكينة شابة وجميلة كما تراها, سيتم اغتصابها أضعاف عدد المرات التي حكت لك عنها في جمهورية سنه

ستان, حتى إنها لن تعطى فرصة لترضع هذا الطفل الرضيع الذي تحمله بين ذراعيها, هذا أن لم يأكلوها هي وأطفالها الثلاث!

محفوظ بتعجب:

- ماذا؟ يأكلونها؟ كيف؟

نعم هم يفعلون هناك من شدة الجوع, يأكلون جثث الأموات, أو يقتلون النساء والصغار عمداً من أجل الطعام! لا أريد أن أخيفك ولكن عليك أن تعرف بكل شيء, عليك أن تدرك ما يجري خلف كواليس بلدك المرعبة ...

فالمسكينة ستنام في اليوم الواحد في حضن خمسة رجال على الأقل بدل الواحد الذي كان يعيدها لزوجها بعد أن يرتوي منها ليلة أو ليلتين.

ستقضي يومها ما بين حارس أعياه انتظار موعد الإجازة الطويل, أو حيوان من تلك الحيوانات المتوحشة المحتجزين في المعسكرات من الذين حرموا من الملذات, فيجد في جسدها المتفجر بالأنوثة, متنفس له وهم كثر هناك صدقني؟ وبعد شهر أو ربما أقل ستموت؛ إما إنها ستقتل, أو من شدة الجوع, أو إنها حتماً ستصاب بمرض جنسي فتاك من تلك الأمراض المتفشية هناك!

فهي بالنسبة إليهم مجرد أنثى في موسم التزاوج ليس إلا, وهذه هي الطامة الكبرى! الحياة هناك في تلك المعسكرات البغيضة مثل غابة تعج بالوحوش الضارية النهمة للافتراس.

بالمناسبة يا محفوظ لا حاجة لأن اشرح لك كثيراً عن معسكرات الاحتجاز القسري تلك؛ لأنني أنا شخصياً ضمن لجنة من القوات الدولية عليها زيارة تلك المعسكرات في الأول من شهر حزيران القادم, وأنت ستكون برفقتي بالطبع؛ فأنت مترجمي الخاص, وستراها بنفسك حينما سنتوجه إلى هناك.

محفوظ شعر حينها بالدوار, جلس القرفصاء على الأرض برهة من الزمن خارت قواه فجأة, ثم نهض وعاد لدنيا مهرولاً, لما وصل إليها انهار وراح يصرخ بوجهها:

- ليش بقيتي بدولة سنه ستان بعد التقسيم؟

ولم يكد يكمل كلامه وصراخه عليها حتى قاطعته قائلة بنبرة عصبية:

- انت كلي وين جان لازم أروح؟ بكلا الحالتين راح يكون هذا مصيري!

فهي حتى لو تخلت عن زوجها في حينها, وطلبت العودة لجمهورية شيعه ستان, لن يثقوا بمثلها على أراضي دولتهم, سيضنونها جاسوسة أو مخربة, وسيرمونها في معسكرات الاعتقال لا محالة, والمعسكرات, بعد أن تدخلها بلا رجل يحميها ويحمي أطفالها, لن يكون حالها فيها أفضل مما مرت به في سنه ستان. هكذا شرحت دنيا سبب بقائها في سنه ستان لمحفوظ الذي اقتنع بسرعة وكف عن تأنيبها ولومها.

- لكن على الأقل أطفالي يمكن يعيشون بأمان بالمعسكرات...

محفوظ:

- احجيلي شلون يعيشون هناك بأمان؟
- من ساءت الأوضاع بسنه ستان خططت لذلك, أجتاز الحدود وأدخل للمعسكرات, وهناك أنتحر وره ما أطمأن على أطفالي اللي راح يحصلون على رعاية مباشرة من قبل المنظمة الدولية التي تعزل الأيتام عن بقية المحتجزين حتى تحميهم من القتل وغيره. وقتها سأكون ممتنة للموت اللي يخلصني من واقعي المرير اللي اعيشه كل يوم, أموت أحسن ولا كل يوم بحضن رجال ينهش بلحمي.

تركها محفوظ قبل أن تكمل حديثها وخرج من الغرفة ذاهلاً بعد الذي سمعه منها, ومن النقيب من قبلها. ترنح ممسكاً رأسه الذي كاد أن ينفجر من شدة الصداع, شعر بدوار شديد, خارت قواه مجدداً, ثم سقط مغشي عليه, فهرع إليه أفراد النقطة ليسعفوه. حين قيم النقيب حالته, أمر أفراد القوة باستدعاء سيارة الإسعاف من مقر الرصافة لتنقله نحو المنطقة الدولية الخضراء لتلقي العلاج. حين استيقظ محفوظ من غيبوبته في مساء ذلك اليوم وجد النقيب داوني يجلس بالقرب من سريره بمستشفى ابن سينا في المنطقة الدولية الخضراء. ابتسم النقيب بوجهه وأخبره أنها مجرد ضربة شمس وحالة من الإرهاق لا تستدعي القلق, وإنه سوف يعود معهم بعد قليل.

فكان السؤال الأول الذي وجهه محفوظ للنقيب عن دنيا, تلك المرأة التي تم انتشالها من الموت على جسر الأئمة, فأخبره النقيب داوني خبراً كاد يطير معه محفوظ من الفرح. قال له أنه رتب لها الخروج خارج العراق إلى تركيا, وقد جلبها وأطفالها معه إلى مكتب منح اللجوء في المنطقة الدولية الخضراء, مع توصية من النقيب شخصياً بتسفيرها لدولة من الدول المتوفرة للجوء, ستنقل إليها هي وأطفالها بعد أيام قليلة لحين إتمام الإجراءات.

"ها هل ارتحت الآن يا صديقي ؟"

لم يجد محفوظ غير الدموع طريقة ليعبر بها عن فرحته لنجاة دنيا وأطفالها من الموت ذلك اليوم, واحتضن النقيب الذي هو الأخر لم يستطع كبح مشاعره, فنزلت من عينيه بضع دمعات كانت عصية فيما سبق؛ إذ لطالما أخفى النقيب الجلف خلف تلك الملامح القاسية مشاعره عن الجميع, حتى أن رفاقه في النقطة على الجسر, كالملازم تشارلز, الذي حضر لاحقاً, أستغرب تلك الدموع والاهتمام المفرط بهذا المترجم الذي لم يقضي معه في النقطة سوى يوم واحد لم يكد يكمله حتى.

.....

الفصل الثاني

هاجس القدر

مر محفوظ بوقت عصيب بعد أن عاد للنقطة من المستشفى بسبب ما رآه وسمعه من أحداث مأساوية في يومه الأول كمترجم للقوات الدولية على جسر الأئمة.

لم يستطع محفوظ نسيان ذلك المشهد المؤلم الذي وقع أمامه وكان هو أحد شهوده نهار ذلك اليوم, الموقف الصعب الذي تعرضت له تلك المرأة المسكينة وأطفالها الأبرياء. موقف أثر فيه كثيراُ وجعله شارد الذهن لما تبقى من النهار, وحتى حين حاول النوم في تلك الليلة العصيبة التي مرت عليه لم يتمكن من ذلك, راودته أحلام غريبة لم يألفها قبل, لقد فز من نومه مرعوباً مرات كثيرة. أحلام تكررت فيها الوجوه والحوارات بشكل غريب.

استيقظ محفوظ من مخاض نومه العسير فجراً تعتريه رغبة عارمة بترك العمل والعودة للولايات المتحدة للهرب من فوضى هذا البلد المجنون. خرج من غرفته التي تتذيل صف غرف الفريق وتوجه نحو درابزين الجسر ليفكر في الأمر جليا. هل يخبر النقيب بقراره الذي توصل إليه في رغبته في العودة وترك العمل الذي لم يقضي فيه سوى نهاراً واحداً لم يتممه حتى؟ كان يتأمل سكون هزيع الليل الأخير الذي قطعته أصوات الجوامع الكثيرة

التي ترفع حينها الآذان لصلاة الفجر في كلا المدينتين اللتين لا يفصل بينهما سوى نهر دجلة, وتلك الجسور التي يقف محفوظ فوق واحد منها. تلفت من حوله فلم يرى سوى ظلام دامس لا تكسر سطوته سوى أضواء شحيحة باهتة لبيوت متفرقة على ضفتي النهر يملك أصحابها مولدات كهربائية عوضوا بها انقطاع الكهرباء الوطنية عن بيوت وأحياء المدينتين والبلدين الجارين عموماً.

الصلاة التي نسيها محفوظ مدة طويلة, بعد أن قرر أن ينسى بلده, وينسى معه إسلامه وإلى الأبد؛ لأنه كان قد وصل لقناعة أن ويلات بلده كلها بسبب العنف الطائفي والديني الذي استشرى بالبلد عقب الاحتلال, والذي أججه حفنة من رجال الدين, أو بالأحرى من حسبوا على الدين, بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان, وتبعها الجهلاء من هذا الطرف وذاك فأججت تلك الفتنة الشعواء التي أشعلت شرارتها أتون الحرب الطائفية الأولى مطلع العام 2006, وقتها شاهد محفوظ بأم عينه, مصلين يشوون أحياء, وتقطع أوصالهم بانفجار حزام ناسف يرتديه بهيمة بشرية؛ ليتقرب بدمائهم إلى الله بينما كانوا يؤدون الصلاة في المساجد وذنبهم الوحيد أنهم شيعه!

كما شاهد بأم عينه جثث رجال سنه تنهشها كلاب المزابل وضواري الفلاة بعد أن تخطفهم المجاميع المسلحة وتقتلهم للانتقام عقب كل تفجير. تفجيرات

في الأسواق المزدحمة, جثث مجهولة الهوية كانت ترمى في الشوارع والمزارع, أناس يختطفون ويقتلون, نساء تغتصب, موت لا يفرق بين شيخ أو شاب, طفل أو مرأة, قنابل ورصاص يحصد الأرواح بلا أدنى رحمة. بعدها رحل محفوظ وترك وطنه المحتضر من خلفه تنهشه تلك الفتنة اللعينة, والتي أدت لاحقاً لدخول تنظيم داعش الإرهابي للبلد واحتلال مسلحيه لمساحات واسعة من أراضيه منتصف العام 20014, ورغم نجاح العراقيون بتحرير مدنهم من التنظيم الوحشي إلا إن عمليات القتل والتهجير التي رافقت دخول التنظيم أججت فتنة أخرى مهدت لاندلاع الحرب الأهلية الكبرى مطلع العام 2019, الحرب الأهلية التي مزقت البلد وأدت لتقسيمه بعد عام واحد.

بلد لم يهدأ يوماً ولم يستكن بشكل محموم, مثل كرة تتقاذفها أرجل شريرة. بلد الحروب العبثية, والانقلابات الكثيرة. والضحية هم أبناء الشعب المساكين الذين كان الموت هو حصتهم الوحيدة. حروب رعناء وانقلابات كثيرة أطاحت بآمال الشعب بالاستقرار والعيش الرغيد. أما الحكام الذين قرروا تلك الحروب فقد كانوا بعيدين عنها, يجلسون مع عائلاتهم في بيوت أمنة.

وقف محفوظ هناك على الجسر طويلاً بينما كان يتأمل نهر دجلة من تحته, ويستذكر ماضيه بصمت في سكون الفجر. نهر دجلة الحنون الذي لطالما سمع من الكثيرين بوحهم إليه بأسرارهم وشكواهم لهمومهم. أضواء كشافات النقطة كانت تتلألأ متراقصةً على وجه ماء النهر الداكن, والتي تلاشت رويداً مع انبلاج ضوء الفجر الذي زحزح نوره ما تبقى من عتمة الليل.

راح محفوظ يستذكر ماضيه الأليم: ذلك الطفل اليتيم الذي عاش بلا أب ولا أم في حواري بغداد وأزقتها بشظف العيش. الطفل اليتيم الذي نجح رغم الفاقة في أن يعمل ويدرس حتى أنهى الدراسة بتفوق, لكن, مع الكثير من الألم والتعب والمشقة.

فتح محفوظ عينه على الدنيا في منطقة بغداد الجديدة قرب سينما البيضاء عند الإشارة الضوئية, صبياً هزيلاً عمره خمسة أعوام تقريباً, يحمل بيده علب السجائر, ويدور بها بين السيارات التي تتوقف للإشارة الحمراء ليبيعها ويكسب قوت يومه. يخرج منذ الفجر ولا يعود للبيت حتى يحل الظلام, كل يوم يشقى ويكد حتى تتورم قدميه وينهك تماماً, ومن ثم يعود لبيت خالته الظالمة وزوجها الذي يكرهه ويعنفه بشدة. خالته التي أوته في بيتها بعد أن أعدم نظام البعث والديه على خلفية انتماء والده لحزب سياسي محظور مطلع ثمانينيات القرن المنصرم. لقد تذكر محفوظ تلك الأحداث ومرت أمامه

مثل فلم سينمائي تراجيدي مأساوي. كل ما مر به أيام طفولته العسيرة تذكره محفوظ في تلك الساعة بشكل غريب: المهانة, الجوع, البرد, الحر, الاضطهاد, المرض, العوز والحرمان. لقد تألم محفوظ كثيراً وهو يسترجع تلك الذكريات المؤلمة التي مر بها أيام طفولته الشائكة التي عاشها في بيت خالته. تذكر ضرب وتعنيف خالته وزوجها له كل يوم تقريباً. تذكر ذلك اليوم الذي عاد فيه للدار يحمل بين ذراعيه الصغيرتين لعبة بلاستيكية على شكل سيارة رخيصة اشتراها من بائع اللعب ببعض من ربح البضاعة التي باعها ذلك اليوم. يومها قامت خالته بكي يديه بجمر السيجارة. آثار تلك الحادثة تركت ندوباً لا تزال آثارها باقية على كفه اليمين حتى اليوم. لم تدرك تلك المرأة الظالمة إنه مجرد طفل صغير, رأى لعبة أحبها فاشتراها بعقل وشغف الطفولة باللعب الجميلة, لم يعرف محفوظ حينها أنها كانت من الأشياء المحرمة عليه وعلى أمثاله! لكن ألم جمر السيجارة علمه نسيان أشياء كثيرة, وليست اللعب التي يراها معلقة على رفوف المحلات وواجهاتها, حتى جوعه علمه ألم الكي أن ينساه ولا يفكر في شراء الطعام الذي يراه في السوق من مبلغ البضاعة. يكتفي برغيف الخبز وسفرطاس الرز المخلوط مع المرق الذي ترميه عليه خالته كل فجر ليكون هو طعامه لليوم بطوله.

تذكر محفوظ كيف أنه كان يأكل طعامه, تحت السلم بأمر من زوج خالته الذي يكرهه بشدة, حتى إنه كان ينام هناك ويقضي الوقت حزيناً يبكي بصمت؛ لأنه ممنوع عليه أن يجلس ليشاهد التلفزيون معهم, كم تمنى أن يشاهد أفلام الكارتون معهم, كان يكتفي بسماع أصوات الشخصيات التي يحبها ويسمع أقرانه من الباعة يتحدثون عنها, كم حلم محفوظ بأن ينام مع أبناء خالته في حجرتهم المرفهة, وعلى سرير مثل أسرتهم الوثيرة. كان ذلك أمراً مستحيلاً؛ فزوج خالته لم يسمح أن يجالس أطفاله المتربين المترفين طفلاً من أطفال الشوارع مثل محفوظ. نسي زوج خالته أن طعامهم ومشربهم هذا كله يجلبه لهم ذلك الطفل الهزيل, ابن الشارع كما كان يسميه من عائدات بيع السجائر والمكسرات في تقاطعات الطرقات وإشارات المرور, بينما كان هو عاطل عن العمل منشغل بملذاته, يعاقر الخمر والنساء. فلطالما رآه محفوظ يعود للبيت بغياب خالته مصطحباً معه واحدة من مومسات الشوارع أو من بنات الملاهي التي كان يرتادها. يصفع محفوظ بقسوة ويأمرها بترك البيت والخروج نحو الشارع, ويحذره من أن يخبر خالته بما رآه.

تذكر محفوظ يوم عاد إلى البيت بعد غروب شمس يوم شتوي بارد, وقد كان يرتجف من شدة البرد والحمى, كان مريضاً حينها, لم يكن يملك معطفاً يتدفأ بها من البرد مثل باقي البشر.

كان متعباً بعد يوم عمل شاق وطويل من الوقوف عند تقاطع الإشارة الضوئية. دخل يرتجف من باب الدار فوجد ملابسه وحاجياته مجموعة في صرة كبيرة قرب مدخل البيت, وكان زوج خالته بانتظاره ثملاً معتكر المزاج, قبض بكفه القوية على ذراعه الملتهبة من الحمى بعد أن أخذ منه المال وكيس البضاعة, وجره جراً ووضعه هو والصرة في سيارته وأخذه في مشوار بعيد. لم يخبره أين سيأخذه تلك الليلة. لم يجرؤ محفوظ على سؤال زوج خالته حينها. مثل مجرم يحاول الهرب من شيء ما يطارده أو يترصده, كان زوج خالته يقود سيارته مرتبكاً يتلفت من حوله. محفوظ شعر بالخوف حينها, لكن خوفه تبدد لاحقاً بعد أن وصلت السيارة لباب بناية كبيرة. تبين له لاحقاً إن زوج خالته كان قد قرر أن يودعه في دار الأيتام ليتخلص من ملاحقة الحزب والأمن وتقاريرهم. لم يخبر محفوظ بالأمر, حتى إنه لم يودعه أو يسلم عليه, سلمه لمدير الدار الذي اتفق معه على ذلك في وقت سابق على ما يبدو وخرج. حينها لم يعرف محفوظ سبب رميه بالدار من قبل زوج خالته, لقد تفاجئ, كان مصدر دخل مالي كبير لهم, لكنه

عرف السبب من أحد موظفي الدار إن أجهزة الأمن قد استدعوا خالته المعلمة مع زوجها في ذلك اليوم لاستجوابهما عن سبب احتفاظهما بابن ذلك الخائن والعميل في دارهما. والده الذي ارتكب أكبر جريمة في البلد إذ ذاك, آلا وهي الإيمان بفكر سياسي غير فكر حزب البعث المتفرد بالحكم والسلطة.

مرت الأيام في دار الأيتام عسيرة على محفوظ, مثلها مثل أي سجن مظلم لا خلاص منه. عاش محفوظ في الدار عاماً كاملاً تحت القهر والحرمان. فحياته في الدار لم تكن بأحسن من حياته في بيت خالته, لا فرق بينمهما سوى خلاصه من التجوال بين السيارات في تقاطعات المرور. عاش محفوظ حياة قاسية في الدار, بين الجوع والأسى والمرض والضرب والتعنيف من الموظفين, ناهيك عن تلقيبه بلقب لازمه وقت طويل من حياته, وهو " ابن الخائن العميل" تلك الجريمة التي لم يقترفها هو, لأنه كان وقتها طفلاً رضيعاً, أو ربما كان جنيناً حين انتمى والده لذلك الحزب المعارض. فأي نظام ظالم ذاك الذي يأخذ الأطفال بجريرة آبائهم ويعاقبهم على جريمة لا دخل لهم فيها؟

حتى إن محفوظ لا يتذكر ملامح وجهي أبيه وأمه ليتحمل وزرهم, فقد أعدموهما حينما كان طفلاً رضيعاً لم يبلغ من العمر سنته الأولى. كل ما يعرفه عنهم هي أسمائهم التي تركوه يحملها, ويحمل معها وزرها الكبير.

بعد ذلك العام المر قام محفوظ بالهرب من الملجأ والعودة إلى إشارة المرور قرب السينما ليبدأ حياة أخرى. هكذا جرت الأمور, اشترى محفوظ كمية من السجائر والمكسرات من مال أعطاه له بعض المتصدقين. كان يبيع السجائر وغيرها على أصحاب السيارات نهاراً, وينام تحت السلم المظلم في بناية السينما ليلاً. النوم تحت السلالم المظلمة عادة ورثها محفوظ من بيت خالته ولم يستطع الإقلاع عنها. أين سيذهب؟ لا خيار لديه غير ذلك السلم المظلم وبناية السينما التي يعمل بالقرب منها. كانت السينما بمثابة بيت له بعد أن ترك الدار وهرب من الحياة القاسية فيها. لكنه, إذ ذاك, عاد للعمل لهدف معين؛ بدء بالعمل ليجمع المال حتى يتمكن من أن يجمع مصاريف المدرسة التي قرر أن يدخلها ويكمل تعليمه, أراد أن يصبح محامياً مرموقاً ويعيش حياته مثل باقي البشر.

فهو مع بداية العام الدراسي, حمل أوراقه الثبوتية, وذهب إلى المدرسة في حي الألف دار الشعبي القريب من السينما في منطقة بغداد الجديدة, وقد أختارها بعيدة عن مكان عمله في الإشارة الضوئية, بعقل رجل أعترك

الدنيا, لا كطفل صغير لم يبلغ الحلم بعد اختار تلك المدرسة, حتى إنه أسر مديرها بالسبب وراء اختياره لتلك المدرسة بالتحديد. حين دخل على المدير لغرفة الإدارة قال له إنه كان قد اختارها لسببين؛ الأول: لأن المدارس القريبة راقية ولا تقبل المشردين أمثاله في مقاعدها. والسبب الثاني: كي لا يراه زميل له في المدرسة وهو يحمل علب السجائر في الإشارة الضوئية عصراً فيسخر منه أمام التلاميذ في صباح اليوم التالي!

رغم أن صغر عمره فقط دخل محفوظ لمكتب المدير بخطوات واثقة كأنه رجل حكيم يعرف ما يريد. ووقف أمامه, وأخذ يقص عليه حكايته بكل تفاصيلها. المدير تفهم الأمر وقبله في الصف الأول الابتدائي, لقد أثار دهشته لشجاعته ولإصراره على إكمال الدراسة والتعلم فتعاطف معه ذلك المدير وسمح له بالانخراط في صفوف مدرسته. مع مرور الوقت أثبت محفوظ جدارته وتفوق على الجميع عاماً بعد عام. في الصباح يدرس في المدرسة, وبعد الدوام يبيع المكسرات والسجائر في الإشارة المرورية, وينام في بناية السينما التي أصبح فيها بعد فترة من الزمن, حارساً ليلياً بمرتب يعينه على المصاريف وتكاليف المعيشة الغالية. بقي محفوظ على ذلك الحال هناك حتى حصل على شهادة الإعدادية.

ملأ استمارة الانسيابية لاختيار كلية القانون التي طالما حلم بها ودرس وعمل بجد من أجل أن ينال شهادة البكالوريوس منها ويصبح محامياً كما خطط. لكنه, بعد أن سلم الاستمارة للمدرسة قال له المدير والخجل بادي عليه:

" ابني محفوظ عندي الك أخبار مو زينة "

وأخذه على جنب يشرح له تقرير جهاز الأمن والمنظمة الحزبية في منطقة بغداد الجديدة, الذي وصل للمدير, وفيه أمر مباشر بسحب استمارة الترشيح من محفوظ؛ لأنه ببساطة أبن خائن عميل لا يحق له العيش في البلد مثل خلق الله, وإن عليه أن يراجع التجنيد فوراً ليؤشر دفتر خدمته العسكرية بذلك.

بعد أن خرج محفوظ من غرفة الإدارة, قرر أن يترك العراق والى الأبد, لكن كيف له ذلك؟ وهو ممنوع من السفر, ومن إصدار الجواز أصلاً, حتى الخدمة العسكرية اعفي منها وتم تأشير دفتره بالخط الأحمر؛ بانه من عائلة خائنة للبلد ولا يمكن الوثوق به في صفوف القوات المسلحة, فترك حلمه وعاد للعمل في إشارة المرور محبطاً ومكسور الخاطر, عاد لعمله القديم ليكسب لقمة عيشه ريثما يأتيه الفرج.

ذلك الفرج أتاه عصر يوم التاسع من نيسان عام 2003 الذي سقط فيه نظام البعث على يد القوات الأمريكية التي اجتاحت البلد وخلعت صدام حسين من الحكم. أمل كان قد تجدد لدى محفوظ, لاحت له الفرصة من جديد. يتذكر محفوظ كيف ارتسمت على وجهه يومها ابتسامة حقيقية وهو يشهد سقوط تمثال صدام حسين الذي في ساحة الفردوس بحبل تجره دبابة أمريكية تجمع من حولها الناس فرحين. فظن محفوظ, للوهلة الأولى, أنه قد حان له الخلاص.

عاد محفوظ وملأ الانسيابية وقبل كطالب في كلية القانون في جامعة بغداد, وسرعان ما أنهى الدراسة فيها بتفوق بمراحلها الأربعة. لكن تبين له بعد مدة قصيرة إنه بدل ذلك الصنم الواحد الذي سقط في ساحة الفردوس قد انبثق في البلد ألف ألف صنم غيره! وبدل الحزب الواحد المستبد, تسلط على رقاب العراقيين عشرات الأحزاب الجديدة. تحت مسمى الديمقراطية المستحدثة, سرقوا خيرات البلد وزرعوا الفرقة والفتنة بين أبناءه حتى أوصلوا البلد إلى ما هو عليه اليوم. أما دم والديه فقد ضاع كما ضاع معه عمر محفوظ!

فحتى حقه في التعويض, كمضطهد سياسي, ومن ذوي ضحايا جرائم البعث, تم سرقته من قبل خالته الظالمة, التي تسلقت على أشلاء أختها وزوجها,

والدي محفوظ المعدومين, وصارت عضواً في البرلمان تحت يافطة الاضطهاد السياسي كونها من عوائل ضحايا نظام البعث البائد.

كما وإنها استولت على حق محفوظ في التعويض المالي الذي سرقته بالتزوير من مؤسسة الشهداء السياسيين. ذهب إليها محفوظ ذات يوم لمكتبها للاستفسار منها عن حقه بالتعويض الذي استلمته بالنيابة عن العائلة, حينها أنكرته وأخبرته أنها لم تستلم منه أي شيء.

أخبرها محفوظ إنه راجع المؤسسة للاستفسار منهم, فأخبره موظف في المؤسسة أنه لا يستطيع المطالبة بذلك الحق؛ لأن خالته قد قبضت كامل المبلغ, وإن أسمه غير موجود في الأوراق التحقيقية التي قدمتها خالته للمؤسسة؛ إذ أدعت فيها أن شقيقتها وزوجها المعدومين ليس لهما ولد يرثهما! وقد أقسمت زوراً على ذلك أمام قاضي التحقيق, فلما واجهها محفوظ بذلك عندما زارها في نفس اليوم في قصرها الكبير في حي القادسية الراقي في بغداد قامت بطرده وأمرت الحراس برميه خارج القصر.

بعدها وصل محفوظ لقرار نهائي لا بديل عنه بترك وطن قضى فيه عمره كله يبحث فيه عن الحق فلم يجد فيه سوى الظلم والقسوة والاضطهاد.

مارس محفوظ مهنة المحاماة لفترة قصيرة ثم قرر أن يتركها. لقد خسر قضيته الأولى, كانت قضية رفعها ضد خالته ليسترد حقوقه التي سلبتها منه بالتزوير والمخاتلة. لكنها, وبنفوذها الواسع, كسبت القضية على الرغم من كل الأدلة الدامغة التي قدمها محفوظ للمحكمة, مع تعهد وقعه محفوظ بعدم التعرض لخالته النائبة مستقبلاً. لم يعد محفوظ يثق بالقانون الذي من المفترض أنه درسه ويعمل بمهنة تطبق مبادئه وأحكامه. بحث محفوظ وفتش عن وظيفة حكومية تدر عليه مرتباً شهرياً يسد به مصاريفه, لكنه فشل في كل مرة كان يتقدم فيها للوظائف الحكومية, كانت التعيينات حكراً على المسئولين وأقاربهم والمنتمين للأحزاب, التي مقتها محفوظ ورفض الانتماء لأي منها, كان قد وصل حينها لنهاية طريق مسدودة, سوى من وظيفة مترجم للقوات الأمريكية التي احتلت البلد بعد عام 2003, تحصل عليها عن طريق زميل له في الجامعة كان قد انخرط قبله بالعمل فيها, وزكاه عند الأمريكان لكون محفوظ يجيد اللغة الإنجليزية.

محفوظ قبل بالوظيفة وقضى فيها عاماً واحداً فقط من أجل هدف أكبر وهو الحصول على الجنسية الأمريكية وترك البلد للأبد: فالقوات الأمريكية كانت تمنح اللجوء للمترجمين العراقيين الذين يقضون عاماً في العمل معهم كامتياز وحماية لهم من انتقام الجماعات المسلحة التي كانت تفتك بهم

وبعائلاتهم بلا رحمة. لاحت لمحفوظ الفرصة أخيراً في الخلاص من مستنقع بلده الموحل بالدم, والخراب, والمحسوبية, والرشوة, وتعظيم شأن الحقير, وتحقير العظيم. عام قضاه محفوظ يتنقل مع القوات الأمريكية على ظهور دباباتهم ومصفحاتهم, يتجنب القذائف والرصاص الذي كانوا يتعرضون له في مهماتهم من أجل خلاصه الأخير, ثم حصل على اللجوء أخيراً وغادر العراق في العام 2010.

كل ذلك تذكره محفوظ وهو واقف هناك على الجسر, وفي النهاية شعر بأن في عودته إلى العراق هذه المرة فيها شيء من القدر بعد كل تلك العذابات والآلام التي تعرض لها في العراق. وسواس غريب تملكه, فلطالما تساءل مع نفسه؟

- لماذا عدت للعراق من جديد؟

كيف دفعه العوز في الولايات المتحدة للقبول بوظيفة مترجم للقوات الدولية والعودته للبلد الذي هرب منه لولا ذلك القدر المحتوم؟

لماذا قبل بتلك الوظيفة الخطرة أصلاً وقد كان بإمكانه أن يجد أي عمل أخر هناك في نيويورك بنفس الأجر إن لم يكن أعلى؟

كيف وجد تلك الورقة التي تهاوت بالصدفة تحت قدميه حين كان يجلس بمطعم الونديز في بروكلن حيث يسكن؟ ما ذلك الصوت الغريب الذي سمعه يأمره بأن يحمل تلك الورقة من الأرض ويقرأ ما مكتوب عليها؟ كانت إعلان من منظمة الأمم المتحدة تطلب فيه مترجمين عرب للعمل مع القوات الدولية المتواجدة لحفظ السلام في إحدى الدول المنبثقة عن جمهورية العراق "سابقا" وعلى إثرها تقدم محفوظ للوظيفة وحضي بها.

"هل كانت تلك مجرد صدفة عابرة أم إنه القدر؟"

تساءل محفوظ مع نفسه تساؤلات كثيرة لم يجد لها إجابات شافية. هل هو القدر الذي جاء به إلى البلد الذي تعذب فيه وكرهه حتى قرر أن يهجره ويقتلع جذور منه والى الأبد, أم هي الصدفة؟

غلب محفوظ جانب الصدفة, نعم إنها لم تكن تعدو غير صدفة مثلها مثل أي صدفة مرت بحياته, وليست قدراً كما يعتقد, وأنه عام أخر سيمر من عمره, ينهي فيه عمله مع القوة الدولية, ثم يعود إلى بلده الجديد, البلد الأعظم في العالم, البلد الأمن المتسيد الذي يحمل جنسيته اليوم, الولايات المتحدة الأمريكية, بلد الحريات والديمقراطية والهناء, ومن بعدها سيعيش بقية عمره بسعادة ورفاه بالتقاعد المجزي الذي ستدفعه له المنظمة الدولية كما خطط.

لكنه في داخله, وأن أجاب على تساؤلاته تلك بتبريرات شتى, وحاول أن يقنع نفسه بالصدفة, لكنه ظل مشغولاً بهاجس القدر ووسواسه الذي أخذ يتملكه ويسيطر عليه فجأة. وسبب وسواسه ذاك هي الأحلام الغريبة التي كان يراها كل ليلة تقريباً, فهو كان يرى في المنام أطفالاً ثلاثة على هيئة ملائكة مجنحين, يحلقون فوق رأسه وينادونه باسمه, ويقولون له أنت المنقذ يا محفوظ. حلم تكرر عند محفوظ مرات عديدة, ذات الوجوه الثلاثة يأتون إليه كل ليلة تقريباً, وبنفس المكان, على الجسر حيث يعمل محفوظ وينام في حجرته الصغيرة, مثل ملائكة يطيرون فوقه ويهبطون قربه, يقولون له كلمة واحدة كل ليلة ويرحلون:

- أنت المنقذ

وفي ذات ليلة تعزز لدى محفوظ هاجس القدر حين حلم محفوظ بأولئك الأطفال الثلاثة, كانوا يحلقون فوق رأسه, هبط أحدهم بالقرب منه تماماً وقال له جملة واحدة:

- أتذكر يا عم محفوظ تلك الورقة في المطعم؟ نحن رميناها تحت قدميك وقلنا لك أقرأها!

نعم لقد سمع محفوظ صوتاً حينها, صوت طفل صغير يأمره برفع الورقة عن الأرض ويقرأ ما مكتوب فيها. كان هو الصوت نفسه, الطفل الذي رآه في منامه وتكلم معه بنفس الصوت الذي تناهى لمسمعه في المطعم ذلك اليوم. ذلك الحلم بالذات جعل من محفوظ يؤمن بالقدر ويغلبه على جانب الصدفة. لكنه كان مجرد هاجس ليس إلا. لا شيء مؤكد. سينتظر محفوظ الأيام القادمة ليرى جواباً شافياً لذلك الإحساس الذي يخالجه.

الفصل الثالث

الجحيم

مرت الشهور السريعة وجاء موعد زيارة معسكرات الاعتقال القسري في النهروان.

في الطريق نحو تلك معسكرات البعيدة, انطلق رتل السيارات المصفحة التابعة للقوة الدولية في شوارع مدينة الرصافة على شكل قافلة طويلة. أو بالأحرى ما تبقى من شوارعها. كان محفوظ يجلس جوار النقيب داوني في إحداها. كان ذلك اليوم هو الأول من شهر حزيران عام 2021, وهو موعد الزيارة التفتيشية لتلك المعسكرات من قبل اللجان الدولية لتقصي الحقائق عن الجرائم ضد الإنسانية في فترة الحرب الأهلية. سوف يدون النقيب مع باقي أعضاء اللجان الدولية إفادات عينات عشوائية من بين سكان تلك المعسكرات حول تلك الجرائم الكثيرة التي حدثت إبان الحرب الأهلية في جمهورية العراق "سابقاً " مطلع العام 2019. واجب محفوظ سيكون ترجمة تلك الإفادات من اللغة العربية للإنجليزية.

كانت تلك هي الرحلة الأولى لمحفوظ في شوارع مدينة الرصافة العاصمة فيما لو استثنينا بضعة رحلات خاطفة ما بين النقطة والمنطقة الدولية الخضراء المحصنة. جلس محفوظ جوار النقيب صامتاً في العربة المصفحة لكنه كان مشغولاً يطالع من النافذة معالم مدينة غريبة كأنه لا يعرفها ولم

يكن يسكن فيها. مدينة تختلف ملامحها عن تلك المدينة التي غادرها قبل نحو عشرة أعوام, والتي كانت من أجمل المدن وأنظفها.

لم يكد يصدق ما رآه في تلك الرحلة, أهذه بغداد التي عاش فيها؟ هل تلك الشوارع الرثة التي تملأها النفايات هي ذاتها شوارع بغداد التي كانت من أجمل المدن وأنظفها؟ لا هي ليست بغداد, إنها بالتأكيد مدينة أخرى.

خلال الرحلة الطويلة منفك محفوظ يحمل بيده كامرة صغيرة ويصور بها تلك المشاهد الرثة للمدينة الممسوخة. لقد توجهوا في البداية نحو مقر القوة الدولية في الرصافة العاصمة, والذي هو عبارة عن قصر كبير كان الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين قد شيده على الكورنيش بمدينة الأعظمية "سابقاً" والذي هو اليوم مقر للقوة الدولية في مدينة الرصافة, كواحد من المقرات الثلاث الرئيسة في بغداد "سابقا". حيث يقع الأول والرئيس في المنطقة الدولية الخضراء, التي تتمتع بوضع خاص من بين مناطق ومدن جمهورية العراق "سابقاً " كونهاا منطقة محمية وتدار دولياً من قبل منظمة الأمم المتحدة. والمقر الثالث يقع في مدينة الكرخ عاصمة جمهورية سنه ستان, وتحديداً بمنطقة الجادرية كما هو مبين في كتيب أعطي لمحفوظ من قبل أدارة القوة الدولية, مثبت فيه أماكن تواجد القوة الدولية في أراضي

جمهورية العراق "سابقاً" , وبأدق التفاصيل. أما المقر الأخر فيقع بالعاصمة أربيل عاصمة دولة كردستان.

كان على أفراد الفريق أولاً التجمع في مقر القوة الدولية في الرصافة قبل أن ينطلقون من هناك نحو تلك المعسكرات. لم يمر وقت طويل حتى حضر باقي أعضاء اللجنة من مقراتهم المتفرقة. ثم تحرك الرتل باتجاه ساحة عنتر ومن هناك سيتخذون من طريق محمد القاسم مساراً لهم وصولاً لحي النهروان.

الشوارع كانت شبه خالية تقريباً, سوى من بعض السيارات القليلة التي كانت بموديلات قديمة وتنفث دخان العوادم بغزارة.

أما المارة فكانوا يرتدون ملابس رثة ويقطعون الأزقة بحذر. قامتهم محنية, ووجوههم كالحة, حتى ملامحهم كانت غير واضحة, ربما من شدة الجوع والتعب والخوف من المجهول الذي يتربص بهم. فرشقات رصاص متفرقة كانت تسمع مدوية في أماكن متفرقة لتزرع الخوف في قلوب أولئك المارة الذين كانوا يسيرون قرب أسيجة البنايات بخطوات حذرة.

شوارع كانت من أجمل الشوارع في بغداد كشارع "عمر بن عبد العزيز" المطل على الساحة ويتفرع منها صار اليوم عبارة عن مكان تملؤه النفايات بعد أن أغلقت فتحته على الساحة بكتل كونكريتية.

الأسواق لم تعد مزدحمة وعامرة بالبضائع كما كانت عليه في السابق. محلات كثيرة مقفلة والباقية شحيحة البضاعة. لكن العجيب في الأمر إن النقيب داوني كان يخبر محفوظ عن مشاهد معينة قد غابت عن المدينة, بنايات هدمت, نصب سويت بالأرض, تماثيل نهبت, والعجيب إن النقيب كان يعرف تلك الأماكن بالاسم والموقع. فهو مثلاً حين اقترب الرتل من ساحة عنتر التفت لمحفوظ وقال له مبتسماً:

- هذه ساحة عنتر! أليس كذلك؟

كان يعرف مكانها واسمها, وحتى أشهر المطاعم المطلة عليها: مطعم لحم بعجين الجندول مثلاً الذي أحالته الحرب إلى ركام بعد أن تهدمت واجهته الجميلة ومعظم بنايته الكبيرة, ولم يتبقى منه سوى بعض حروف أسمه العريق منقوشة أعلى واجهته المتهدمة. أشار إليه النقيب بسبابته وقال:

- صور يا محفوظ المطعم الشهير وشاهد الدمار الذي لحق به بعد الحرب, صور فأنك ستحتاج لتلك المشاهد لتعرف المعالم التي غابت عن مدينتك السابقة.

لكن هناك مشهد ناقص أخر في تلك الساحة لاحظه محفوظا بينما اجتاز الرتل ساحة عنتر فسأل نفسه بصوت مسموع:

ساحة عنتر خالية من تمثال الفارس العربي, أين التمثال, أين الفارس العربي؟

كانت الساحة تبدو مجرد فلكة دائرية بلا روح, فالتفت إليه داوني وقال له هذه المرة جملة أدهشته بشدة:

- ها محفوظ! أين الفارس وحصانه؟ صور يا محفوظ الم أقل لك أنك ستحتاج كامرتك كثيراً لتعرف معالم مدينتك المفقودة!

سأل محفوظ النقيب بتعجب:

- ما أدراك أنه كان في هذه الساحة يوماً ما تمثال لفارس وحصانه يا سيدي؟

فأجابه وهو يتبسم ولكن كان جوابه هذه المرة كان كافياً لأن يكف محفوظ عن تعجبه بمعرفة ذلك الأمريكي بمدينة ليست من مدن بلده البعيد.

- أسمع يا محفوظ أنا اعرف بغداد أكثر منك, فقد خدمت في الجيش الأمريكي في العراق منذ العام 2003 حتى خروج القوات الأمريكية من بغداد مع بداية عام 2012, ثم عدت إلى بغداد بعد شهر واحد فقط ضمن القوة المكلفة بحماية السفارة الأمريكية. لقد تعلقت بهذا البلد يا محفوظ. مرت الأعوام وبقيت هنا حتى اندلاع الحرب الأهلية وتقسيم أراضيه بشكل رسمي للدول الثلاث, وبعد ذلك نقلت خدماتي مباشرة إلى القوة الدولية التي استقرت في المنطقة الخضراء لحمايتها كمنطقة تحت الإدارة الدولية, ثم كلفت من قبل القوة الدولية قبل ستة أشهر؛ لكي أكون أمراً لنقطة الجسر رقم واحد أو جسر الأئمة, ولحد الآن أنا ها هنا فيما تبقى من بغداد, إذن هي ثمانية عشر عاماً بالتمام والكمال أليس ذلك صحيحاً؟ أي أني قضيت فيها وقتاً طويلاً على ما أظن؟ أنا أعرفها أكثر منك يا سيد محفوظ!

فرد محفوظ وهذه المرة وقد زالت عنه علامات الدهشة بعد أن عرف أن هذا الأمريكي يعرف بغداد كأنه واحد من سكانها.

- نعم صحيح ...

وأردف النقيب:

- أنا أعرف مطعم " باجة الحاتي " في منطقة الشيخ عمر (وقد نطق حروفها بلهجة مكسرة حتى أنه قد أشار بيده لاتجاه منطقة الشيخ عمر الصحيح) وقد أكلت فيه ذات مرة وجبة من الباجة العراقية الشهية.

كما وأعرف " القيمر العراقي" الشهي وطعمه اللذيذ في وجبة الإفطار, فقد كنت أواظب على شراؤه من أحداهن كانت تفترش الرصيف بحي البتاويين في منطقة الباب الشرقي حيث كانت تبيعه للمارة هناك فجراً.

أنا زرت مناطق من بغداد لن تخطر على بالك ولقد لبست الصاية والغترة والعقال.

لقد زرت مرقد الإمام علي في النجف, ومرقدي ولدية الحسين والعباس في كربلاء, كما حضرت مناقب الذكر في حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني.

بعد كل هذا هل ستظل فاغراً فمك كل ما أدلك على مشهد ناقص من مشاهد بغداد يا محفوظ؟

سكت محفوظ بعد أن تيقن إن هذا الأمريكي الأشقر الذي يجلس بجانبه يعرف مدينته أكثر منه, لا بل وهو الذي عليه أن يسأله عنها, لا من المارة الذين يلتقيهم بالقرب من النقطة على الجسر.

النقيب وبعد صمت طويلاً سأل مترجمه:

- آه بالحق محفوظ هل كنت تسكن في بغداد؟
- نعم سيدي في منطقة يقال لها بغداد الجديدة بمدينة الرصافة.

فقال له النقيب وهو يقلب بأوراق يحملها:

- كان لي صديق هناك يتقن اللغة الإنجليزية, كان يتصل بي من وقت لأخر وهو بعمرك تقريباً يسكن في عمارة الكبيسي قتل خلال الحرب الأهلية. قتلوه لأنه عمل مترجماً مع قواتنا قبل التقسيم.

بعد ذلك سكت الحوار بين الرجلين ليعود محفوظ للتأمل في معالم المدينة المزرية, ما هي إلا دقائق قليلة, وبعد أن اجتازوا شارع المشاتل, انعطف الرتل ناحية طريق محمد القاسم السريع بالقرب من تقاطع المعهد القضائي. كان الطريق السريع مهجوراً تماماً من السيارات, فالتفت النقيب لمحفوظ وقال له قبل أن يسأل وكأنه كان يقرأ أفكاره:

السبب هو البنزين الذي وصل سعر اللتر الواحد منه اليوم بالعملة الأمريكية لحوالي الخمسين دولار, الكل يسير على الأقدام والدراجات الهوائية, هي وسيلة النقل الرئيسة في بلدك الأم يا محفوظ!

لن ترى يا بني سيارات على الطريق السريع كالسابق!

سأل محفوظ النقيب بتعجب:

- كم سعر لتر البنزين؟

أجابه النقيب داوني:

- نعم خمسون دولاراً, والحصول عليه أمر صعب يا محفوظ. صدقني؟

فصمت محفوظ طوال ما تبقى من الطريق يطالع المدينة من على صهوة الطريق السريع الذي هو اليوم عبارة عن ركام مجسرات وسط ركام مدينة مهجورة.

البنيات الشاهقة التي كانت تطل يوماً ما عليه إما محترقة يكسوها سخام الحرائق كالجامعة التكنولوجية في شارع الصناعة, أو إنها تهدمت مخلفة أكواماً من الركام خلفها, ومنها من سويت بالأرض تماماً كملعب الشعب

الدولي الذي لم يتبقى من أثاره سوى أطلال مدرجاته شاهدة على حجم الخراب والدمار.

واجهات المباني التي كانت جميلة وأنيقة نهشتها رشقات الرصاص وقذائف المدافع وفجوات الصواريخ التي هدمتها, ملطخة بأثار ألسنة النيران التي أحرقتها. كانت هناك جمل وعبارات طائفية كتبت بالطلاء على الجدران وواجهات البنيات في كل مكان تقريباً

وقبل أن يصل الرتل للمعسكر المنشود بحي النهروان, لاحت من بعيد مخيماته المترامية الأطراف. خيم زرقاء على مد البصر بالآلاف, لا بل بعشرات الآلاف تحتشد داخل سياج طويل من الأسلاك الشائكة, تحفها أبراج مراقبة عالية مشيدة من الخرسانة الجاهزة, بجانب الشارع السياحي الرابط بين العاصمة بغداد وبين مدينة ديالى.

وصل الرتل إلى البوابة الرئيسة ودخل, وكانت المآسي تلوح في الأفق من بعيد, فقد تكالب وتأهب المئات من الحراس, يحملون بأيديهم البنادق والعصي الكهربائية التي كانت تزمجر صعقاتها لتهدد جمهرة من المحتجزين الذين تجمعوا قرب البوابة مثل الوحوش. نعم! لم يكنوا أولئك الذين تجمعوا قرب البوابة بشراً, الوصف الأدق لهم مثل سكان بلد ضربته

مجاعة مما كان شائعاً في بلدان أفريقيا وقت المجاعات وأعوام القحط, كتلك التي ضربت أثيوبيا أو الصومال وغيرها, أو هم بالحقيقة أشبه بسكان معسكرات ألمانيا النازية الذين احتجزوا أثناء الحرب العالمية الثانية, كمعسكر " اوشفتيز " سيء الصيت. كانوا يركضون نحو رتل القوة مثل المجانين ويصرخون بصخب ويبكون. أجسادهم هزيلة وشبه عارية من الثياب سوى من قطع قماش رثة وبالية بالكاد تغطي عوراتهم, وجوههم شاحبة, الرجال لحاهم معفاة, والنساء حالهن كحال الرجال, لا بل وأسوء, كتلك التي كانت تركض مع السيارة المصفحة تحمل بيدها رضيع وتصرخ:

" عفيه أكل نريد أكل انطيني الله يخليك "

حال تلك المرأة أختزل المشهد برمته لمحفوظ حين لمحها وهي شبه عارية تماماً بلا ملابس تسترها سوى من ثوب بالي لا يكاد يسترها, شعرها عفر منكوش, كانت تصرخ بشدة مثل المجنونة, حتى إنها حاولت رمي نفسها تحت إطارات السيارة المسرعة, بيدها رضيع بحجم دمية صغيرة يتلوى, كان يحتضر على ما يبدوا من تعابير وجهه الشاحبة. كانت ترفعه قرب نافذة المصفحة التي يجلس محفوظ بجانبها. كانت تصرخ بأعلى صوتها وتطلب الطعام بإلحاح:

" الله يخليك صار أسبوع ما ماكله مو علمودي والله علمود ابني هذا راح يموت ما عاد ينزل من صدري حليب من الجوع "

هيئتها تلك, ورضيعها المحتضر, وكلماتها تلك كانت كافية لأن ينهار محفوظ مرة أخرى ويشعر بدوار شديد لكنه تحامل على نفسه هذه المرة, فهم بفتح النافذة التي يجلس بجانبها ليعطيها كيساً من طعام (الأم أر إي) الجاهز للتحضير الذي يعد وجبة متكاملة تجهزه القوة الدولية لأفرادها في الواجبات الخارجية.

لكن النقيب وضع يده على يد محفوظ التي كانت على قفل النافذة ومنعه من ذلك دون كلام ثم قال له بعد أن رآه يذرف دموعه بصمت حزناً منه عليها:

- يا محفوظ هذا خطر عليك! لسلامتك تفهم الموقف أرجوك! وتذكر التعليمات التي طرحتها عليك هذا الصباح ... وأتبع:

إنهم وحوش, لقد فقدوا إنسانيتهم, وما عادوا بشراً مثلنا, هذا هو الواقع " وأشار بسبابته للمحتجزين الذين كانوا يصطفون على جانبي الطريق"

هل تعلم إنهم قد قتلوا لغاية الآن قرابة العشرين فرداً من أعضاء المنظمات الدولية الإنسانية أثناء إطعامهم أو تقديم المعونة الطبية لهم.

قتلوهم بلا رحمة يا محفوظ, بالعصي والحجارة والسكاكين وغيرها, علاوة على قتلهم مئات الحراس المحليين خلال ثورات تقوم هنا بين فترة وأخرى, كما إنهم يقتل بعضهم بعضاً بوحشية لا لشيء سوى الطعام.

فهم يأكلون لحم رفاقهم الموتى يا محفوظ! ولولا هؤلاء الحراس المدججين بالأسلحة والعصي الكهربائية تلك لشهد هذا المعسكر مجازر تفوق التصور.

هنا سكت محفوظ ولم ينطق بشيء, سكن مكانه مثل جثة هامدة, وأشاح ببصره بعيداً عنهم, بينما كانوا مستمرين بالركض جنب العربات المصفحة لحظة اجتازهم البوابة الرئيسة.

تأكد محفوظ أن هؤلاء ما عادوا بشراً بالفعل, كلام النقيب- رغم قسوته- كان صائباً, فالحرب الأهلية والتقسيم وهذا المعسكر اللعين أحالت هؤلاء إلى مسوخ أو كائنات متوحشة, وهم في الحقيقة أقرب للحيوانات البرية المتوحشة التي تسكن الفلاة.

بعد مدة ليست بالطويلة وصلت القافلة لبوابة المعسكر الدولي الذي يتوسط بموقعه المحصن معسكر الاحتجاز. أسواره عالية مشيدة من الخرسانة

المتينة. أبراج المراقبة يعلوها نظام الدفاع الذاتي كالذي موجود في نقطة الجسر رقم واحد التي يخدم فيها محفوظ ورفاقه., حتى بدلات الحراس الأربعة الذين كانوا يقفون متأهبين خارج البوابة, بملابسهم الزرقاء المميزة لهم, وسحنهم الأجنبية وأسلحتهم المتطورة, كل ذلك دل محفوظ على إن ذلك المعسكر مخصص لعمل قوة تابعة لمنظمة الأمم المتحدة من الأجانب.

كانوا أربعة حراس سمر يقفون قرب البوابة المؤصدة مثل حوش ضخمة, يحملون بأيدهم أسلحة مشرعة بوضع التأهب لإطلاق النار, وجودهم بتلك الهيئة والملامح الحازمة كان كفيلاً بأن يبعد ذلك العدد الكبير من المحتجزين الذين رافقوا العربات المصفحة, عن البوابة التي فتحت لتدخل العربات منها.

هذا ما أخبر به النقيب مترجمه الذي سكت وضاع منه الكلام حتى وصلوا للبوابة وراهن على قوله:

- أنهم حتماً سيبتعدون عن المصفحات متى ما نصل لتلك البوابة التي تراها؛ فالحراس الذين تراهم قرب البوابة قساة لا يعرفون معنى للرحمة ولا التساهل. فهم مخولون بقتل كل من يحاول الاقتراب من البوابة, لقد فعلوا ذلك مرات كثيرة. لذا فالمحتجزين يتجنبون تلك

البوابة ويقفون بمنأى عنها وسترى ذلك بأم عينك! وإياك أن تراهن لأنك ستخسر الرهان!

وفعلاً وما أن وصل الرتل قرابة البوابة, حتى هرب جمهرة الجياع وابتعدوا عن العجلات ووقفوا بعيداً عنهم يترقبون؛ لأنهم يعرفون قسوة هؤلاء الأربعة الواقفين هناك خارج البوابة كما أخبره النقيب.

وبعد أن اجتازت العجلة الأخيرة البوابة أسرع الحراس بإغلاقها وانزووا خلف متاريسهم الأشد تحصيناً.

بعد التأكد من بصمات جميع الأفراد بواسطة الفاحص الإليكتروني الرقمي الذي ما إن وضع عليه محفوظ بصمة إبهامه الأيسر حتى ظهرت صورته الشخصية وكافة معلوماته الشخصية من أسم وتولد ورقم تسلسلي للهوية الدولية.

هو أجراء أمني للتأكد من هوية الزوار القادمين للمعسكر في بلد تنتشر فيه مافيا التزوير, والتي تجيد تزوير الأوراق الشخصية لأي شخص وإن كان الرئيس الأمريكي نفسه, وهذا ما قام بشرحه النقيب داوني لمترجمه الجديد محفوظ عن جهاز الفاحص الإليكتروني.

نزل النقيب من العربة المصفحة بعد أن نزع عن صدره الدرع الثقيل ووضعه مع بندقيته على المقعد. نادى على محفوظ الذي بقي جالس مكانه داخل العربة فهرع إليه على الفور وقال له:

- أذهب للمطعم لتستريح مع بقية أفراد القافلة وتتناول الطعام معهم, فالحاضرون هنا كلهم يتكلمون اللغة الإنجليزية ولا حاجة لوجودك معنا في الوقت الحاضر وسوف نقوم باختيار العينة للتحقيق معهم وستترجم لنا شهاداتهم بعد الاجتماع.

بعد ساعة عاد النقيب داوني من الاجتماع وهو يحمل أخباراً لم تكن سارة على ما يبدوا؛ كان ذلك جلي من ملامح الغضب والانفعال التي كانت البادية عليه, لم يشرح الأمر, طلب من فريقه الإسراع بركوب العجلات لمغادرة المعسكر. لقد تغيرت الوجهة والواجب.

تحول مسار الرتل نحو المنطقة الدولية الخضراء. هناك أجتمع النقيب مع فريق أخر, فريق أرفع بالمستوى عن ذلك الفريق الدولي الذي ألغي معه الاجتماع في معسكر النهروان. أخبر النقيب فريقه بالمستجدات باقتضاب ولم يوضح الأسباب. كان النقيب قلقاً معتكر المزاج. حتى إنه لم يتناول أي طعام.

كان الفريق الجديد مختلفاً ويبدو إن أعضائه على قدر عالي من الأهمية. كانوا مدنيين, يرتدون بدلات رسمية أنيقة, السيارات التي قدموا بها للاجتماع مدنية ومصفحة بدفع رباعي, من نوع (شوفر ليت تاهو) و(جي أم سي) و(تيوتا لاندكروزر) وصلت تباعاً إلى المكان على شكل مجموعات, وكل مجموعة تصل ينزل منها رجل مهم يتبعه مجموعة من الحراس يحيطون به ويوصلونه لباب القاعة ثم يعودون أدراجهم لينزووا قرب البوابة ينتظرون. كأنه مشهد من مشاهد الأكشن في أفلام الإثارة والتشويق. فعلى الرغم أن المنطقة الدولية الخضراء مؤمنة بالكامل, ومغلقة بأحكام, وفي منأى عن تلك الفوضى الحاصلة حولها, فأن الحراس كانوا جديين في تحركاتهم ومرافقتهم لأولئك المسؤولين.

كان أخر رتل فيهم وهو الأكبر, مكون من عدد كبير من السيارات السوداء.

محفوظ كان يقف قرب الباب الخارجي في حديقة البناية الكبيرة كما أمره النقيب داوني بذلك مع الملازم تشارلز والعريفين ستيوارت ونيفل, وهما من رافقا النقيب داوني في ذلك اليوم لمعسكرات الاعتقال.

نزل من السيارات حراس كثر كلهم يرتدون بدلات سوداء ونظارات شمسية ويحملون بأيديهم بنادق نصف آلية على خلاف الحرس الباقين لتلك الوفود التي سبقتهم, والذين أكتفوا بمسدسات (بريتا) أو (كلاك).

نزل الضيف وتبين أنه صاحب الدار والكل هم ضيوف عنده.

انه المندوب ألأممي السامي (مارك بايدن) الذي عينته منظمة الأمم المتحدة ليتولى مهمة الإشراف على ترسيم وتثبيت الحدود بين الدول الثلاث, ومنع قيام النزاعات المسلحة بين تلك الدول. نظر محفوظ لذلك الرجل المهيب بنظرة فاحصة حين مر بقربه وحياه ورفاقه بالإيماء لهم بكفه الأيمن, ودخل إلى المبنى على عجل بخطوات سريعة, يباريه حراسه عن اليمين وعن الشمال.

ملامحه توحي لمن لا يعرفه, انه أمريكي, وهو فعلاً أمريكي الجنسية, كهل له من العمر سبعون عام تقريباً, شعره أشيب مسرح بعناية للخلف, بوجه مستدير أبيض مائل للحمرة, وقوام متناسق متوسط بين الرشاقة والامتلاء, يتمتع ببنية قوية, رغم كبر سنه فأن سنوات العمر لم تترك أثراً كبيراً على سحنة وجهه النظر قليل التغضن والتجاعيد.

قال ملازم تشارلز متهكماً:

- هي محفوظ هل تعرف من يكون هذا؟

فأجابه محفوظ بنبرة متهكمة أيضاً:

- أنه الرئيس!

رد عليه ملازم تشارلز:

- جيد تعرفه إذن لا حاجة للتعريف؟ ها ...

بعد أن دخل الرئيس أغلقت أبواب المدخل من قبل حراسه الشخصيين, فهم من أستلم مهمة الحراسة بدل الجندي اليتيم الذي كان يقف على الباب وحيداً, بينما انزوى الملازم تشارلز ورفاقه ليجلسوا على مصطبة موضوعة تحت ظل شجرة كبيرة ينتظرون نهاية الاجتماع.

مر الوقت برتابة مملة على الجميع, فقد طال الاجتماع حتى اقتربت الشمس من المغيب وهم ينتظرون هناك عودة النقيب.

وبينما هم يترقبون خرج المبعوث السامي يحيطه الحراس, ثم تبعته بقية الشخصيات. ثم أخيراً خرج النقيب وتوجه مسرعا إليهم. ومن بعيد, وقبل أن يصل إليهم, لاحظ الجميع بما فيهم محفوظ ملامح الجدية والقلق البادية على النقيب, والتي كانت تفوق تلك التي اعترته في معسكر الاحتجاز حين ألغي

الاجتماع هناك. ركب في العجلة ولم يكلم أحداً منهم حتى مترجمه الشخصي محفوظ, والتحق به الآخرون.

تحرك الموكب الذي خصص ليرافقهم للحماية حتى وصلوا للنقطة على الجسر.

ثم أخيراً نطق النقيب أولى كلماته وقد وجهها لمحفوظ حيث قال له بصوت منخفض أشبه بالهمس:

- هل تعرف على ماذا يقبل بلدك الأم يا ولدي؟... أنه مقبل على الجحيم...

لما أراد محفوظ أن يستفسر منه عن معنى كلامه فأشار له النقيب بوضع سبابته على شفتيه عامودياً وأتبعها بصوت خافت " أش" والتي تعني لا تتكلم! وأخرج من جيبه علبة سجائره وأشعل واحدة وأخذ يدخن داخل العربة التي هي ممنوع فيها التدخين بحسب القانون الذي خرقه النقيب ولم يأبه له حينها, لا بل وأنه حتى لم يضع درعه وصف رصاصه على صدره خلال رحلة العودة, والتي هي أصلاً من المخالفات الكبرى التي يعاقب عليها القانون. فعلى ما يبدو من مجريات تلك الأمور كلها إن الخطب جلل.

ما إن وصل الرتل للجسر, وترجل الفريق من العجلة المصفحة, بعد أن غادرت القوة التي رافقتهم للجسر صاح النقيب بالجميع " تجمع " وصفر بصفارته الفضية التي لا تفارق سلسلة مفاتيحه ثلاث مرات متعاقبة, وهي علامة تدرب عليها محفوظ في الدورة السريعة التي تلقاها في المنظمة الدولية في نيويورك, ويدل سماعها على الإنذار من النوع الثالث الذي يعلنه أمر القوة في حالات الخطر القصوى. حينها غابت الشمس تماماً وبدأ الظلام يحل. وعلى الفور أصطف الجنود كل بحسب رتبته ووقف محفوظ في المكان المخصص للمترجمين في مثل تلك الحالات. قال النقيب بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

أسمعوا جيداً يا رفاق! للتو بلغت من قبل القيادة العامة للقوة الدولية, وعلى لسان المبعوث ألأممي (مارك بايدن) شخصياً والذي كان يترأس الاجتماع بنفسه بمعلومات خطيرة!

لقد بلغت بوجود معلومات استخبارية دقيقة تفيد بقرب وقوع حرب أكيدة بين جمهورية شيعه ستان وجمهورية سنه ستان. لذا على أفراد القوة الدولية, وكما بلغت أخذ جانب الحيطة والحذر والتهيؤ لجميع الاحتمالات.

أن تلك الحرب لن تكون حرباً عادية بالأسلحة التقليدية, بل ستستخدم فيها أسلحة محرمة دولياً, وهذه المعلومات شبه مؤكدة لذا تؤكد المنظمة على أخذ جانب الحيطة والحذر, وقد تنشب تلك الحرب بين الدولتين في أي لحظة.

صحيح أن القوة الدولية موجودة على الأرض وتمسك الحدود كما تعرفون إلا أنه كل الاحتمالات مطروحة لذا أقتضى التنويه كونوا متأهبين لذلك.

انتهى... انصراف!

تفرق الفريق وعاد محفوظ لغرفة منامه المخصصة له وهي عبارة عن غرفة صغيرة شيدت من الخرسانة الجاهزة على الجسر تتذيل بمكانها عدة غرف مجاورة لها مخصصة لسكن باقي أعضاء الفريق.

تظم كل غرفة من الغرف, إضافة لمكان السرير فسحة صغيرة لمكتب وكرسي, تقابله أريكة واحدة تتسع لشخصين.

البنية الخرسانية للنقطة ككل, هي للحماية من القذائف وصواريخ آر بي جي والرصاص التي قد تتعرض له النقطة وسط الجسر من كلا الجانبين.

الحمامات تقع خارج الغرف في الجهة المقابلة لها, ويتوسط المطعم الواسع نوعاً ما مقارنة بالغرف والحمامات المكان.

والمطعم عبارة عن البناية الأعلى في النقطة لأنه يتكون من طابقين, الأول هو المطعم بالبهو الواسع والمطبخ ومنام الطباخين الهنديين كومار وراجي .

أما الطابق الثاني فهو غرفة العمليات والمراقبة والذي يضم وحدة الاتصالات ومنظومة الدفاع الأوتوماتيكي.

على جانبي النقطة يوجد بوابتان كبيرتان مخصصتان لتسهيل عبور الأفراد ومن كلا الدولتين المتجاورتين عبر الجسر, أما الشاحنات والسيارات, فبعد أخذ الموافقات من النقطة, وبتوقيع من النقيب عليها أن تستخدم جسر " الطبكه " المؤقت العائم, والذي نصب جوار جسر الأئمة. (مع العلم أن الحركة كانت متوقفة بين الجانبين حينذاك لدواعي أمنية)

عموماً, النقطة بكل منشأتها تشكل جزئاً صغيراً من هيكل الجسر الكبير والطويل الذي يصل بين ضفتي نهر دجلة.

لم يشعر محفوظ بالرغبة في التفكير في أي شيء, لم يذهب للمطعم لشرب الشاي العراقي الذي تعود أن يعده له العجوز الهندي كومار بعد كل عشاء. ولم يقم بزيارة النقيب في حجرته لتبادل الأحاديث كما كان يفعل, أخذ حمامه, ثم عاد لحجرته واستلقى على السرير وغط في نوم عميق.

الفصل الرابع

الرسالة الأولى:

"أذهبوا لمحفوظ ستجدونه على جسر الأئمة وهو من سيأخذ بحقكم ممن قتلوكم "

في الفترة الأخيرة لم يعد يشغل بال محفوظ أي شيء غير تلك الأحلام الغريبة المتكررة التي كان يراها في منامه كل ليلة تقريباً. ومع إنه كان يرى تلك الأحلام أمراً عادياً ربما بسبب المشاهد والقصص المأساوية التي كان يراها ويسمع عنها, إلا أنه وبعد فترة يؤمن يشعر أن تلك الأحلام عبارة عن رسائل تصله من جهة ما تحاول أن تنبئه بحقائق مخفية ومستترة عن الجميع, أو بالأحرى مؤامرات قد حيكت على البلد من قبل جهات خططت لهذا الذي جرى ويجري هنا!

ودليله على ذلك الإيمان هم الأطفال الثلاثة ذاتهم الذين كان يراهم في أحلامه المتكررة لحظة وصوله للنقطة على الجسر, هم من زرع في عقله ذلك الإيمان يوم حلم بهم للمرة الأولى: حين أخبروه إنه المنقذ!

لقد رآهم في تلك الأحلام بأحداث متكررة, يحملون لعباً وحاجيات قديمة, يرتدون ملابس أطفال بغدادية كتلك التي كانت شائعة في الماضي.

هيئتهم تراثية: دشاديش مصنوعة من قماش (البازه) المخططة ويضعون على رؤوسهم (حداري) بيضاء مطرزة, حتى إن لعبهم كانت لعباً تراثية.

يراهم في أحلامه تلك يلعبون لعبة بغدادية قديمة تتطلب روح الفريق, أو بالأحرى لا تلعب بشكل منفرد من قبل طفل واحد تعرف بـلعبة (بيت أبو بيوت)

تكاد أحلامه بهم تكون يومية وبذات الوجوه الثلاثة التي دوما ما تكون فيها ملامحهم مبهمة, أصواتهم متشابهة. والغريب في الأمر إن أولئك الأطفال الثلاثة دوماً ما يأتون إليه في المنام في مكان واحد, يراهم أسفل الجسر قرب ضفة النهر. والغريب أكثر إن محفوظ صار يعرفهم ويعرفونه, لا بل وإنهم كانوا يعرفون بتفاصيل دقيقة عن حياته لا يعرف بها أحد غيره.

لكن محفوظ, وبسبب خوفه من أن يتهم بالجنون, لم يفصح لأحد من الفريق عن تلك الأحلام, ولا حتى أقرب المقربين وهو النقيب داوني أمر النقطة الذي تعمقت علاقته به بعد فترة وجيزة.

لقد رآهم تلك الليلة بوضوح, كان يجلس وحيداً على الجسر المفتوح. لا متاريس ولا حواجز ولا غرف النقطة كانت موجودة في ذلك الحلم.

وكأنه لم يكن حلماً, كان للواقع أقرب, كان كل شيء واضحاً لمحفوظ: جاءوا إليه من العدم وسط العتمة يبحرون في النهر الهادئ بواسطة زورق بغدادي قديم يدعى " الجلج" نظر إليهم محفوظ من أعلى الجسر بعد أن انتبه لجلبتهم

وأصواتهم. ركنوا الزورق قرب الجرف المتلاطم في الأسفل وكانوا يتحدثون مع بعضهم بأحاديث غريبة؛ كأنهم كانوا يرددون ترانيم ما. حينها ناداهم محفوظ من الأعلى فردوا عليه, وكانت وجوههم وأجسادهم, كما ميزها محفوظ, ممزقة الأوصال و مضرجة بالدماء:

- من أنتم؟ ماذا تفعلون هنا في هذا الليل؟

- كيف حالك يا عم محفوظ؟ ... نحن أرواح أطفال قتلونا وجئنا إليك حتى تأخذ بحقنا ممن قتلونا.

وقتها فز محفوظ من ذلك الحلم خائفاً. صرخ حينها بقوة. كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها محفوظ ملامح وجوههم التي تلطخها الدماء وأجسادهم الممزقة بوضوح, ومن مسافة قريبة.

ظن لوهلة إنه مجرد كابوس عابر لكنه حينما تكرر ذات الحلم مرة أخرى في الليلة ذاتها شعر إن هنالك شيء غريب يحدث له.

هم من تقدموا نحوه وقال له أحدهم:

- لا تخاف منا عم محفوظ نحن أطفال لن نؤذيك!

لا تخاف من الدم الذي علينا! فجروحنا ما عادت تؤلمنا. بقيت الجروح والدم فقط. عندما أخذونا للسماء زال الألم وبقيت الجروح التي تراها, لكننا رجعنا الآن لأنهم أرسلونا إليك, هم قالوا لنا أذهبوا إلى محفوظ ستجدونه على جسر الأئمة وهو من سيأخذ بحقكم ممن قتلوكم!

حينها فز محفوظ من نومه ثانية, ولم يستطع بعدها العودة للنوم. بدء يشعر أنه هنالك أمراً ما يحدث, شعور غريب أنبئه أنها ليست مجرد أحلام عابرة. قضى الليل بطوله يفكر في الجملة التي قالوها له في المنام:

" هم قالوا لنا أذهبوا إلى محفوظ ستجدونه على جسر الأئمة وهو من سيأخذ بحقكم ممن قتلوكم "

تلك الجملة لم تفارقه طوال اليوم التالي, حتى في الواجب على الجسر, لكنه ظل يكتم هذا الأمر عن صديقه المقرب وأمره المباشر النقيب داوني خشية أن يعتقد أنه مجنون, وهذا قد يدفع بأمر وحدة عسكرية بأن يبعد شخص مجنون عن نقطة أمنية مليئة بالعتاد والأسلحة, قد يقوم بالإبلاغ عنه, ومن ثم سيؤدي ذلك لخسارة وظيفته التي هي كل ما تبقى له .

لذلك قرر محفوظ عدم البوح لأحد من أفراد النقطة, ويكتم الأمر مع نفسه. كما وقرر عدم التفكير بالموضوع حتى لا يؤثر ذلك سلباً عليه في عمله الذي يتطلب منه اليقظة والانتباه على الدوام.

لقد نجح محفوظ في مسعاه, حتى إنه في اليوم التالي له في الواجب نسي الأمر تماماً؛ ولولا ذلك القارب الصغير الخالي من الركاب الذي جاء من جهة الشمال الذي أبلغ عنه العريف نيفل بجهاز الاتصال.

لم يكن ذلك القارب خالي من الركاب, كان فيه رجل مسن لم يلحظ وجوده العريف نيفيل في بادئ الأمر؛ فالمسافة كانت بعيدة قبل اقترابه من الجسر الذي مر تحته بعد بضع دقائق.

قال ستيوارت مازحاً:

يشبه إلى حد بعيد قارب الكاياك.

عقب نيفل مازحاً:

لا أنه زوارق (الفورميلا وان) وأتبع كلامه بقهقهة عالية فضحك مع الجميع.

إلا محفوظ, فقد شرد ذهنه نحو الأطفال الذين جاءوا إليه في المنام بقارب يشبهه تماماً. لقد ذكره هذا الزورق بهم وبما قالوه له قبل ليلة واحدة. كان الزورق الذي مر تحت الجسر يشبه زورقهم, لا بل هو زورقهم ذاته!

ذكرته تلك الحادثة بكلامهم له, وملامح وجوههم المضرجة بالدماء, وأوصالهم المقطعة؛ فشرد ذهنه بعيداً نحو الحلم وتفاصيله الغريبة. لكنه تنبه إلى أنه الوحيد الذي كان صامتاً, ولم يعقب على كلام ستيوارت ونيفل فقال بنبرة عارفة:

- أنه زورق بغدادي قديم كان يصنع يدوياً هنا في بغداد قديماً يدعى محلياً (الجلج) وكان يستخدم للعبور بين ضفتي النهر أيام الماضي الذي لم تكن عليه جسور كثيرة تربط الكرخ بالرصافة, وحقيقة لم أعرف أنه لا يزال يستخدم حتى اليوم, نعم إنه مثل قارب الكاياك الذي قال عنه ستيورات, وهو يشبهه بالفعل إلى حد كبير.

قال النقيب ممازحاً:

- هي يا رفاق محفوظ يعرف كيفية صناعة مثل هذا الزورق وسيصنع لنا واحداً مثله لنبحر فيه في هذا النهر اللعين.

فضحك الجميع حتى محفوظ الذي أصطنع ضحكة ليخفي خلفها سر أحلامه الغريبة التي تؤرقه وتشغل باله.

بعد أن تناول الفريق طعام العشاء في المطعم غادر الجميع نحو حجرهم للنوم عدا واجب الحراسة الليلية المكون من شخصين فقط, واللذان سيقضيان الليل بطوله عند شاشات المراقة في غرفة العمليات.

فبعد حلول المساء يتولى نظام متطور من الدفاعات الإليكترونية حماية النقطة, أما الحراس فواجبهم المراقبة من خلال الشاشة فقط وهم جالسين مرتاحين في أمان البناية المحصنة. فكل من يحاول الاقتراب من النقطة أو حتى يفكر في الصعود إلى الجسر من كلا الجهتين سيتم أطلاق النار عليه أوتوماتيكيا من الأسلحة الرشاشة المخيفة التي يسيطر عليها برنامج الدفاع الذاتي المتطور, وهو نظام متقدم معمول به, وتستخدمه كل نقاط القوة الدولية المنتشرة على الجسور الفاصلة بين الدولتين للحماية, ليس على الجسور فحسب, بل على طول الحدود بين الدول الثلاث جميعاً, وقد أثبت ذلك النظام نجاعة في تأمين الحدود المترامية بأقل عدد من الجنود.

وهذا ما شرحه العريف الأسترالي الأسمر جون المختص بتشغيل هذا النظام وصيانته لمحفوظ, وهو مولع به لدرجة أنه يقضي معظم الوقت وهو يراقب مفاصله ويديم المدافع الرشاشة.

محفوظ لم يغادر المطعم ذلك المساء, بقي جالس يشرب الشاي الذي طلبه من الطباخ الهندي العجوز كومار.

وبعد أن جلب العجوز كوبي الشاي, جلس مع محفوظ على الطاولة ليتناولاه سوياً, وتبادلا حديثاً طويل عن ذكريات العجوز في الهند. أخبره كومار عن تفاصيل من حياته لم يكن محفوظ يعرفها من قبل, المكان الذي عاش فيه, عائلته وأولاده وأحفاده, لكن الحديث الذي لفت انتباه محفوظ عن تلك القدرات الروحانية التي يملكها العجوز وسرد لمحفوظ قصص حقيقية عنها.

فقد قال:

- أنا لدي قدرات روحانية يا محفوظ وأستطيع أن أقرأ الطالع, وأتنبأ بمستقبل الناس وما يسترون, وهذا عمل قد تركته بعد أن تعرضت للمتاعب بسببه هناك في الهند, وكان هو السبب في تعرضي لمحاولة القتل التي ترى أثارها على ساقي العرجاء يا ولدي. كنت أعيش حياة هادئة في قرية صغيرة قرب دلهي. ذات مرة حضر شخص إلي

وطلب مني أن أعرف هوية الذين اغتصبوا ابنته وقتلوها بعد أن عجزت الشرطة عن ذلك. فشخصتهم له من خلال قدرتي الروحانية. أثبتت التحقيقات معهم ضلوعهم بالفعل وزجوا في السجن. بعد مدة قصيرة حاصر القرويين بيتي لقتلي وتطهيري من السحر الذي زعموا أنني أمارسه. لم يكن سحراً يا ولدي: يمنح الله بعض الأشخاص قدرات خارقة, وأنا واحد منهم. المهم بعدها هربت إلى بريطانيا ومنحت حق اللجوء, بعد مدة تقدمت للعمل في المنظمة الدولية فعينوني طباخاً وعامل صيانة, تنقلت مع فرقهم لمختلف أرجاء العالم, وها أنا اليوم هنا في العراق المقسم. حدث ذلك منذ زمن بعيد ولم يعد باستطاعتي إحصاء السنوات التي قضيتها في الخدمة لدى المنظمة الدولية, ولا عدد البلدان التي خدمت فيها, لكني باستطاعتي تخمين ما يجول في نفوس الآخرين, وحتى ماضيهم ومستقبلهم باستطاعتي معرفته ... هل تريد أن تجرب يا محفوظ؟

أصغى محفوظ باهتمام لحديث كومار الطويل دون مقاطعة, وراودته فكرة مجنونة في أنه ربما لو قص عليه المنام المتكرر الذي يراوده قد يداويه هذا العجوز ويزيح عن صدره ذلك الحمل الثقيل الذي يجثم على صدره. لكن

محفوظ أحجم عن الفكرة, تذكر قراره الذي أتخذه بإخفاء أمر أحلامه عن الجميع حتى لا يتهم بالجنون.

لكن كومار قال لمحفوظ عبارة صادمة جعلت من الخوف يتسرب لقلبه:

" أنت يا ولدي مثلاً لديك سر كبير"

ثم أتبع:

- على فكرة " وبعد أن أمسك بكف محفوظ وأغمض عينيه " أنك تريد أن تحكي لي سراً... دعني أرى؟ ها... سرك بخصوص تفسير حلم يخيفك يا بني! حلم يتكرر لديك كثيراً...

هنا قرر محفوظ التخلي عن تحفظه بشأن كتمان أحلامه عن الأخرين, فقال مرتبكاً:

- نعم يا كومار فعلاً أنا أحلم حلم يتكرر ... فسره لي, دعني أحكي لك الحلم ...

كومار:

- لا حاجة لأن تحكي لي حلمك يا بني فقط أسمع مني ولا تقاطعني مفهوم! وأتبع:

- الأطفال الثلاثة, أصغي إليهم يا ولدي! ولا تتجاهلهم فقط أطعهم, فهم من سيساعدونك في ما يطلبونه منك.

هنا صرخ محفوظ بصوت عالي " من هم ... من هم ...

استيقظ محفوظ من نومه فوجد نفسه نائماً على سريرة في الغرفة. كيف ذاك؟ هو متأكد أنه كان في المطعم! رويداً أقنع محفوظ نفسه أنه كان يحلم. مجرد حلم أخر ليس إلا! لكن حلمه هذه المرة مختلف, لم يكن يحلم بالأطفال الثلاثة. بعدها لم يتمكن محفوظ من العودة للنوم. خرج من الغرفة ووقف على الجسر وكان الوقت فجراً. نظر محفوظ متحيراً نحو مطعم النقطة وتوجه إليه. كاد أن يطرق الباب على العجوز كومار الذي ينام في المطعم مع مساعده الشاب راجي. لكنه تراجع وعاد إلى الجسر وهو يحدث نفسه "ما الذي سأقوله لكومار؟ أنت جئتني في المنام وقلت لي كذا وكذا بخصوص الأطفال الثلاثة في أحلامي؟ ها ما الذي سيقوله عني؟ بالتأكيد سيقول عني مجنون لا محالة!"

عاد محفوظ للغرفة تلفه الحيرة, جلس قليلاً فغلبه النعاس ونام.

وفي الصباح التالي, تجمع الفريق كالعادة في المطعم لتناول طعام الإفطار. محفوظ كان حاضراً هناك كالعادة, جاء النقيب داوني يحمل أخباراً جديدة:

فقبل أن يتناول الجميع إفطارهم قام النقيب من مكانه وتوجه نحو المطبخ ودخله وخرج من هناك يمسك بذراع العجوز كومار وجاء به يعرج نحوهم وأجلسه مكانه وظل واقفاً وقال:

- من فضلكم يا ساده...

اليوم سنودع رجل عزيز علينا (وأشار بسبابته نحو كومار) فقد بلغت البارحة من قبل إدارة المقر بأن طلبه بالتقاعد قد تمت الموافقة عليه وسيغادرنا اليوم عائداً لبريطانيا بعد ساعة من الآن...

هذا الإفطار الأخير له معنا, لذا أقترح أن يجلس هو ونحن جميعاً نعد له طعام الإفطار. فلطالما أطعمنا هو بيده, وأنا عن نفسي قد رافقته فترة طويلة من الزمن, عرفته مجداً في عمله, وصديق حميم للجميع, يتحامل على نفسه في سبيل إنجاز عمله ولو على حساب نفسه مهما بلغ تعبه أو مرضه, واليوم بعد أن قضى خمسة وثلاثون عاماً كموظف في المنظمة الدولية سيعود إلى بلده متقاعداً, يقضي ما تبقى له من عمره بين عائلته وأحباءه ...

بسم المنظمة الدولية نقدم له الشكر والاحترام جميعاً ...

ثم جلس النقيب بقرب كومار, وناوله علبة فيها هدية مقدمة إليه من المنظمة الدولية, ثم عانقه الجميع وسلموا عليه بحفاوة.

وبعد ساعة, وبعد أن تناولوا إفطارهم سوية, تجمع الفريق كلهم للوداع الأخير: فالملازم تشارلز وكارل وبراد وجاك هم من سيوصلون كومار إلى المنطقة الدولية الخضراء, ومن هناك سيتوجه إلى المطار ليغادر إلى بريطانيا, جلس كومار في مؤخرة العجلة المصفحة وسلم عليه أعضاء الفريق الواحد بعد الأخر, وكان محفوظ أخرهم, والذي ودعه بكلمات مجاملة عادية مثل الآخرين.

رد عليه كومار بجملتين جعلت محفوظ يرتبك حيث قال له:

- سبق وأن أخبرتك أني لدي قدرات روحانية يا محفوظ...

وأتبع بالثانية وهو يبتسم وسط ذهول محفوظ:

- لا تنسى الأطفال الثلاثة يا بني, أصغي إليهم ولا تتجاهلهم فهم التجئوا إليك!

محفوظ أراد أن يستفسر منه عن الذي قاله. لكن العجوز كان قد أغلق الباب وتحركت السيارة فجأة وراحت تبتعد عن الجسر نحو المنطقة الدولية الخضراء. وبقي محفوظ واقفاً مكانه متحيراً. لوهلة ظن محفوظ أنه كان يحلم مرة أخرى, لقد أختلط عليه الأمر, لقد تشوش عنده كل شيء! كاد أن ينهار, لكنه عاد وتماسك.

تناسى محفوظ ما قاله له الهندي بعد أن باشر عمله حتى لا يلحظ أحد من الفريق ذلك الشرود الذي كان يعتريه والارتباك الذي كان واضحاً عليه, حتى أنه لم يسمع ما يقوله له النقيب حين كان يكلمه إليه مرات عديدة. لكنه عاد وتمالك نفسه. تناسى المنام بالأمس, وما قاله له كومار أثناء التوديع الأخير وتوجه نحو النقيب وجلس معه على كرسي خلف المتاريس. أدار حواراً طويلاً معه, استفسارات ونقاشات عابرة. أراد محفوظ بتلك الحوارات أن يخفي آثار حيرته وارتباكه. فما يعيشه محفوظ من أحداث خارقة لم يألفها من قبل, ولم يسمع بها سوى في أفلام الخيال العلمي. لو إنه أخبر أي أحد بتلك الأحلام والأحداث لضحك عليه وأتهمه بالجنون من فوره. لكن محفوظ حافظ على رباطة جأشه, ولم يتأثر بالصدمة القوية التي مر بها.

النقيب أخبر محفوظ بتفاصيل جديدة بخصوص العمل في النقطة على الجسر: أخبار وردت من مقر القوة الدولية تفيد بقرب افتتاح المعابر بين البلدين الجارين. وبما إن جسر الأئمة واحد من تلك المعابر؛ فقد شرح النقيب لمترجمه الآلية التي سيتبعونها في عملهم اليومي, الذي سيكون لمحفوظ الدور الأهم فيه؛ باعتباره الشخص الذي سيترجم للفريق طلبات المواطنين المحليين من اللغة العربية للإنجليزية. تلك الآلية ستكون معقدة نوعاً ما؛ فجلها ستكون عبارة عن تبادل تجاري للسلع والبضائع, مع حركة

مقيدة للزيارة بين المواطنين. التبادل التجاري سيتم من خلال شاحنات صغيرة بحمولات محددة, فبالقرب من جسر الأئمة يوجد جسر مؤقت يدعى (الطبكه) وهو عبارة عن عوامات طافية نصب فوقها طريق للسيارات سيخصص في حال فتح المعابر لمرور البضائع بين البلدين, أما النقطة فستخصص لعبور المشاة بين البلدين وفق الإجراء الجديد المعتمد الذي قررته المنظمة الدولية لضمان استقرار الأمن بين البلدين: وهو بتسليم البطاقة من النوعين للنقطة ويصرف للعابر بدلاً عنها بطاقة مؤقتة شبيهة بالجواز وتشمل حتى سائقي الشاحنات على الجسر الأخر كي يحملها في تجواله في الدولة التي عبر إليها وتحدد فيها مدة زمنية لبقائه هناك, بعدها يعود لتسليمها ومن ثم يستعيد بطاقته الشخصية.

هذا ما شرحه النقيب لمترجمه كدرس أخر من الدروس والعبر التي لا ينفك يعطيها الغريب لأبن البلد عن بلده.

محفوظ قال للنقيب أنه يتوق لأن يتجول في شوارع بغداد راجلاً دون درع وسلاح رشاش وسيارات مصفحة, يتمنى أن يخلع عنه تلك الملابس الدولية ويجتاز الجسر لأي من المدينتين. كان محفوظ يتمنى أن ينفذ فكرته تلك لكنه كتمها في نفسه طويلاً. لكنه ذلك اليوم, أخبر النقيب برغبته الجامحة تلك, بأن يفتح له باب النقطة ويسير راجلاً, يدخل الأزقة التي عاش فيها وعشقها

كثيراً قبل أن يضطر مجبراً لمغادرتها. تبسم النقيب بخبثه المعهود وقال بثقة:

- مستحيل, لن تعود بعدها للنقطة! ما إن ستجتاز إحدى بوابتي النقطة نحو أي من الضفتين, ستسأل عن البطاقات, والذي لا يحمل بطاقة في هذا البلد سيمر بأوقات صعبة.

فقص النقيب لمترجمه عن رجل عنيد صاحبه النقيب في بداية تشكيل النقطة على الجسر, وكان يزوره كل يوم تقريباً. ذاك الرجل كان يتحدث الإنجليزية, كان كردياً ويحمل بطاقة سنه ستان, فتراهن مع النقيب ذات يوم على أنه سيجتاز جسر الأئمة سيراً على الأقدام, ويزور الأعظمية ومن ثم سيعود بعد أن يتم الزيارة ويقبض من النقيب مبلغ الرهان, والذي كان هو ورقة فئة مائة دولار. وبعد أن وافق النقيب على تلك المغامرة علق الورقة في تلك الغرفة الصغيرة التي يتقي بها الحراس حر الصيف وبرد الشتاء ليأخذها ذلك الرجل الشجاع بعد عودته من الزيارة.

فقال النقيب وعيني محفوظ تراقب شفتيه بشوق ليعرف بقية الحكاية:

- قمت وفتحت له البوابة بنفسي وخرج يتمشى متلفتاً, أظنني سمعته يبكي شوقاً لشارع لطالماً تمنى أن يسير فوق أسفلته الباهت المحفر.

كان يسكن هناك, فلما وصل لأسفل الجسر من هناك تلاشى عن الأنظار.

محفوظ بتشوق:

- ها سيدي ماذا حصل بعد ذلك هل عاد؟

النقيب:

- أدخل يا محفوظ لتلك الغرفة هناك ستجد تلك الورقة مثبتته في مكانها, هو لم يعد لغاية الآن. أنا قد بحثت عنه في سجلات معسكرات الاحتجاز بنفسي ولم أعثر عليه. زوجته المسكينة كانت تسأل عن مصيره كل يوم تقريباً, لكنها فقدت الأمل بعد فترة من المراجعات وما عادت تأتي.

وأتبع:

- هل تريد الرهان على أنك ستتجول بأمان في بلدك من دون الأسلحة والمصفحات, وهذا الزي الذي ترتديه يا محفوظ؟

فسكت محفوظ ولم يناقش هذا الموضوع مع النقيب بعد الذي حكاه له عن حادثة الرهان.

وأتبع النقيب:

- على فكرة أنا خسرت نصف الرهان! هل تعرف لماذا يا محفوظ؟

محفوظ:

- كلا سيدي لا أعرف!

النقيب بحسرة:

- لأنه بالتأكيد كان قد وصل لحيه القديم, فهو قد أنعطف جهة اليمين بعد أن أجتاز الجسر وبمجرد وصوله هناك فقد ربح نصف الرهان وعلي أن أدفع له مبلغ خمسين دولاراً, لكن أنا فعلاً دفعت لزوجته مبلغاً كبيراً لأنني أشفقت عليها في أخر مرة جاءت فيها إلى, لكني لا أزال أحتفظ بالورقة هناك؛ من يدري؟ فربما قد يعود يوما ما ويكسب الرهان.

.....

الفصل الخامس

الرسالة الثانية:

" مؤتمر برلين هو اللغز والحل في آن واحد"

محفوظ وحيداً على الجسر. الوقت ليلاً, فجاء الزورق ذاته من بعيد يحمل الأطفال الثلاثة, ركنوا زورقهم عند الجرف المتلاطم كالمرات السابقة وأخذوا ينزلون على الجرف أغراض ما من زورقهم, ضحكاتهم كانت صاخبة تردد صداها عالياً في الأرجاء.

نزل محفوظ إليهم هذه المرة, أخذ يقترب منهم رويداً, كانت ملامحهم هي ذاتها, أو بالأحرى كأنهم ثلاثة توائم متشابهين, حتى أصواتهم متشابهة مثل ملامحهم, ولا يميز أحدهم عن الأخر سوى الجروح التي تختلف في أماكنها وجسامتها من طفل لأخر. هم من سلموا عليه ودعوه لأن يقترب منهم:

- عم محفوظ تعال إلى هنا العب معنا؟ نحن نلعب بيت أبو بيوت ... تعال أنظر هذا بيتنا.

تقدم محفوظ نحوهم وأقترب منهم, وجلس القرفصاء بالقرب منهم, وقد تحلقوا حول شيء أشبه برقعة جلدية ملونة بأربعة ألوان ميزها محفوظ من خلال الضوء الضئيل الذي كان يجهل مصدره, فمد رأسه بعد أن نهض من مكانه وشم منهم رائحة طيبة بخلاف ما كان يبديه له مظهرهم المضرج بالدماء ودشاديشهم المتربة.

رأى محفوظ خارطة العراق وعليها ألوان علمه الأربع تتوسطها كلمة الله أكبر, وقد وضعوا عليها حاجيات صغيرة لا يعرف ماهيتها, لكنه أحصاها أربعة عشرة قطعة بالتمام والكمال, كانت الرؤيا مشوشة, والظلام شبه حالك, لكنه رأى القطع بوضوح تام وأحصاها. فقال له أحدهم:

- هذا بيتنا ... جميل أليس كذلك؟ لكنه ما عاد جميل اليوم ...

وجر ذلك الطفل الرقعة الجلدية بيده من مكان ما فانقسمت لثلاثة أقسام حمل هو قسم وحمل الأخر القسم الثاني وحمل الثالث القسم الأخير.

ثم جمع الأول القطع الأربعة عشر ووضعها في علبة حملها ونهض من مكانه فوضعها في الزورق الراسي عند الجرف الطيني وعاد إليهم بعد أن أنفضوا من مكانهم و جلسوا بالقرب من محفوظ.

قال أحدهم له:

- نحن نعرفك لكنك لا تعرفنا فدعنا نعرفك بأنفسنا.

فرد عليه محفوظ :

- من أنتم ومن تكونون؟

رد عليه أحدهم:

- أنا علي وهذا شقيقي عمر وهذا شقيقنا هلكرد, لم تكن أحلامك بنا مجرد صدفة! فأنت المنقذ يا عم محفوظ. نحمل لك أربعة عشرة رسالة وعليك أن تتلقاها منا وهذا محتوم ومقدر عليك. في كل رسالة منها مهمة سيكون عليك تنفيذها, أي أربعة عشر مهمة بعدد الرسائل وقطع النصب.

محفوظ للأطفال مستفهماً:

- أي نصب؟

- نصب الحرية! هل تعرف جواد سليم والنصب الذي صممه ونفذه في بغداد؟

محفوظ:

- كيف لا أعرفه, لقد هدم كما قيل لي ولم يعد موجوداً. حتى قطعه البرونزية قد سرقت كلها.

الطفل :

- نعم صحيح لقد هدموه كما قتلونا لكن قطعه لم تسرق وهذه هي قطعه الأربعة عشر قطعة, تلك التي رأيتها قبل قليل على الرقعة الجلدية,

إنها في الزورق يا عم محفوظ, وهي بعدد الرسائل التي نحملها إليك لأن في نصب الحرية رسالة من جواد سليم للعراقيين لم يفهمها أحد حتى اليوم, واليوم سنعطيك الرسالة الثانية.

محفوظ :

- ما هي الرسالة الثانية هذه؟ ولماذا لا تعطوني الرسالة الأولى أولاً؟

الطفل:

- سبق وأعطيناك الرسالة الأولى ... هل نسيتها؟

محفوظ :

- كلا لم تعطوني إياها... لا أتذكر.

الطفل:

- هل تذكر عندما قلنا لك في المرة السابقة أنهم قالوا لنا أذهبوا إلى محفوظ ستجدونه على جسر الأئمة وهو من سيأخذ بحقكم ممن قتلوكم؟

محفوظ:

- نعم تذكرت...

الطفل:

- كانت تلك هي الرسالة الأولى يا عم... أما الرسالة الثانية فهي:
مؤتمر برلين هو اللغز والحل في آن واحد, اتصل برجل جزائري يدعى جميل بن رباح, له موقع الكرتوني سيكون هو الحارس, لكن لا تتصل به إلا بعد أن تعود من النصب.

محفوظ بتعجب:

- كيف سأزور النصب؟ لا يسمح لي بالتجوال والخروج من النقطة!

الأطفال:

- نحن سنتدبر الأمر لا عليك... وأتبع:
على فكره أكتب كل ما نقوله لك وكل رسالة تصلك منا إليك في كشكول وأحتفظ به في مكان أمن ولا تفرط به إطلاقا, ونحن سنخبرك ماذا ستصنع بالكشكول؛ فهو أخر رسالة منا إليك وهي الرابعة عشرة.

محفوظ:

- مفهوم دعني أًحضر قلماً وكشكول لأدون الرسالتين...

يا أطفال! أين أنتم؟ أنا لا أجدكم, الظلام هنا حالك... أرجوكم ردوا علي, هل لازلتم في الزورق؟

استيقظ محفوظ على سريره في الغرفة متعرقاً يرتجف, كان رأسه يلف, ويشعر بدوار قاتل. الشمس قد أشرقت منذ مدة طويلة, رفع رأسه نحو الساعة المعلقة على الجدار فوق سريره فقفز مسرعاً؛ فلقد تأخر عن الواجب. لبس بدلته على عجل وهم بالخروج نحو المطعم ليتناول فطوره لكنه تذكر الحلم:

- مؤتمر... ما اسمه ؟ نسيته آه أنه مؤتمر برلين نعم أنه كذلك...

فتوجه مسرعاً نحو مكتبه يفتش عن ورقة وقلم ليدون فيه الرسالة كي لا ينساها, فهي حلم والأحلام سرعان ما تنسى. وهو يفتش في الدرج, عثر على كشكول شكله غريب محشور بداخله قلم لم يرى محفوظ مثله من قبل, فتحه وترك الصفحة الأولى وأخذ يدون الرسالة الأولى:

- أذهبوا إلى محفوظ ستجدونه على جسر الأئمة وهو من سيأخذ بحقكم ممن قتلوكم...
- الرسالة الثانية:

مؤتمر برلين ورجل جزائري اسمه جميل بن رباح علي أن أتصل به, هو الحارس! لكن علي أن لا أفعل ذلك قبل زيارة نصب الحرية في بغداد.

أعاد ذلك الكشكول في درج المكتب, خبأه تحت ملفات وأوراق موضوعه فيه وتوجه من فوره إلى المطعم فوجد جميع أعضاء الفريق وقد تجمعوا وبدأوا بتناول طعام الإفطار الذي أعده اليوم " راجي" لوحده بعد أن غادر العجوز كومار.

محفوظ توجه نحو البوفيه وأخذ يصب لنفسه بعض الطعام وحمله بيده فأومأ إليه النقيب بيده ليجلس بقرب منه ففعل وراح يأكل بسرعة لأن وقت الواجب قد اقترب, فالساعة كانت قرابة الثامنة صباحاً وهو الوقت المحدد ليكون فيه محفوظ على الجسر مع بقية الفريق.

وجه النقيب سؤالاً لمحفوظ إن كان يحتاج لشيء ضروري له فأجابه محفوظ بالشكر والنفي وأخبره إنه على ما يرام.

هنا خطرت لمحفوظ فكرة الطلب من النقيب أن يسمح له بزيارة نصب الحرية لكنه تراجع عن ذلك وأجل الموضوع لوقت أخر. هو يعرف تماماً إن النقيب لن يسمح له بترك النقطة بتاتاً كما أخبره بذلك مسبقاً, كما إنه لم يكن

مقتنعاً بفكرة تنفيذ مهمة طلبها منه أطفال عن طريق حلم عابر. كان مشوش البال, يتأرجح بين الإيمان بأولئك الأطفال الثلاثة وما يخبرونه في الأحلام وما بين سخافة الفكرة وخروجها عن المنطق المألوف؛ لذا فهو قرر أن يتأكد من صحة المعلومات التي أخبروه بها قبل أن يفكر في تنفيذ المهمات التي يطلبونها منه. سيبحث في الإنترنيت! نعم, سيفتش عن مؤتمر برلين, وعن ذلك الرجل الجزائري بن رباح. لكن! ولسبب لا يعلمه محفوظ, تغلب هاجس الإيمان على وسواس تكذيبه للأطفال الثلاثة ورسائلهم. في لحظة قرار مصيري أتخذه محفوظ مع نفسه في المطعم حينها, قرر محفوظ أن يتبع رسائل الأطفال إن وجد في الإنترنيت ما يقنعه حول المؤتمر والرجل الجزائري. سيتأكد بعد العودة للاستراحة.

خرج الفريق للواجب في النقطة وباشروا عملهم المعتاد حتى وقت الاستراحة. ذلك اليوم كان حافلاً بالعمل لمحفوظ, فقد ترجم للنقيب حوارات طويلة لوفود رسمية مشتركة حضرت للنقطة من البلدين الجارين كما هو مخطط للتباحث في أمور تخص شرح الآلية الجيدة التي ستتبع في النقطة للتبادل التجاري وعبور المسافرين.

كان عمل محفوظ كتابياً شاقاً: طلبات خطية قدمها مواطنين يطلبون فيه نقل بضائعهم للتبادل على الجسر, بضائع وسلع مختلفة كان على محفوظ تثبيت

كمياتها وتفاصيلها في لوائح مكتوبة لاستحصال الموافقة على عبورها من الجسر بين البلدين؛ فالتجارة وحركة المسافرين قد فتحت منذ فترة قصيرة بين البلدين, وهناك يوم واحد مخصص لتلك الحركة بين الجانبين, وتتم عن طريق جسر (الطبكه).

كان محفوظ متشوقاً لأن يصل لحاسوبه الشخصي ويقطع ذلك الشك الذي كان بداخله بيقين الإنترنيت ونتائجه عن مؤتمر برلين وذاك الرجل الجزائري بن رباح.

في فترة الاستراحة أخرج كشكوله من درج المكتب وفتح حاسوبه الشخصي وبحث عن مؤتمر برلين فكانت النتيجة مذهلة: حيث تبين أن هذا المؤتمر عقد في بداية عام 2019 في مدينة برلين الألمانية وعقده هناك زعماء سياسيين عراقيين ورؤساء قبائل وشخصيات عراقية لا يزال بعضها موجوداً في السلطة في البلدان الثلاثة التي انقسم إليها العراق, وكان مؤتمراً للمصالحة الوطنية في العراق بعد أزمة سياسية عصفت به, وفيه مقررات كثيرة أهمها, والتي أطلع عليها محفوظ للتو, تسليح مليشيات خارج الجيش الرسمي للدفاع عن المناطق التي كانت تتعرض باستمرار لهجمات منظمة من قبل مجاميع إرهابية, ومنح استقلال لبعض مناطق العراق فيما يخص

الجانب الأمني, وبعض الأمور التي فهم منها محفوظ أن هذا المؤتمر هو نواة تقسيم العراق وعلى أثره نشبت الحرب الأهلية بعد عقده بأيام قليلة.

كل ذلك وجده محفوظ بمقال سياسي لكاتب ألماني حلل المؤتمر بعد نشوب الحرب الأهلية الطاحنة عقب ذلك المؤتمر بمدة قصيرة من الزمن.

ففهم محفوظ ما الذي قصده الأطفال بأن مؤتمر برلين هو اللغز والحل في آن واحد؛ لأنه بمجرد بحثه في الإنترنيت عرف ما هو الدور الذي لعبه ذلك المؤتمر في تأجيج نار الحرب الأهلية وتقسيم العراق, حتى أن ذلك الكاتب الألماني بين في مقاله ذاك أن هناك مؤامرة قد حيكت على وحدة العراق فيه.

ثم بحث محفوظ عن "جميل بن رباح " فوجد أنه صاحب شركة استثمارية كبيرة في مجال تقنيات المعلومات ويمتلك شركة الهاتف المحمول وشركة الإنترنيت الوحيدتين في البلدان الثلاثة, وهو جزائري الأصل أمريكي الجنسية ويعيش في فندق فلسطين مريديان الذي أشتراه من حكومة شيعه ستان بعد التقسيم ويدير من مكتبه هناك كل أعماله في أراضي جمهورية العراق سابقاً.

لما عرف محفوظ كل تلك المعلومات الدقيقة لم يعد لديه أي شك في أنها ليست مجرد أضغاث أحلام أو هلوسة كوابيس لا بل أنها اليقين بعينه.

وأيقن أن الأطفال الثلاثة هم رسل إليه من جهة يجهلها تريد منه أن يفعل شيئاً أكبر من الثأر ممن قتلوهم كما أخبروه, وأكده له كومار الهندي قبل رحيله.

ثم وبعد هذا كله شرع محفوظ يدون في كشكوله كل المعلومات التي توصل إليها من خلال البحث في الإنترنيت بخصوص الأمرين الأولين الذين طلبهما منه الأطفال في المنام, أما الاتصال بجميل بن رباح هذا فقد أجله لما بعد زيارة نصب الحرية كما أخبروه.

لكنه فوجئ بطرق على الباب, فتحه مرتبكاً فوجد العريف نيفل الذي أخبره أن النقيب يريده فوراً وعلى عجل, فتوجه إليه بعد أن خبأ كشكوله هذه المرة في الخزانة وأقفل عليه بعد أن صار يحوي معلومات خطيرة يخشى أن تقع بيد أحد أفراد الفريق, فهي أدلة تكفي لأدانته عن جريمة التدخل في الشؤون الداخلية للدول الثلاث التي يعمل هو في المنظمة الدولية التي تحرس حدودها, وهذه جريمة كبرى لا تغتفر بالنسبة للعاملين في المنظمة الدولية وهو يعرف ذلك جيداً.

لما وصل محفوظ لغرفة النقيب طرق الباب, فأذن له بالدخول والجلوس, بينما كان يجري اتصال هاتفي كان في أخره على ما يبدو أمراً مهماً أستشفه

محفوظ من كلمات كان يرددها النقيب ويتمتم بها للطرف الثاني لإنهاء الاتصال " علم سيدي ... حاضر ... إلى اللقاء ...

وبعد أن فرغ النقيب من الاتصال قال لمحفوظ:

- تهيأ يا محفوظ وعلى عجل فسوف نرافق فريق مدني إلى منطقة في الرصافة العاصمة, هم فنانين عراقيين مغتربين يعيشون في الخارج, رسامون ونحاتون حصلوا على الإذن من المنظمة الدولية لإصلاح نصب فني هناك في الباب الشرقي ... هذا هو (وأدار له شاشة الحاسوب كي يريه إياه)

كان هو نصب الحرية الذي طلب منه الأطفال أن يذهب لزيارته في أقرب وقت ممكن.

كعادته لم يناقش محفوظ أمر النقيب, لكنه خرج من الحجرة وعلامات الذهول بادية على محياه لأنه تذكر أن أخر جملة سمعها من الطفل:

" لا عليك نحن سنتدبر الأمر"

بعد ساعة, وبعد أن تهيأ محفوظ للواجب ركب مع النقيب وتوجهوا إلى المقر في الرصافة في حي الجودين أو حي الأعظمية "سابقاً" الذي لا يبعد عن الجسر كثيراً.

لما وصلوا وجدو هناك ثلاثة فنانين عراقيين تقضي مهمة الفريق بإيصالهم ومرافقتهم إلى منطقة الباب الشرقي حيث تقع ساحة التحرير بالتحديد, كانت تلك هي المهمة الثانية لمحفوظ التي سيتجول فيها في شوارع بغداد بعد زيارة معسكرات الاعتقال في النهروان قبل ثلاثة شهور.

بعد أن تعرف النقيب ومحفوظ بالفنانين العراقيين المغتربين الثلاثة, وكانوا حسب ما قام أحدهم بمهمة التعريف أنهم كلهم نحاتون عراقيون يعيشون في فرنسا وهم أرسلوا من قبل أستاذ لهم هناك يدعى (نداء كاظم) وهو نحات عراقي مغترب أيضاً يعيش في العاصمة باريس؛ مهمتهم التي كلفهم بها ذلك النحات العراقي كانت بناء النصب المهدم وإعادة قطعه البرونزية المسروقة أو المفقودة على نفقته الخاصة.

الفنانون الثلاثة أخبروا النقيب إن هذا الفنان المغترب (نداء كاظم) هو من تلامذة الفنان الراحل جواد سليم والذي صمم ونفذ نصب الحرية في مطلع ستينيات القرن الماضي. وإنه قد تبرع, وعلى نفقته الخاصة, في عملية

الترميم هذه, وهو قد أخذ على نفسه عهداً بأنه سيعيد وضع القطع البرونزية الأربعة عشر في مكانها بنفسه في حال يتم العثور عليها وقال ممازحاً:

" سيفعل كل ذلك رغم أن عمره اليوم جاوز التسعين عام "

بعد هذا الشرح انطلقت القوة من المقر باتجاه منطقة الباب الشرقي حيث سيكون عليهم تأمين الحماية للفنانين هناك حيث سيعاينون النصب ويضعون خطة لأعماره كمرحلة أولى.

كان محفوظ يشاهد من وراء زجاج المصفحة أحوال المدينة التي تحسنت ووضع أهلها الذي تبدل قليلاً نحو الأحسن, لاسيما بعد استتباب الوضع الأمني والتحسن الملحوظ في الجانب الاقتصادي للبلدان الثلاثة بعد جهود المنظمة الدولية الحثيثة لإعادة الحياة لما كانت عليه. هنالك لمسة طيبة ونوع من الرخاء لاحظه محفوظ على أهل المدينة الذين شاهدهم يسيرون في شوارعها.

فالمساعدات الدولية التي قامت بها الدول المانحة كان لها الأثر الواضح في تغير الوضع فيها نحو الأحسن, يضاف لها عودة التبادل الاقتصادي بين مدن الدول الثلاث قد ترك أثره البارز على رفاهية الاقتصاديات المحلية والأسواق.

فقد لاحظ محفوظ أعداداً كبيرةً من السيارات الحديثة قد ملأت الشوارع, والأسواق أضحت عامرة بالبضائع والمشترين. حي الجوادين أو الأعظمية بدت شوارعه نظيفة بعد أن عادت سيارات النظافة تجوب الشوارع وعمالها بزيهم الأصفر يحملون بأيديهم حاويات القمامة ويدسون ما فيها في كابسات النفايات الحديثة.

عادت الكهرباء للمدينة, حتى إن المحال والمطاعم ازدانت واجهاتها باللافتات الضوئية والنشرات الكهربائية الملونة.

كما أن مطعم ومأكولات (لحم بعجين الجندول) قد عاد للحياة أنيقاً براقاً من جديد كسابق عهده, فكانت واجهته ومداخله تعج بالزبائن وهم يشترون الوجبة الشهية (اللحم بعجين) ويتناولونها على طاولات المطعم المنصوبة تحت مظلة الواجهة, أو بداخل المطعم الذي كان مزدحماً حينها. لكن تمثال الفارس وحصانه بقيا غائبين عن الساحة.

فقال محفوظ لأحد الفنانين العراقيين الذي كان يجلس معهم في نفس العجلة المصفحة:

- هنا في هذه الساحة كان هناك تمثال لفارس وحصان.

وما كاد يكمل كلامه حتى رد عليه ذلك النحات العراقي:

- تقصد تمثال الفارس العربي! كان هنا وقد سرق, كما سرقت الكثير من أثار بلدنا العراق يا صديقي.

فرد عليه محفوظ:

- نعم بلدي العراق لقد سرقت معظم آثاره وحضارته.

وكانت تلك المرة الأولى التي يعترف فيها محفوظ بانتمائه للعراق, البلد الذي قرر أن ينساه ويقتلع كل جذوره منه قبل عشرة أعوام عاد ليشعر بانتمائه إليه, ولعل الفضل في عودته لوطنيته هي أحلامه التي باتت تحركه وتحرك وجدانه ومشاعره, وتؤجج فيه الروح الوطنية التي نسيها لأعوام طويلة.

بعد مدة قصيرة وصل الفريق لحديقة الأمة في الباب الشرقي, ترجلوا من العجلات المصفحة وتوجه الفنانون الثلاثة نحو أطلال النصب المتهدم, أما النقيب وفريقه فقد انشغلوا بتطويق المكان لتأمين الحماية. محفوظ وقف يتأمل المكان المعهود, ساحة الطيران المكتظة بالناس والسيارات. لم يتغير فيها شيء سوى نصب الحرية المفقود. باعة البسطيات يفترشون الأرصفة على مد البصر كما الأيام الخوالي, يعرضون بضائع صغيرة ورخيصة, ماركات عالمية مغشوشة تجتذب أسعارها الزهيدة الناس من أماكن بعيدة. لم يكن نمط الحياة يختلف كثيراً عما تركه محفوظ قبل هجرته لأمريكا:

الوجوه, وجوه المارة من كل الأجناس والطبقات, وأحاديثهم العابرة, الزحمة الخانقة, روائح الأكلات السريعة التي يقدمها أصحاب العربات المصطفة فوق الأرصفة, الفلافل والكبة والبلبي, الشاي العراقي الساخن الذي تنساب رائحته الزكية الممتزجة بدخان الفحم المحترق الذي يطهى عليه, المحلات التي تطل عليها الساحة هي نفس المحلات, حتى إن بناية المطعم التركي القديمة التي تقابل مكان النصب بالضبط عند بداية شارع الرشيد كانت على حالها, ولم تتغير سوى من أثار بضع رصاصات تنخر واجهتها المهيبة. عمارة الخيام الكبيرة المشهورة بكونها مركز لبيع الألبسة المستوردة هي الأخرى عامرة بتلك الألبسة الفاخرة, واسمها لا يزال مكتوب على اليافطة ذاتها التي تعلو واجهة البناية العالية في بداية شارع الرشيد. لقد تحسنت الأمور كثيراً عما كان عليه الحال قبل شهور قليلة. هكذا قال النقيب لمحفوظ حين رآه شارداً يتأمل ما حوله. لمحفوظ ذكريات كثيرة في ذلك المكان, ذكرته تلك المشاهد المألوفة بتلك الذكريات البعيدة. خرج محفوظ عن صمته وبدء يخبر النقيب عن ذكرياته تلك: أسماء العمارات والمحلات التي كان يرتادها في تلك المنطقة, الأكلات الشعبية التي كان يحب تناولها في ذلك المكان, المقاهي التي كان يحب أن يدخلها, شارع الرشيد القريب, شارع المتنبي, السوق العربي, وأماكن كثيرة ذكرها للنقيب بينما كان الفنانون

منشغلين بقياس عرض مكان النصب المهدم بشريط القياس. لم يكن التغيير مقتصراً على المدينة وأهلها فحسب فقد شاركت هذه المرة الأجهزة الأمنية الفتية حديثة التشكيل لجمهورية شيعه ستان, مع القوة الدولية في تأمين الحماية للفنانين الثلاثة, وهذا ما أعطى أفراد الفريق الدولي- كالملازم تشارلز والعريف ماديسون- الأريحية والحرية في التقاط الصور مع الناس الذين تجمعوا حولهم بكثرة.

حينها مر شاب من سكان المدينة على مقربة من النقيب ومحفوظ بعد أن فتشته قوات الأمن المحلية المتواجدين قرب نفق التحرير, كان منشغلاً حينها يرتب أوراقه الثبوتية التي أبرزها للنقطة لحظة فتشوه. استوقفه محفوظ فجأة وطلب منه بطاقته الشخصية من نوع ش التي يحملها كل سكان شيعه ستان, وبدونها سيكون مصير الذي لا يملكها معسكرات الاعتقال في النهروان.

فناوله الشاب إياها بهدوء دون أن يتكلم أو يسأل. تأمل محفوظ البطاقة وأخرج كامرته الشخصية والتقط لها صورة بعد أن طلب الإذن من الشاب الذي لم يمانع ورحب بالموضوع.

كلماتها قليلة ومقتضبة, جمهورية شيعه ستان بدل جمهورية العراق, الديانة مسلم شيعي بدل مسلم أو مسيحي أو صابئي, القومية عربي شيعي بدل عربي أو كردي.

أعاد محفوظ البطاقة للشاب وشكره فقال له النقيب ممازحاً:

- ها محفوظ هل تريد استصدار واحدة لك؟ بالمناسبة لو سمح لك باستصدار واحدة فأيها ستختار من بين الثلاثة؟

محفوظ بعد أن ابتسم وأشاح ببصره نحو الشوارع المكتظة بالناس:

- سأختار القديمة التي أحملها معي سيدي النقيب!

وقد أخرجها من جيبه حيث يحتفظ بها وناولها للنقيب الذي دهش وقتها.

النقيب:

- دعني أراها ... تحتفظ بها إلى الآن! هذا جميل لقد كنت شاباً فتياً في الصورة يا محفوظ.

بعدها عاد النقيب للسيارة المصفحة ليجري الاتصالات مع المقر وترك محفوظ واقفاً وحده على الجسر الذي يعلو نفق التحرير, وبينما كان محفوظ متكئاً على مسند الجسر الحديد يطالع المارة تقدمت نحوه امرأة شابة تلبس

عباءة, كانت مسرعة تتلفت. لمحها محفوظ من بعيد تتقدم باتجاهه وكانت مرتبكة وتراقبه بحذر. في بادئ الأمر أوجس محفوظ منها خيفة, كانت قادمة من جهة عمارة مرجان القريبة. سلمت عليه وقالت له بعد أن لاحظها النقيب وهي تقف مع محفوظ:

- أنا مستعجلة هذه الورقة ضعها في جيبك, ولا تقرأها هنا! أما هذه فأعرضها على هذا النقيب. قل له أن هذه المرأة لديها طلب تعوض عن دار تملكها في جمهورية سنه ستان.

تعجب منها محفوظ ومن تصرفها ذاك بعد أن مشت مبتعدة عنه متخذة طريق عمارة الخيام وشارع الرشيد وجهة لها حيث تلاشت بين المارة التي كانت تبلعهم الأزقة المطلة على الشارع.

بعد مدة قصيرة أعطى النقيب الإشارة للجميع بالرحيل بعد أن أكمل الفنانون عملهم هناك وتحركت المصفحات شاقة طريقها بصعوبة وسط زحام منطقة الباب الشرقي وجلبة الناس. أصغى محفوظ لهتافات وصيحات سواق الباصات الصغيرة والحافلات المحتشدة كما الأيام الخوالي عند مداخل الشوارع الكبيرة وقرب الساحات العامة, لم يتغير الأمر كثيراً, لكن السيارات اليوم بموديلات أحدث قليلاً عما سبق.

... بغداد الجديدة شارع الصناعة ...

...داخل ... داخل ...

... جوادر ... جوادر ...

... جسر ديالى زعفرانية ... جسر ديالى ...

وغيرها من أحياء الرصافة الكثيرة والتي لمحفوظ فيها ذكريات كثيرة ...

لكن صيحة مفقودة, لكراج محي اليوم من ذاكرة أهل الرصافة لكونه يقع اليوم في دولة أخرى يتطلب عبور حدودها جواز سفر وتأشيرة, كراج البياع في الكرخ.

صيحاته بياع ... بياع ...

التي كان يصدح بها سواق الأجرة الكبيرة والباصات الصغيرة يوماً ما هنا في الباب الشرقي لم يعد لها أثر بين تلك الصيحات الصاخبة. الجسر القريب, جسر مدينة الطب أمسى نقطة حدود فاصلة بين البلدين. لم تعد الباصات الكبيرة تعبره نحو كراج البياع في الماضي القريب.

محفوظ بعد أن عاد من الواجب, دخل غرفته مستعجلاً وأوصد الباب من خلفه, أخرج الورقة التي أخفاها في جيبه كما قالت له تلك المرأة التي ناولته

إياها في الباب الشرقي, أما الورقة الأخرى التي سلمتها له تلك المرأة, فقد أعطاها محفوظ للنقيب كما طلبت منه.

جلس محفوظ على مكتبه الصغير وشرع بقراءتها فكانت رسالة فتحت لمحفوظ شفرة لغز الرجل الجزائري بن رباح:

أرسل هذه الشفرة الأولى المكتوبة في الأسفل للجزائري جميل بن رباح, إلى أيميله الشخصي هذا من أيميلك الشخصي وأنتظر منه الرد بشفرة هي نفس الشفرة التي تلي الشفرة الأولى بالأسفل, أي الثانية ثم أرسل له الشفرة الثالثة وأنتظر منه الرد فأن أرسل لك الشفرة الرابعة وتطابقت مع ما موجود في الورقة أكتب له وعرفه بنفسك بأنك المترجم محفوظ! فقط قل ذلك ولا تخبره عن موضوع الأحلام إطلاقاً, إياك أن تفعل, وهو سوف يساعدك في أمور كثيرة.

هذه الشفرات الأربعة أحتفظ بها ودونها في كشكولك ولا تفقدها؛ لأنها وسيلة الاتصال بينكما بأمان لأنك تعبث مع عصابة دولية خطيرة إن كشفوا أمرك سيقتلونك على الفور.

بعد أن قرأ محفوظ الرسالة تلك, فتح حاسوبه وشرع بإرسال الشفرة الأولى ففعل وسريعاً ما تم الرد عليه من قبل بن رباح بالضبط حتى أتم الشفرات الأربعة كما في الرسالة بالضبط.

بعدها عرفه بنفسه كما طلب منه في التعليمات حيث أخبره الجزائري أنه سيرتب لقاء مع محفوظ بأقرب وقت ممكن وسيكون اللقاء قريباً ومهماً, وهو فقط بانتظار الأمر, وعليه هو أن ينتظر ذلك اللقاء. كانت الرسالة الأخيرة التي تلقاها محفوظ من بن رباح تتطابق - رغم غموضها - مع ما أخبروه به الأطفال في أخر أحلامه, قال فيها بن رباح:

- أنا الحارس يا محفوظ! وهذا كل ما أستطيع أن أخبرك به!

بعدها قطع الجزائري الاتصال مع محفوظ وتركه حائراً يفكر في الأحداث الجديدة التي مرت به في ذلك اليوم الحافل. لما عليه أن يخوض غمار تلك المغامرة المجهولة والمحفوفة بالمخاطر؟ من تلك المرأة الغريبة التي تعرفه بالشكل والاسم؟ ومن هذا الرجل الجزائري الذي يدعى بن رباح؟ الأمر لم يعد لعبة بعد اليوم, يعرف محفوظ إن المنظمة تراقب موظفيها مراقبة صارمة, لا مزاح مع هؤلاء. القانون واضح وصريح, فما يفعله محفوظ يكفي لأن يودع في السجن لسنوات طويلة. لقد وقع على قوانين المنظمة

وتعهد بعدم خرقها. كما وإن المرأة قد حذرته في الرسالة, إنه يقف بوجه عصابة خطيرة, وينبش في مؤامرة دولية يجهل كل تفاصيلها. لكنه شعر بقدسية وهيبة للمعجزات التي يمر بها كل مرة, التي تطابقت كلها مع نبوءات الأطفال الثلاثة له في الأحلام. تلك الروحانية والإعجاز الذي لمسه محفوظ, جعله يصر على إكمال المشوار حتى النهاية, ويقبل بكل العواقب والاحتمالات. ومثل ما طلبت منه تلك المرأة الغريبة, دون الشفرات التي أرسلتها له في الرسالة, وكل أحداث ذلك اليوم في كشكوله قبل أن يسلم جفنيه لسلطان النعاس بعد يوم حافل من التعب ...

الأطفال الثلاثة من جديد ينادونه من تحت الجسر:

- هي عم محفوظ نحن هنا تحت الجسر تعال لماذا أنت فوق.

رد عليهم محفوظ:

- لا أستطيع فالسلم لم يعد مكانه!

ردوا عليه:

- ارمي بنفسك من الأعلى ولا تخشى السقوط, لن تصاب بالأذى, لا تخف.

محفوظ:

- حسناً ... لقد رميت نفسي ...
  ها! عندي جناحان... أنا أطير مثلكم!

نادوه من الأسفل :

- تعال هنا, اقترب...

فنزل محفوظ وتلمس ظهره بيده لكنه لم يجد جناحيه التي طار بهما للأسفل فقال له أحد الأطفال:

- لا تشغل بالك بجناحيك ... لقد اختفيا؟ وأتبع:
  أحسنت الفعل اليوم, لقد نفذت الذي بلغناه لك في الرسالة الثانية بالحرف الواحد, بقيت هناك اثنتي عشرة رسالة فقط وتأخذ بحقنا, ترقب منا الرسالة القادمة ولا تدع الشك يدخل لقلبك, أنت اليوم أملنا الوحيد. وأتبع:
- تذكر شيئين مهمين: بن رباح هو الحارس, والنقيب هو اللغز وهذه هي رسالتنا الرابعة إليك. نفذها لكن بعد أن تصلك منا الرسالة الثالثة بعد أن تعود إلى العراق من سفرك القريب للإجازة, ودون كل شيء في الكشكول.

فصرخ محفوظ بأعلى صوته "بن رباح الحارس ... اه أه ... والنقيب هو اللغز ... هي الرسالة الرابعة ...

كررها مرات عدة حتى فز من نومه فوجد الشمس قد طلعت مرة أخرى, لكنه اليوم لن يكون عليه النهوض باكراً كالمعتاد, فقد منحه النقيب إجازة زمنية حتى تمام العاشرة صباحاً للراحة بعد واجب ساحة التحرير الطويل. ظل محفوظ جاثم في فراشه يفكر في ما قاله له الأطفال في أن بن رباح هو الحارس وهذا شيء فهمه وعرفه, لكن ما شغل باله هو العبارة الأخيرة التي قالها له الأطفال في الحلم: النقيب هو اللغز!

أي نقيب هذا؟ هل يقصدون النقيب داوني؟

أم نقيب أخر غيره؟

"المهم علي أولاً تدوين هذه الرسالة فقط ولا أنفذ ما فيها فقط أدونها لحين عودتي من الإجازة"

نهض محفوظ من فراشه ودون الرسالة والحلم في كشكوله, بكل التفاصيل, حتى التواريخ والساعات ثبتها محفوظ بدقة كي لا ينسى الأحداث كما طلب منه الأطفال. كلها دونها محفوظ في كشكوله وأعاده إلى الخزانة وأقفل عليه بالمفتاح.

الفصل السادس

الرسالة الثالثة:

" هدم المراقد الثلاثة هي الخطيئة والتكفير عنها يرفع السخط عن الناس "

مر شهر كامل ولم يحلم محفوظ بالأطفال الثلاثة, أو كما أخذ يسميهم بالأطفال الملائكة ربما بسبب المعجزات التي كان يراها منهم وهيئتهم المجنحة التي يأتون إليه بها في الأحلام.

لقد هجروه لسبب مجهول. ذلك الأمر حيره كثيراً وسبب له نوعاً من الإحباط والحزن والإحساس بالذنب. فكلما كان محفوظ يستيقظ من نومه ويكتشف بأنه لم يحلم أحلامه المنشودة, بأولئك الأطفال الثلاثة, أخذ يلوم نفسه عن خطيئة ربما يكون قد أرتكبها فجعلتهم يهجرونه ولا يأتون إليه في أحلامه. هاجس جديد أخذ يقلق محفوظ ويشغل تفكيره: هل قد أكون ارتكبت معصية أو إثما ما جعلهم يهجرونني؟ هل خذلتهم في أمر ما؟

لكنه يعود ويجيب على تساؤلاته بأنه قد أوفى بتنفيذ كل ما طلب منه على أحسن ما يكون. هم أخبروه بذلك, الأطفال الملائكة قالوا له ذلك بمنامه الأخير إنه أدى ما عليه على أكمل وجه وإنه قطع شوطاً طويلاً من مهمة الانتقام لهم ممن قتلوهم.

ذلك الأمر شغل تفكير محفوظ لدرجة أنه نسي أن عليه أن يهيئ نفسه للإجازة الدورية التي اقترب موعدها والتي مدتها شهر كامل سيقضيها في أمريكا اعتباراً من الأول من شهر تشرين الأول - أكتوبر- والتي لم يتبقى

لحلول آجلها سوى يوم واحد فقط, فعليه أن يذكر النقيب بذلك ليحجز له التذكرة ويهيئ أوراق السفر اللازمة للرحلة.

النقيب كان قد جهز كل شيء تماماً: أوراق السفر المطلوبة, حجز تذكرة شركة الطيران, كما إنه صرف لمحفوظ مكافأة مالية وضعها له في ظرف وناوله إياه حين التقى به في المطعم في وقت لاحق من ذلك اليوم, وأخبره بأنه كان قد رتب الأمور كلها بالأمس ولم يخبره بذلك كنوع من المفاجئة.

خرج محفوظ ليتهيأ للعمل المتعب على الجسر في يومه الأخير قبل الإجازة وبداخله شعور بالحسرة لغياب الأطفال الملائكة والأحلام بهم خلال الفترة الماضية. يبدو إن محفوظ قد تعلق بهم كثيراً, وبات شغوفاً ليكتشف النبوءات القادمة التي وعدوه بها. مثل مغامرة شيقة, تعلق محفوظ بنبوءات الأطفال الثلاثة. كان الأمر مقدسا بالنسبة إليه.

أخذ الطقسُ المتطرف بالتغيير نحو الاعتدال؛ فبعد ذلك الحر اللافح وسموم صيف العراق الحارق, أصبح الجو لطيفاً معتدلاً. قصرت ساعات النهار التي كانت طويلة ورتيبة خلال الصيف وقصرت معها ساعات الواجب المتعب في النقطة.

مرت ساعات المناوبة الأخيرة لمحفوظ في النقطة بلمح البصر. عند حلول المساء عاد محفوظ لغرفته وأخذ يهيأ أمتعته وحاجياته للسفر ورحلة الإجازة. سيقضي هناك شهراً كاملاً في بروكلن حيث يعيش وحيداً في الولايات المتحدة. هو يمتلك هناك شقة صغيرة يعيش بها منعزلاً عن الجميع, لا أصدقاء له ولا معارف بالمعنى الحقيقي, مجرد وجوه مألوفة يلتقيها ويتعامل معها: مالك العمارة الجشع الذي يدفع له إيجار الشقة التي يسكن فيها, العجوز الأسمر صاحب السوبر ماركت القريب من سكنه والذي يشتري منه طعامه ولوازم بيته, البقال ذا الأصول الأسيوية الذي يشتري منه البقالة دون أن يتبادل معه أي حديث, وجيرانه في العمارة الذين يصادفهم في الممرات الضيقة ولا تتعدى حواراته معهم سوى كلمات التحيات الباردة وتعابير الوجوه الماسخة. مجرد تمثيليات يومية لمشاعر مزيفة. أناس بالملايين تجمعوا على مر السنوات, ومن مختلف الأجناس والألوان, في الأرض الجديدة, هجروا بلدانهم وجاءوا يطلبون العيش الرغيد في القارة البكر والبلد المنعم بالخيرات. محفوظ واحد من أولئك المهاجرين الذين سعوا للعيش تلك العيشة الرغيدة والحياة المثالية. لكنه تفاجئ بالواقع المختلف للحياة في البلد المنشود من قبل الجميع: فلا شيء هناك يدعو للبهجة, أو بالأحرى لا وطن لمحفوظ هناك. لم يكن محفوظ سعيد بالرحلة والإجازة. لقد أدرك متأخراً إنه

غريب في بلد ليس بلده, بلد يحمل جنسيته فقط, أما بلده وبلد آباءه وأجداده فقد تركه مرغماً خلف ظهره. معادلة عسيرة الفهم على من لم يعش تفاصيلها الشائكة وحكاياتها المتناقضة. لن يفهمها سوى من مثل محفوظ الذي لفظه أبناء قومه بظلمهم له خارج أسوار وطنه الذي ولد وترعرع فيه نحو وطنُ أخر لم يشعر يوماً ما بانتمائه إليه. لكن الغريب في الأمر إن محفوظ بدء يشعر إنه ينتمي للعراق, وليس لذلك البلد الذي هاجر إليه قسراً. بقدر حبه الذي أخذ ينغرس عميقاً في وجدانه نحو العراق صار يبتعد شيئاً فشيئاً عن ولاءه لأمريكا. في بادئ الأمر أستغرب محفوظ عن السبب وراء شعوره العارم بالولاء للعراق, ولم يجد تفسيراً مقنعاً لحنينه الذي استجد للعراق بعد سنوات من القطيعة. وأخيراً توصل للإجابة الشافية, هؤلاء الأطفال الملائكة أعادوه بأحلامهم نحو وطنه الأصل. لكن توقف أحلامه بالأطفال الملائكة سبب له هزة كبيرة آلمته كثيراً, هزة زعزعت ثقته بنفسه وجعلته يعتقد بأنه كان يتخيل كل تلك الأحداث والأحلام. لقد فقد ثقته بنفسه لدرجة أنه اتهم نفسه بالجنون في نوبات هستيرية:

- أنا مجنون! كنت أتخيل تلك الأمور.

فأخذ يخوض مع ذاته حوارات عقيمة يلتمس من ورائها تبيان الحقيقة المستعصية على الفهم والإدراك.

سأل نفسه:

هل كنت فعلاً أحلم بهم؟

هل هم من أعطوني هذه الرسائل؟

أم أنني كنت أتخيل تلك الأمور؟

هل أنا مجنون؟

الكشكول! إنه معي في الدرج!

حتى بالكشكول, وكل ما مدون فيه من أحداث وقعت أمامه وبحضوره لم تكفي محفوظ لأن يقنع نفسه بأن كل مر به حقيقي, لا بل راح يتهم نفسه بالجنون, وأنه هو من دون بخط يده تلك الترهات المجنونة في ذاك الكشكول الغريب. اتهم نفسه بانفصام الشخصية, وفكر في أن يعرض نفسه على طبيب نفسي حين يصل لأمريكا.

فسر محفوظ سبب تخيلاته تلك وأحلامه التي رآها, بعد أن رجح جانبها, بأسباب لها علاقة بماضيه العصيب وطفولته البائسة, لاسيما الاضطهاد الذي عانى منه أيام اليتم: غلطة والده التي دفع ثمنها ألماً ويتماً وحرمانا. الظلم الذي تعرض له على يد خالته وزوجها, قسوة مدير دار رعاية الأيتام

وموظفيها, نظام البعث وتقارير الرفاق الحزبيين التي حطمته وضاع بسببها مستقبله. كل ذاك أحاله إلى معتوه مجنون يعتقد أنه نبي تزوره الملائكة لتعطيه رسائل ومهمات عليه أن ينفذها. بعد أن وصل بكل تساؤلاته لطرق مسدودة, هاج وماج ودخل بنوبة هستيريا عارمة ضرب على إثرها أثاث الغرفة برجليه ويديه حتى أحدث جلبة عالية دفعت بستيوارت ونيفل المجاورين له في السكن لأن يطرقوا بابه لطمأنوا عليه. تحجج لهما محفوظ بسقوط الحاجيات من الدرج أثناء ما كان يهيأ نفسه لرحلة للإجازة المرتقبة.

بعد أن غادر ستيوارت ونيفل, جلس القرفصاء وسط الغرفة المظلمة وأخذ يبكي مثل طفل صغير وانهمرت دموعه بغزارة ممسكاً بيديه الكشكول الذي فتحه على الأرض أمامه ولاحت له أخر عبارة من عبارات الحلم الأخير:

" بن رباح هو الحارس والنقيب هو اللغز "

فنهض من فوره وركض باتجاه الحاسوب الموضوع على المكتب وفتحه, ثم أرسل أول شفرة من الشفرات الأربعة إلى أيميل بن رباح وراح ينتظر الرد بالشفرة الثانية. قال في نفسه:

- إن رد علي بن رباح فكل شيء حقيقي ولست بمجنون ولم أكن أتخيل الأمور!

مر الوقت عصيباً على محفوظ, الأمر حاسم, إما أن يرد بن رباح ويعود مع رده إيمان محفوظ بأحلامه والأطفال, أو يتأكد له جنونه فعلاً وإن ما رآه ومر به من أحداث هي من وحي خيال مريض مجنون. تكتكة عقارب الساعة المعلقة على الجدار كانت تدق رأسه المشوش مثل مطارق عظيمة بلا كلل ولا توقف.

الوقت يمر, ربما مرت خمس دقائق وعيني محفوظ معلقتين يراقب شاشة الحاسوب بقلق.

شعر بالملل فأرخى رأسه للوراء وقال:

- ألم أقل لك بأنك مجنون... عن أي أطفال ورسائل تتحدث أيه المخبول؟ قل أنك مجنون, اعترف, قل أن طفولتك التي قضيتها في بيع السجائر والمكسرات في إشارات المرور قد أوصلتك إلى ما وصلت عليه اليوم! قل أن أبوك الذي تهور بحماقة كبيرة منه أنت من تدفع ثمنها اليوم, حلم هو بحرية الرأي في بلد لو قلت فيه مجرد كلمة سترمى في السجن لسنوات طويلة دون أن يكترث لك أي أحد؛ فكيف بأبيك الذي خطط لقلب نظام حكم البعث الظالم! وقال بلهجته البغدادية

" أبويه هو السبب أي لو عايش بحاله جان هسه أني هم عايش مثل باقي البشر.

وجه اللوم لنفسه ولوالده ولكل من ظلمه وقسى عليه. كلم نفسه طويلاً بصوت مسموع وبكى مثل المجانين:

- أنت من تحمل الوزر لا أبيك, فهو لم يذق عذابك وتشردك وغربتك, ها أنت قد وصلت لحافة الجنون, لا بل لقد صرت مجنوناً بالفعل, وهذا الدفتر الذي دونت بخط يدك على طياته أوهاماً عن ثلاثة ملائكة يأتون إليك في المنام كل يوم, ويحملون لك رسائل ومهمات لتقتص ممن قتلهم وتنقذ البلاد والعباد. لا بل والأدهى من ذلك أنك تتصل برجل جزائري اسمه... دعني أرى الكشكول ما اسمه؟ ها جميل بن رباح! لا وجود لهذا الرجل سوى في أوهامك وما يوحيه لك عقلك المختل يا محفوظ, أنت من صنعت كل هذا وصرت تعيش كذبة كبيرة أنت اختلقتها. ها ... رسائل مع بن رباح؟ لو كان بن رباح موجوداً أذن لماذا لم يرد عليك؟ حتى هذا الايميل أنت من قام بإنشائه على الإنترنيت ورحت ترسل له رسائل من أيميلك وترد على رسائلك بنفسك. أنت مجنون نعم مجنون!

وراح بعد كل ذلك الدمع والبكاء يقهقه ضاحكاً بأعلى صوته كأنه يؤدي مشهداً مسرحياً مثلما يفعل سامي عبد الحميد أو محمود أبو العباس حينما يجتزؤون مشاهد منفردة لواحدة من مسرحيات شكسبير الشهيرة ويؤدونها بصدق على خشبة مسرح مظلم وسط هتاف الجماهير وتصفيقهم الحار. كان يضحك ويبكي ويتكلم مع نفسه بصوت عالي. يسأل نفسه ويجيب على أسئلة بلهاء. وبينما هو يضحك بصوت عالي سمع تنبيه رسالة واردة من حاسوبه:

" لديك بريد وارد "

نهض من مكانه وتوجه مسرعاً نحو حاسوبه فوجد رسالة واردة إليه من بن رباح.

" ها إنها رسالة من بن رباح! إنه موجود"

أنا لست مجنوناً, أنا لست بمجنون, الكشكول أين هو؟

فأرسل الشفرة الثالثة ووردته على الفور الشفرة الرابعة.

- بن رباح كيف حالك؟
- بخير كيف أنت يا محفوظ؟
- الحمد لله لقد اعتقدت أني مجنون لأن ال....

وتذكر محفوظ وصية الأطفال له بعدم إخبار بن رباح عن موضوعهم مهما حدث أو استجد.

فرد عليه بن رباح بسؤال:

- لماذا اعتقدت أنك مجنون يا محفوظ؟

فحاول محفوظ أن يختلق عذراً يداري فيه زلة لسانه فقال لبن رباح:

- لا عليك المهم أني غداً سأسافر للولايات المتحدة الأمريكية لقضاء إجازتي الدورية هناك وأردت أن أعطيك خبراً بذلك.

بن رباح:

- ما الجديد أنا؟ أنا أعرف بذلك منذ مدة, هل تريد أن أخبرك بالجديد يا محفوظ؟

محفوظ مستفهماً بتعجب:

- نعم أخبرني؟

بن رباح:

- أنا في بروكلن أنتظرك هناك, وسوف أزورك في الشقة لألتقي بك. هل هذا جديد عليك؟

محفوظ:

- نعم وأخيراً سوف أراك...

بن رباح:

- حاول أن تتصرف بشكل طبيعي ولا تثير الريبة فمن تتعامل معهم ماكرون وسيلحظون أية علامات ارتباك قد تبدو عليك! إلى اللقاء ...

محفوظ:

- إلى اللقاء.

في الطائرة المتجهة إلى أمريكا لم يشغل بال محفوظ سوى أمرٌ واحدٌ فقط وهو لقاءه المرتقب مع بن رباح, وما الذي سيدور فيه هناك من حديث مصيري بالنسبة إليه, لاسيما بعد ما عرف من الأطفال الملائكة, في الموعد الأخير معهم, أن بن رباح سيكون هو الحارس, وها هي الأيام قد أثبتت لمحفوظ مصداقية ذلك الكلام؛ فلولا أنهم ربطوه بالأيميل الذي يتراسل به مع بن رباح لكان قد جن فعلاً بالأمس, ولولا ذلك الاتصال, ربما لكان قد وصل

لمرحلة من الانهيار حينما فكر بالانتحار, كما راودته تلك الفكرة المجنونة بعد حالة الهستيريا التي سيطرت عليه لولا المراسلة مع بن رباح.

وبما إن الطريق والرحلة من بغداد إلى أمريكا طويلة؛ أرخى محفوظ رأسه على أريكة المقعد وغط في نوم عميق ...

- عم محفوظ نحن هنا تعال؟
- من ... من يناديني ؟ ...

كأنه كان فوق الجسر من جديد, ركض باتجاه الأطفال الثلاثة بعد أن وجدهم جالسين يلعبون لعبتهم المعهودة (بيت أبو بيوت) وجوههم هذه المرة صافية بلا دماء ولا كدمات, حتى أن أذرعهم وسيقانهم قد شفيت من جروحها التي كانت غائرة وبشعة. دشاديشهم البازة كانت نظيفة وغير مقطعة وكانوا هذه المرة يتشابهون بالضبط كالتوائم المتماثلة.

لكن الذي أدهش محفوظ شيء جديد فيهم؛ وهو أن ملامحهم تشبه لحد بعيد تلك المرأة التي ناولته ورقة الشفرات في منطقة الباب الشرقي قرب نصب الحرية, وهو متحير من ذلك الشبه الكبير.

كما أنه رأى ثلاث حمائم رمادية اللون لهن هديل مدوي كن بقربهم يلتقطن شيئاً من الأرض كانوا يرمونه إليهن من حجورهم فسألهم محفوظ عن تلك الحمامات.

قال له أحدهم:

- هذه الحمائم مثلنا تماماً يا عم! أنهن من حمائم مرقدي الإمام الكاظم وأبي حنيفة, كن يأكلن طعامهن في صحن الأمام الكاظم وينمن في أعشاشهن فوق منائر أبي حنيفة وبعد أن هدموا المرقدين قتلوهن وصرن بلا وطن مثلنا.

محفوظ:

نعم رأيت مرقد أبي حنيفة المهدوم بأم عيني, وسمعت عن مرقدي الجوادين.

الأطفال:

- لن تعرفنا بعد اليوم؟ أي منا علي؟ وأي منا عمر؟ وأي منا هلكرد؟ فجروحنا قد شفيت بفضلك أنت. لقد مشيت خطوات طويلة على درب الثأر لنا يا عم محفوظ!

محفوظ:

- أنا أصلاً لم أعرفكم بالأسماء من قبل فالظلام كان حالكاً في المرات السابقة, علاوة على أن أصواتكم متشابهة لحد التماثل, كأنكم واحد, فلم أميز أي أحد منكم يتكلم معي قبل اليوم.

الأطفال:

- متحير من الشبه بيننا وبين المرأة أليس كذلك؟

محفوظ:

- نعم تشبهونها لدرجة كبيرة يا سبحان الله, كأنها أمكم

الأطفال:

- نعم هي أمنا بالفعل يا عم! وهي مثلنا ميتة تماماً لكنها بلا دماء على جسدها لأنها مقسمة بالنهر لقسمين! إنها بغداد!

محفوظ:

- وماذا عن أبوكم هل هو موجود؟

الأطفال :

- هذا هو أبونا ... تعال أنظر!

فلما تقدم ونظر للشيء الذي أشاروا إليه, وجد رقعة جلدية كانوا يلعبون عليها لعبتهم المعهودة (بيت أبو بيوت) والتي هي على شكل خارطة العراق وعليها ألون علمه الأربع.

فقال له أحدهم:

- لا وقت لدينا ولديك يا عم محفوظ. احفظ هذه الرسالة, إنها الرسالة الثالثة:

" هدم المراقد الثلاثة هي الخطيئة الكبرى والتكفير عنها يرفع السخط عن الناس" وفي الجمعة القادمة سيزورك الحارس, لا تخبره عن سرنا ولا أحلامك بنا, أصغي له فهو من سيحميك... لكن لا تطعه بخصوص الكشكول! تذكر الكشكول هو رسالتنا الأخيرة إليك.

نعم ....آه آه نعم ..... نعم .....

هي أستاذ هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى طبيب؟

فز محفوظ من نومه فوجد المضيفة واقفة بالقرب من مقعده تسأله عن سبب صراخه أثناء نومه, والذي لفت إليه انتباه الجميع على ما يبدو.

أخبرها أنه بخير ولا حاجة له بالطبيب, تبسم بوجهها وقال لها إنه كان يحلم. حينها شعر محفوظ بالغبطة؛ فقد رجعت أحلامه بالأطفال الملائكة, أخرج كشكوله من حقيبته الصغيرة التي يحملها معه ودون فيه تفاصيل الرسالة التي وصلته بفرح غامر. جلس يفكر بشوق للقائه المرتقب مع بن رباح يوم الجمعة القادم, والذي كانت تفصله عنه ثلاثة أيام فقط حيث سيكون في شقته في بروكلن.

ما إن وصل محفوظ للشقة حتى بدء بترتيبها بنفسه, فالشهور الأربعة التي غابها عن الشقة فعلت فعلتها فيها: لقد وجدها في حالة مزرية, مليئة بالغبار والأتربة, كان عليه أن يتصل بشركات الصيانة لإصلاح بعض الأجهزة العاطلة في الشقة. التكييف تركه عاطلاً لأنه لم يكن يملك المال لصيانته حينها, أما اليوم هو موظف في القوة الدولية والتي ستدفع عنه فواتيره علاوة على أجره العالي الذي يتقاضاه. لم يعد محفوظ معسراً كما كان.

طلب لنفسه وجبة طعام من مطعم الونديز الفاخر القريب من شقته, كما وطلب نسخة من كتاب الله العزيز القرآن الكريم من الجامع القريب من شقته. دخل للحمام و توضأ ثم صلى بخشوع صلاته الأولى منذ سنوات طويلة؛ فقد أحس بالحاجة للتقرب إلى الله في خضم المعجزة التي يعيش تفاصيلها.

وبعد أن أنهى محفوظ صلاته جلس على سجادة الصلاة يبتهل لربه أن يسانده في المهمات الجليلة التي عليه أن ينفذها. الرسالة الأخيرة التي تلقاها من الأطفال الملائكة كانت تحمل معها مهمة عسيرة لمحفوظ. هو متأكد تماماً إن عناية الله ستكون معه في كل المهمات مهما كانت صعبة وشائكة. ومع إنه واثق كل الثقة من أن الأطفال الملائكة سيوف يساندونه ويأخذون بيده لينجز مهماته القادمة, كما فعلوا من قبل.

" هدم المراقد الثلاثة هي الخطيئة والتكفير عنها يرفع السخط عن الناس "

من اللحظة الأولى التي وصلت الرسالة لمحفوظ, عرف إن المهمة القادمة تتعلق بالكشف عن هوية من قاموا بتفجير المراقد الدينية الثلاثة: الجوادين وأبي حنيفة في بغداد, والعسكريين في سامراء. لقد عرف من قبل إن الحرب الأهلية التي نشبت سببها تفجير تلك المراقد والتي أعقبها تقسيم العراق للدول الثلاث. لكن كيف سيكتشف ذلك, وكيف سيكفر محفوظ عن تلك الجريرة الكبرى؟ هذا ما كان يشغل تفكيره تماماً.

لكن إلهاماً خفياً كان يهمس في أذني محفوظ وينبئه إن كل شيء سيكون هيناً وسينجز جميع المهمات بسهولة تامة.

أمضى محفوظ الأيام الثلاثة التي أعقبت وصوله لبروكلن معتكفاً في شقته ولم يخرج منها إلا نادراً. مثل راهب أمضى جل وقته يتأمل الرسالة الجديدة, وينتظر رسول الأطفال الملائكة.

في الصباح الباكر من يوم الجمعة سمع محفوظ صوت جرس الباب, كان مستلقي في سريره, فنهض من مكانه وتوجه إلى شاشة الكاميرات ليعرف هوية الزائر الذي رن جرس شقته, رأى ملامح رجل عربي متوسط القامة والقوام حليق الرأس حنطي البشرة في منتصف العقد الخامس من العمر, تكلم معه بالحاكي وطلب منه التعريف عن نفسه باللغة الإنجليزية فقال له بالعربية أنه جميل بن رباح. على الفور فتح له محفوظ الباب السفلي لمدخل العمارة بالزر الذي عنده في لوحة التحكم ووقف بانتظاره عند الباب.

لما وصل تعانق الرجلان بعد فترة من تبادل الرسائل الإليكترونية المقتضبة. أدخله لغرفة الصالون وأحضر له كوباً من العصير وجلسا يتحاوران:

محفوظ:

- من أنت ولم تساعدني في هذه المهمة الخطيرة ...

بن رباح:

- لا تسأل ولا تفكر بذلك يا محفوظ! فالأمر خارج إرادتي وإرادتك وإرادة الجميع! أرجو أن تتفهم الوضع. لا يحق لأي منا السؤال, فقط علينا التنفيذ, هذا كل ما في الأمر.

على فكره في هذه الورقة " وناوله إياها " وفيها شرح دقيق وتفاصيل وافية عن هوية منفذي تفجير المراقد الثلاثة في جمهورية العراق " سابقاً " والتي أشعلت آتون الحرب الأهلية بالأسماء وبالتفاصيل.

كل ما استطيع قوله لك أن هناك وثائق دامغة وهي عبارة عن تسجيلات صوتية موجودة في حاسوب شخص يعمل ضمن القوة الدولية وهو عميل كبير لرأس الأفعى التي تدير عملية تقسم العراق ومنع أي محاولة لتوحيده بعد التقسيم.

رأس الأفعى هذا أجهله أنا, أما أنت فالأمر مختلف تماماً! فهناك يد خفية ستعاونك في كشف هوية الجميع! وحدك أنت من وقع عليك الاختيار لكشف الحقيقة وجمع الأدلة وهي مهمة عسيرة! لكن كما أخبرتك, هناك من سيعاونك وأنا سأكون موجود بالقرب منك. هناك أمر واحد بإمكاني أن أخبرك به ولا تسأل بعد ذلك: وهو لماذا تم اختيارنا أنا وأنت بالذات لهذه للمهمة؟ رغم إن كلينا بعيدين عن العراق!

أنت عراقي الأصل لكنك اليوم أمريكي الجنسية وأنا صحيح أسكن في العراق لكنني جزائري الأصل أمريكي الجنسية!

السبب يكمن في قربنا من رأس الأفعى وأذنابها يا محفوظ. هذا ما عرفته قبل شهور قليلة ولا استطيع أخبارك بمصدر معرفتي بالمعلومات التي أخبرك بها.

رأس الأفعى الذي خطط ونفذ تقسيم العراق, ومن قبل نفذ وخطط للحرب الأهلية لاحقاً, وكل هذا الدم الذي سال فيه والذي سيسيل نحن قريبان منه وعلينا نوقف نزيفه, وأن نكشف المخطط والملعوب قبل فوات الأوان.

واجبي انتهى معك ولا تسأل أرجوك!

إلى اللقاء...

رحل بن رباح وترك محفوظ في حيرة جديدة, ألغاز متشابكة, جلس وحيداً يحمل بيده الورقة التي لم يقرأها بعد, المهمة هذه المرة أصعب من الأولى لكنه قد قبل التحدي, وحمل على عاتقه تنفيذ المهمة برمتها, وقبل بها وسينجزها للنهاية. هذا هو وعده للملائكة الأطفال وقراره الفصل.

فتح محفوظ الورقة وقرأ ما مكتوب فيها:

لقد جند رأس الأفعى المجهول, وقبيل الحرب الأهلية بشهور ثلاثة, رجالاً لتنفيذ المخطط القديم لتقسيم العراق وهم:

رجل دين سني يدعى " الشيخ ناصر السلمان " من الموصل.

رجل دين شيعي يدعى " الشيخ محمود الطبراوي" من بغداد

زعيم كردي من أربيل يدعى " سعد البرواني "

لمعهم وصعد نجمهم وجعلهم, بواسطة التزوير, يفوزون في انتخابات عام 2019 البرلمانية التي أجريت في العراق "سابقاً " وعند فوزهم في الانتخابات رتبوا بينهم, بأمر من رأس الأفعى, عقد مؤتمر برلين والذي عقد تحت مسمى المصالحة الوطنية, لكنهم حاكوا خلاله المؤامرة الكبرى بأن أقنعوا زعماء الكتل الكبيرة بأن الحل الوحيد لكل ذلك العنف الذي نخر جسد البلد هو من خلال التقسيم, وعادوا إلى العراق بعد أن اتفقوا على الطريقة البشعة في تنفيذها وهي تفجير المراقد الثلاثة: إي الأماميين العسكريين في سامراء والجوادين في الكاظمية ومرقد أبو حنيفة في الأعظمية, وفي يوم واحد نفذوا المخطط الدنيء من خلال عصابات مسلحة مدعومة في الخفاء من قبل قوات أمن مخترقة ونفذوا بالفعل غايتهم الدنيئة هذه.

حدث ذلك يوم العاشر من كانون الثاني عام 2019, أي بعد شهرين من فوزهم بالانتخابات, وقد تسبب تفجير وهدم المراقد الثلاثة؛ بنشوب الحرب الأهلية في نفس اليوم التي مهدت لتقسيم العراق وفعلاً نجحت خطتهم وفعلت فعلتها.

الدليل على تورطهم وكل التسجيلات الصوتية وكل الوثائق في حاسوب نقيب يدعى داوني, وأنت يا محفوظ مترجمه الشخصي, وللأسف هو شريك مع رأس الأفعى في المؤامرة الكبيرة, وهو جندي من جنوده, عليك توخي الحذر منه وعدم إشعاره بأنك عرفت كل هذه المعلومات لأنه إن عرف شيء عن ذلك سيصفيك على الفور بعد أن يستخدم معك طريقة التخدير في التحقيق, والتي ستمكنه من الوصول إلي وتصفيتي كذلك.

فقد تحين الفرص في إمكانية نسخ تلك التسجيلات والوثائق من حاسوبه الشخصي وبدون مجازفات. لا أعرف كيف هذا ما أمرت بأن أبلغك إياه وعليك التنفيذ.

ملاحظه احرق هذه الورقة بعد أن تحفظ ما فيها من معلومات ولا تحفظ أي وثيقة مكتوبة وأحرق كذلك ذلك الكشكول الذي تسجل فيه المعلومات.

بخصوص الكشكول لا تسأل من أعلمني به فقط أحرقه! فالعلم عند الله أننا قد وضعنا أيدنا في عش الدبابير كما يقال ولا مجال للخطأ ولو بطرف العين.

رفع محفوظ رأسه بعد أن أتم قراءة الورقة وتبسم من دقة التفاصيل التي أخبروه عنها الملائكة الأطفال حتى بخصوص الكشكول الذي أخرجه ودون فيه كل شيء بخصوص هذا اللقاء كما قالوا له, ثم استلقى بفراشه يفكر بموضوع الرسالة الرابعة التي بلغ بأن عليه أن يؤجل تنفيذها حتى عودته إلى العراق من الإجازة. كل شيء محسوب بدقة, لحظة قرأ محفوظ رسالة بن رباح فهم السبب وراء طلب الملائكة الأطفال منه بعدم تنفيذ الرسالة الرابعة لحين عودته للعراق من الإجازة. فتنفيذها يتطلب منه القرب من النقيب وحاسوبه الشخصي. كما فهم محفوظ إن لقاءه مع بن رباح كان برهاناً له بأن ما يعيشه من معجزات واقع حقيقي وليست مجرد أوهام يتخيلها.

.....

الفصل السابع

الرسالة الرابعة

"بن رباح هو الحارس والنقيب هو اللغز"

بعد أن عاد محفوظ من الإجازة ووصل للنقطة على الجسر واجه تحدياً قوياً هذه المرة, فالوجوه التي كانت تستتر خلف لثام الإنسانية, والقوة الدولية ذات المهمة الإنسانية, أماط لثامها بن رباح برسالته المكتوبة لمحفوظ. هذا النقيب الذي استقبله في المطار ذاك الصباح لم يكن سوى واحداً من بين مجموعة كبيرة من المجرمين الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء. لكن, على محفوظ أن يتقن دور الجاهل لتلك الحقائق التي كشفها ويتصرف على سجيته مع الجميع: يجامل النقيب وبقية أعضاء الفريق. فأن أحس النقيب بتغير في تصرفات محفوظ سيدخل الشك في قلبه, وقد يجر المهمة كلها للمجهول. عليه أن يحذر ويتقن الدور. هذا ما درب محفوظ نفسه عليه لما تبقى له من أيام الإجازة بعد أن كشف المستور. اتصل بالنقيب من أمريكا مرات كثيرة ليطمئن على الجميع, حتى إنه جلب للجميع هدايا وحاجيات من أمريكا كما يفعل الآخرون حين يرجعون من الإجازات الدورية, سلع لم تكن متوفرة في العراق ولا تباع في أسواقه الهزيلة.

فهو قد جلب للنقيب تكة سجائر من النوع (camel) الذي يدخنه, وبعض الأشياء الأخرى للباقين: عطور فرنسية, كتب ومجلات مشهورة, وحتى ملابس وأحذية من ماركات مشهورة, سلمها لهم في جلسة الترحيب بعودته سالماً إلى النقطة في المطعم عند العشاء, كما جلب لـراجي الطباخ تلك العلبة

الكبيرة من البهارات الغريبة التي فتش محفوظ طويلاً عن ذلك المتجر الذي دله عليه في بروكلن وكلفه الوصول إليه مسير ساعة وعناء ما بعده عناء؛ لأنه كان متجراً منزويا ولم يستطع الاستدلال عليه إلا بعد شق الأنفس, والتي رماها محفوظ عليه ممازحاً إياه بقوله له أنه قطع البحور وتسلق الجبال ونزل الوديان حتى وصل إلى متجر التوابل الهندية ذاك واشترى له هذه العلبة, مشهد تمثيلي أداه محفوظ فأضحك الجميع. نجح محفوظ في تمرير ما خطط إليه. جلس مع النقيب منفرداً بوجه بشوش, تلقى منه توجيهات جديدة طرأت على عمل النقطة بغيابه عنها. وبعد أن انتهت جلسة الترحيب, عاد محفوظ إلى غرفته لينام بانتظار صبح جديد. لكنه كان قلقاً وخائفاً من المهمة الجديدة, فالرسالة التي أبلغوها بها غامضة, وكذلك المهمة التي عليه أن ينفذها. ما هو اللغز في هذه الرسالة؟ هذا ما لم يفصح له الأطفال الملائكة عنه, ولم يلمحوا إليه حتى. هو فهم إن داوني ضالع مع رأس الأفعى في مخطط التقسيم, لكن كيف لمحفوظ أن يصل لتلك الأدلة المخزنة على حاسوب النقيب الذي لا يسمح لأحد من الدخول لحجرته بغيابه أصلاً؟ ظل الأمر يقلقه ويؤرقه. تقلب على سريره طويلاً ولم يستطع النوم.

مر الوقت برتابة وهو يفكر في فك شفرة الرسالة الرابعة الصعبة والمحيرة بالنسبة له.

أستنتج محفوظ في أن حلها يكمن في حلم أخر من أحلامه بالأطفال الملائكة وهم من سيحلون له لغزها وراح يحاول النوم علهم يأتون إليه بالحل, لكن عبثاً؛ فقد جفاه النوم حتى ساعات الفجر الأولى.

كان الجو شديد البرودة, فالشتاء قد حل عن حين غرة, كان ذلك اليوم هو الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر وهو باكورة أشهر الشتاء في العراق.

حاول محفوظ النوم لساعات طويلة لكنه فشل في مسعاه. تقلب كثيراً في فراشه وربما نهض وتمشى في الحجرة الضيقة. وبعد أن شعر بالملل؛ فكر في الخروج من الحجرة والوقوف على حافة الجسر ليشم نسيم دجلة, إذ لربما قد يشعر بالراحة من ذاك القلق ويعود لفراشه لينام.

وقف على الجسر متكئً على درابزين الحديدي البارد, حمل بكفه بعض الحصا جمعها من الأرض وراح يلقيها في الماء الواحدة تباعاً كما تعود أن يفعل في ساعات الضيق والملل, فجأة تذكر أغنية قديمة يحبها فتمتم كلماتها بصوت خافت, كانت أغنية تراثية بغدادية قديمة حفظها مذ كان صغيراً وكان يرددها عندما كان يبيع السجائر والمكسرات في إشارة مرور سينما البيضاء في بغداد الجديدة, لكنه حتى وهو يغني كلماتها بصوته الندي أستغرب من تذكره لتلك الأغنية في تلك الساعة بالتحديد, وفي ذاك الوقت

المتأخر من الليل بعد كل تلك السنين. ربما أنه كان قد تذكرها لكونه يتأمل سكون الليل وماء نهر دجلة المعتم وسط الظلام والبرد القارص؟ هكذا برر محفوظ تذكره لتلك الأغنية فغناها.

"على شواطي دجلة مر يا منيتي بوسط الفجر"

ثم على صوته رويداً فترددت كلماتها بعيداً ليتكسر صداها العذب مع هدوء الليل بين جرفي النهر الواسع.

وبينما هو كذلك, التفت فإذا بالنقيب داوني يقف خلفه مثل ظل ساكن مما أفزعه فقال له النقيب:

- لا تستطيع النوم أليس كذلك؟ فقد غيرت منامك وهذا أمر طبيعي يا محفوظ.

رد محفوظ:

- نعم سيدي ربما تغيير مكان نومي سبب في عدم قدرتي على النوم؟

النقيب بنظرة غريبة يغلفها خوف مجهول وارتباك واضح:

- ليس هذا ما يؤرقك فقط يا محفوظ. هنالك أمر تخفيه! بح لي بما يؤرقك وسوف أساعدك.

تلك الجملة التي نطقها النقيب كانت كوقع زلزال عنيف أربك محفوظ لوهلة لكنه عاد وتماسك, وحافظ على رباطة جأشه ليداري السر الكبير الذي عرفه من الملائكة الأطفال ورسالة بن رباح فرد على السؤال بالنفي:

- لا سيدي! إنه مجرد أرق لا أكثر... وأتبع: لا داعي للقلق سيدي فكل شيء على ما يرام.

النقيب:

- هل أنت متأكد؟

محفوظ:

- نعم سيدي...

فقال النقيب وعيناه تهربان من عيني محفوظ:

- ماذا لو بحت لك أنا بسر خطير يخصني, هل ستكتمه بيني وبينك, لا سيما إن أخبرتك أن مجرد بوحي لك به قد يؤدي لقتلنا نحن الأثنين؟

وكانت تعابير وجه النقيب حين نطق كلامه ذاك جدية ومتجهمة, خاف منها محفوظ حتى إنه سكت وهز رأسه للنقيب بنعم, أي أنه سيكتم سره ولن يبوح به لأي أحد.

فقال النقيب:

- ما سأقوله لك أجبرت على البوح به إليك, لكني لا أستطيع أن أخبرك بكل شيء لأني إما أكون قد جننت أو أني قد هرمت وخرفت. وأتبع بعد أن أشعل سيجارة أختلط دخانها الخارج من منخريه مع بخار أنفاسه المضطربة في ذلك الجو البارد:
منذ ثلاث ليال وأنا أرى في المنام ثلاثة أطفال يأتون إلى هنا على الجسر, ينظرون إلي بحقد ويوبخونني ويتوعدونني بعذاب شديد. هم عراقيون لاشك: هيئتهم, لغتهم, وحتى ملابسهم التي كانوا يلبسونها!

ما كاد النقيب ليكمل كلامه حتى تبسم محفوظ وقال في نفسه:

هسه عرفت ليش كالولي لا تنفذ الرسالة الرابعة لحد ما توصل للنقطة!

وراح داوني يحكي لمحفوظ عن كلامهم معه باللغة الإنجليزية وأنهم كانوا تحت الجسر, وأنهم يتشابهون وما إلى ذلك من أوصاف يعرفها محفوظ فيهم عن ظهر قلب, إلا الإنجليزية التي هي جديدة عليهم! وبما أنهم قد حذروه من البوح لأي مخلوق عنهم لاسيما إن كان عدو لهم ومتسبب بقتلهم وقتل الكثيرين غيرهم من العراقيين, فقد تكتم محفوظ عن أمرهم واكتفى بالإنصات للحديث المألوف.

لكن المفاجأة هي جملة قالها النقيب كادت تجعل لسانه يزل ويفضح الأمر برمته حينما قال له بصوت مرتبك ولسان متلعثم:

- هم أرسلوني إليك يا محفوظ قالوا لي كفر عن خطاياك وأذهب لمحفوظ ستجده واقف على الجسر بعد منتصف الليل يغني ويرمي الحصا في نهر دجلة, ستجده يغني أغنية غنوها لي مجتمعين, كتلك الأغنية التي كنت تغنيها قبل قليل, والتي لا أعرف معنى كلماتها, وإلى ماذا ترمز. إنها نبوءة يا محفوظ! كيف عرفوا بكل تلك التفاصيل؟ حتى الأغنية التي كنت ترددها أخبروني عنها! إنها معجزة يا محفوظ. حين استيقظت من نومي همس صوت بأذني, قال لي قم وأخرج للجسر, ستجد محفوظاً واقفاً هناك, يرمي الحصى في النهر ويغني تلك الأغنية. وفعلاً وجدتك تفعل كما أخبروني. بعد البرهان, قررت أن أطيع أوامرهم!

ثم انهار داوني فجأة وجلس على ركبتيه وهو يجهش بالبكاء فأخذه محفوظ إلى غرفته مسنداً إياه على كتفيه. كان محموماً يرتجف, وأخذت أنفاسه تضطرب وقواه تخور.

ما هي إلا برهة حتى فقد النقيب وعيه تماماً وارتفعت حرارته حداً خطيراً مما دعا محفوظ للتوجه على الفور لغرفة الكونترول ليستدعي العريفين جاك وبراد من هناك حيث كانا في واجب المناوبة في تلك الأثناء. ولما جاء إليه جاك وتبعه براد تبين لهما أن حالته سيئة جداً وتستدعي نقله على الفور إلى مستشفى المنطقة الدولية الخضراء. بعد قليل حضرت سيارة الإسعاف للنقطة ونقلت النقيب نحو المستشفى. محفوظ رفض البقاء في النقطة وأصر على مرافقة النقيب للمستشفى, ربما لأنه شعر بأن المهمة التي يحملها متوقفة على سلامة الرجل الذي كان يحتضر حينها. كان قلقاً عليه لدرجة أنه قضى بقية الليل مستيقظا في صالة الانتظار في مستشفى ابن سينا يترقب ما ستؤول إليه الأمور.

بعد أن أفاق النقيب من غيبوبته في المستشفى وعاينه الأطباء قرروا إبقاءه في المستشفى ليوم أخر, كان بحاجة لأجراء فحوصات إضافية, هكذا نصحه الأطباء؛ فحالته الصحية لم تكن مستقرة تماماً. كان النقيب مستلقي على سرير المستشفى نصف مستيقظ, بدا شاحباً هزيلاً يبدو عليه الانكسار. نظر إليه محفوظ بازدراء وكان أخر من تركه في الردهة. وحده محفوظ يعلم بسبب نكسته تلك. رمقه بنظرة أخيرة وغادر مع الأخرين نحو النقطة.

حل الظلام سريعاً وتلاشت الشمس خلف الأفق الأحمر, سرعان ما أشتد البرد بعد ما هبت ريح زمهرير خلت بعدها الشوارع والأزقة المحيطة بالجسر من المارة؛ مما دعا الملازم تشارلز لإغلاق النقطة قبل ساعة من الموعد المحدد للأغلاق.

جلس محفوظ قرب كاونتر المطعم وطلب من راجي كوب شاي ساخن ليدفئ به نفسه ناوله إياه وأخذ يرتشف منه رشفات متعاقبة. جلس محفوظ وحيداً يفكر في تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين النقيب فجر ذلك اليوم والسر الذي باح به إليه وحل به لغز الرسالة الرابعة التي كانت هي مهمة الأطفال الملائكة إليه ليحلها ويفك شفرتها.

وقال في نفسه:

- يا ترى هل أخبروا النقيب عني وعن رسائلهم لي؟ هل باحوا له بسري أم فقط قالوا له أذهب إلى محفوظ وبح له بأمرك؟ لماذا قال النقيب أنه لو اكتشفوا إنه باح بالسر الذي يخفيه سيقتلونه؟ من هم الذين سيقتلونه؟ وكيف سيفعلون؟

وبينما هو يفكر بذلك شارد الذهن نبهه الملازم تشارلز إلى الطعام وقال له:

- تعال محفوظ ما بك؟ النقيب بخير! لا تقلق عليه أنها مجرد نزلة برد عادية... تعال الطعام جاهز.

تنبه محفوظ لشروده حينها وجلب طعامه من البوفيه وجلس يتناوله معهم بغير شهية للأكل, لكنه مثل عليهم أنه يأكل وتحامل على نفسه حتى أنهى الطبق وأرجعه لراجي وأخذ كوب شاي ساخن أخر معه للغرفة, وتركهم بعد أن أستأذنهم بحجة إنه أنه متعب. تمازحوا معه عندما خرج فقال له ستيورات(لا تقلق يا رجل سيعيش أبوك ليدللك ولن يموت) دلالة على أن النقيب يفضله على البقية ولا يرفض له طلب, بينما خرج محفوظ من باب المطعم متجاهلاً ثرثرتهم الفارغة, فهو منشغل بالحمل الثقيل الملقى على عاتقه وبمستقبل بلده الذي هو الآن بين يديه, ويعتمد على أحلامه التي عليه ينفذها على أرض الواقع. نام محفوظ تلك الليلة بعمق مرتاح البال, لقد تعززت ثقته بنفسه كثيراً, ولم يعد يقلق من ثقل المهمات القادمة. تيقن حينها أن الأطفال الملائكة سيمهدون له الصعاب, وإن يد الرحمن تحفه أينما يكون. هكذا بدء محفوظ يزداد ثقة يوماً بعد يوم, ومع مرور الوقت؛ تأكد إن المهمة برمتها ستتكلل بالنجاح في نهاية المطاف.

.....

الفصل الثامن

الرسالة الخامسة :

" في المتنبي صوت أنين من مقهى الشابندر يصدر"

عم محفوظ ... تعال إلى الأسفل...

محفوظ:

- أنا هنا في الأسفل...

الأطفال:

- لا أنت في الأعلى ... حسناً أبقى مكانك!

محفوظ:

- أنا لا أراكم أين أنتم؟

الأطفال:

- لا داعي لأن ترانا أبقى مكانك... لن يسرك منظرنا لأن الدم عاد إلينا وكذلك جراحنا...

محفوظ:

- لماذا عاد الدم إليكم... ولما جراحكم قد رجعت؟

كلهم:

- رأس الأفعى يخطط لحرب ثانية ودمها هو من يصبغ أجسادنا الآن...
أمنعها يا عم محفوظ نحن سنساعدك في ذلك!
محفوظ متى ستقع تلك الحرب؟ وكيف سأمنعها؟

الأطفال:

- موعدها بعد شهرين وعليك أن تمنعها!

محفوظ:

- نعم تذكرت لقد أخبرنا النقيب عنها! ولقد بلغنا بها بعد عودتنا من معسكرات النهروان, قال إنها ستكون حرباً بشعة.

الأطفال:

- المهم لقد باح لك بسره صحيح؟

محفوظ:

- من داوني؟

كلهم:

- العقرب... يدعى العقرب...أسمه العقرب... داوني اللعين, عندما تراه ناده باسمه الحركي(العقرب) احرص على أن يكون بمفرده حين تناديه بتلك الكلمة, وسوف يخر صاغراً لك على الفور, لكن حافظ معه على سرنا ولا تبح له بأي شيء.

محفوظ:

- نعم مفهوم!

كلهم :

- الآن لديك مهمة ورسالة جديدة, ومن اليوم ستكون رسائلنا لك كثيرة؛ لأن مهمتك على وشك الانتهاء.

دون هذه الرسالة في كشكولك:

في المتنبي صوت أنين من مقهى الشابندر يصدر...

لن يسمع الصوت هناك غيرك كما ولن يراه سواك...

فقط قل للنقيب يا عقرب وقل له أن عليه أن يأخذك لهناك وستراه عبد مطيع بين يديك...

نعم .... نعم ... آه .... آه .... عقرب ..... عقرب ...

فاستيقظ محفوظ فزعاً ووجد أن نور الشمس قد ملأ براح الحجرة, رفع رأسه بينما كان مستلقي في فراشه وطالع الساعة فوجدها تمام السابعة.. كان صباحاً بارداً ملبداً بالغيوم, لقد أمطرت بالأمس بغزارة. خرج محفوظ من حجرته نحو الحمام مسرعاً فوجد رفاقه كلهم على الجسر بكامل العدة القتالية يحملون أسلحتهم بتأهب, خطب ما كان يحدث! الملازم تشارلز والعرفاء ستيوارت ونيفل وكارل وجاك وبراد وجون وماديسون تجمعوا قرب بوابة الكرخ يترقبون شيئاً ما على الجسر فتوجه نحوهم محفوظ بملابس النوم فصرخ به نيفل:

- أرجع محفوظ لا تقترب... البس درعك وخوذتك وتعال بسرعة!

عاد محفوظ ولبس ملابسه العسكرية على عجل ووضع درعه وخوذته وخرج إليهم مهرولاً حيث كانوا واقفين خلف المتاريس يراقبون ثلاثة رجال يركضون خلف طفل صغير يهرول نحو النقطة, كان أحدهم يطلق عليه النار من مسدس يحمله, لكن الطفل الصغير سرعان ما وصل للنقطة وأفلت منهم, وبات بعيداً عن مرمى نيران المسدس. كان صبياً بعمر عشرة أعوام تقريباً, كان منهكاً يلهث خلف البوابة المغلقة فقام الملازم تشارلز بفتحها وإدخاله إلى داخل النقطة بلمح البصر بينما تقهقر الرجال الثلاثة نحو أسفل الجسر واختفوا في أحد الأزقة.

ملازم تشارلز لكارل:

- فتشه وتأكد من أنه لا يحمل أسلحه!

بعد أن تأكد كارل من سلامته وخلوه من أي ممنوعات تلقى أمراً من تشارلز بإحضار الماء إليه لأنه كان يلهث ويرتجف وغير قادر على الكلام, وبعد أن استراح قال ملازم تشارلز لمحفوظ سله السؤال التقليدي: أي بطاقة يحمل. فلما سأله قال لهم ذلك الطفل مرتجفاً أنه يحمل البطاقة س (أي أنه مواطن سنه ستاني)

ثم سأله الملازم عن سبب مطاردتهم له ومحاولتهم قتله فأجابهم وهو يتلفت:

- أبوية يريد يبيع كليتي لواحد أجنبي اشتراها لأبنه, أمي كالت لي اشرد للجسارة هم يحموك, اخف من العملية توجعني, أمي هيج كالتلي.
- سله من هذا الذي كان يطلق الرصاص عليه؟
- عمو هذا أبوية كال أموتك.

شيء مقزز بالفعل جعل محفوظ ينفعل ويصرخ (وحوش... وحوش) مرات عدة أثناء ترجمته لكلام الطفل المتلعثم أثر ارتجافه من الخوف وهو يضمه إلى صدره, أو ربما لبرودة الجو في ذلك الوقت المبكر من الصباح. لم يكن ذلك الصبي يرتدي معطفاً ولا ملابس سميكة, مجرد بلوزة خفيفة وسروالاً

ممزقاً ويحتذي بقدميه نعالاً مصنوعاً من اللدائن البلاستيكية. قال محفوظ لملازم تشارلز بلهجة حازمة:

- علينا أن نبقيه في النقطة لحين عودة النقيب من المستشفى وننتظر قراره.

وافق تشارلز بعد أن جلس على الكرسي ليستريح من نوبة الخوف التي مر بها. كارل ومحفوظ أخذوا ذلك الصبي للمطعم ليأكل ويتدفأ, كان خائفاً يرتجف مثل حمامة خائفة. المسكين لم يستكن لحظة, رغم الأمان في النقطة إلا إنه بقي يتلفت ويفز لوقت طويل, لاحظ محفوظ ذلك على الصبي فجلس بقربه يحاوره ويطمئنه.

عاد محفوظ إلى تشارلز وجلس بالقرب منه وقال له:

- كيف ستكون هناك دولة " وأشار إلى سنه ستان " يبيع فيها الأب أعضاء ابنه لأجنبي مقابل المال؟
  وكيف ستكون هناك دولة "وأشار إلى شيعه ستان" يحتجز فيها مئات الآلاف من البشر في مخيم مزري مثل الحيوانات حتى لا تتكفل دولتهم بنفقاتهم؟

فرد تشارلز بضجر وكان مشغولاً بمسح الوحل عن بوطه بمنديل ورقي:

- ما ضيرنا نحن؟ دعهم يحرقون بعضهم بعضاً ما دام نارهم لن تلفح وجوهنا هنا في هذه النقطة اللعينة.

فنظر محفوظ لذلك الملازم البريطاني نظرة إزدراء بعد أن وصلت به الحقارة لتمني موت شعبين بالكامل على أن لا تمسه نار تشويهم وتحرقهم عن بكرة أبيهم شيعتهم وسنتهم.

ذاك المساء أغلقت النقطة على الجسر في وقت مبكر, بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت بعنف. في الحقيقة إن المطر لم يتوقف ولو لبرهة في تلك الليلة حتى الصباح.

مع شروق الشمس, وبعد يوم عاصف, عاد النقيب من المستشفى رفقة قوة جلبته للنقطة ورحلت, فتجمع كل الفريق عنده في حجرته لاستقباله والاطمئنان على صحته. أخبره الملازم عن الطفل الذي لجأ للنقطة بالأمس, فقال لهم النقيب إنه سوف يتصل بالمقر ليرى قرارهم بشأنه.

بعد أن أطمأنوا على النقيب تركوه وتوجهوا لواجبهم كما طلب منهم, عدا محفوظ الذي استثناه النقيب وأصر على بقاءه بالقرب منه. كان النقيب مرتبكاً كأنه ينتظر من محفوظ أن يتكلم. بقي محفوظ صامتاً برهة, ثم تذكر كلمة عقرب التي قال له الأطفال الملائكة بأن يخاطبه بها حين ينفرد به,

أسمه الحركي كما قالوا له. حاول محفوظ أن يسمعه تلك الكلمة مرات عديدة, ولكنه تراجع عن ذلك لأنه رآه متعباً مصفر الوجه فخشي عليه من أن يكون لذلك الاسم وقع خطير عليه؛ فقرر تأجيل ذلك لوقت أخر, وهم بالنهوض والمغادرة, لكن النقيب, وبعد أن نهض محفوظ من الكرسي قرب سريره, أمسك بيده بقوة وقال له:

- محفوظ تريد أن تقول لي شيء أرجوك قله! هذا رجاء وليس أمراً عسكرياً؟

محفوظ:

- سيدي دع كل شيء الآن ونم فأنت متعب.

النقيب:

- قل أرجوك ...

محفوظ نطقها باللغة الإنجليزية بتلعثم وارتباك:

- أنت العقرب... صحيح ؟

النقيب بعد أن تغيرت تعابير وجهه وتبدل كلياً وقال:

- نعم أنا هو العقرب يا سيدي !!!! أنت من اليوم سيدي يا محفوظ!

شعر محفوظ بوقع الكلمة تلك وأثرها الكبير على داوني من خلال رده بخنوع بعد أن نزع عنه قناع الهيبة والسطوة وتحول فجأة, وبلا مقدمات, لحمل وديع.

"ما هي الرسالة أنا حاضر لكل شيء ..."

هكذا أتبع النقيب لمحفوظ وكأنه كان ينتظر من محفوظ أن يسمعه تلك الكلمة, فتعجب محفوظ من موقفه هذا لكنه تذكر رسالة الملائكة الأطفال وطلب منه أن يأخذه في الغد لمقهى الشابندر:

غداً خذني إلى شارع المتنبي فيه مقهى معروف اسمه الشابندر علي أن أكون هناك.

النقيب:

- حاضر سيدي ... وأتبع :

في حاسوبي الشخصي كل الأدلة بخصوص المؤامرة برمتها, مؤامرة تقسيم العراق والحرب الأهلية ومن ضمنها هدم المراقد الثلاثة وسوف أعطيك إياها في الوقت المناسب, هم أبلغوني بذلك لأني من اليوم قد

أصبحت خادمك ومساعدك المطيع. أنا أعرف بالرسائل, وأعرف أنهم يأتون إليك يا سيدي! بالأمس جاءوا إلي في المنام وأخبروني, هم قالوا لي إن محفوظ يعرف بكل شيء, حتى اسمك الحركي يعرفه وسيخابط به ما إن تعود للنقطة من المستشفى!

بعدها خرج محفوظ من الغرفة وهو مذهول من وقع تلك الكلمة عليه, لا بل وأنه يعرف حتى بأمر الرسائل التي كان محفوظ يتلقاها من الأطفال الملائكة. لكن محفوظ التزم بالوصية, ولم يبح لداوني بالأحلام ومصدرها. هكذا تم كل شيء, لم يستفسر داوني من محفوظ عن أي شيء, كان مطيعاً وحسب, لقد تلقى البرهان, اسمه الحركي, الذي كان سراً يخفيه عن الجميع, وعلى ما يبدوا إن الأطفال الملائكة أخبروا داوني بأن محفوظ سيطلب منه أن يأخذه لمقهى الشابندر قبل أن يفعل, تبسم النقيب وهو يسمع طلب محفوظ بزيارة المقهى وخر صاغراً مثل عبد ذليل.

في الصباح الباكر استيقظ محفوظ على صوت النقيب وهو يصفر بالصافرة وهو ما يدل على طلب التجمع الطارئ للفريق. وكان صباح مشمس دافئ بعد يوم ماطر عاصف. هرول محفوظ نحو الساحة الصغيرة بين حجر النقطة كأول الواصلين وتبعه الآخرين حيث اصطفوا كل في مكانه بحسب

الرتب والأماكن المتعارف عليها. وقف محفوظ في المكان المخصص له كمترجم للفريق ليسمع الأوامر المرتقبة.

بعد أن أكتمل عقدهم بنيفل الذي كان أخر الواصلين قال لهم النقيب:

- صباح الخير ... لدينا اليوم واجبين علينا القيام بهما خارج النقطة:

الأول: لقد اتصلت بالمقر بخصوص الطفل الذي التجأ للنقطة بالأمس وطلبوا مني أن أنقله لمقر الرصافة ليحققوا معه في الحادثة؛ لكي يلقى القبض على والده والمشتركين معه في عملية بيع أعضائه, وإن ثبت كلامه سيتخذون الإجراءات التي تحميه.

أما الواجب الثاني: بعد أن نسلم الطفل هناك, سنتوجه برفقة قوة من مقر الرصافة إلى شارع في الرصافة يقال له شارع المتنبي لمرافقة الفنانين أنفسهم الذين رافقناهم إلى نصب الحرية في الباب الشرقي في المرة السابقة كونهم حصلوا على موفقة أخرى لترميم مقهى تاريخي هناك ... مفهوم !

رد الجميع بما فيهم محفوظ:

- علم سيدي.

أقترب النقيب من محفوظ وقال له هامساً في أذنه كي لا يسمعه أحد:

- لا تقل لي سيدي بعد الآن لأنك سيد الكل هنا!

بعد أن وصل النقيب ورفاقه لمقر القوة الدولية في الرصافة كانت مهمتهم الأولى تسليم الطفل هناك ليحققوا معه, بعدها غادروه لوجهتهم الثانية, شارع المتنبي في قلب بغداد القديمة, بعد أن التقى النقيب ورفاقه بالفنانين التشكيليين الثلاثة الذين كانوا ينتظرون هناك, وكانوا هذه المرة يحملون لمحفوظ هدية من النحات والتشكيلي العراقي المغترب (نداء كاظم) ناولوه إياها وكانت عبارة عن حقيبة كبيرة وثقيلة نوعاً ما, لم يفتحها محفوظ ليرى ما بداخلها, واكتفى بوضعها في صندوق العجلة المصفحة قبل أن تتحرك القوة الكبيرة نحو هدفهم, مقهى الشابندر العريق.

وعند وصولهم لمدخل شارع المتنبي الضيق الذي يتعذر معه دخول كل تلك المصفحات إليه, ترجل الجميع وتوجهوا مجتمعين نحو المقهى سيراً على الأقدام. كان الشارع خالي من رواده لأن زيارتهم كانت يوم الأحد وليس يوم الجمعة الذي يكون فيه الشارع مزدحم بالمثقفين والأدباء وغيرهم ممن اعتادوا زيارة الشارع الثقافي من كل مناطق العراق "سابقاً "

لاحظ محفوظ الذي يعرف الشارع عن ظهر قلب- فهو من كان من رواده أيام الجامعة- أن الشارع قد حافظ على هيبته ورونقه رغم الحرب التي

دارت حوله وتركت بعض آثارها الطفيفة على واجهات بناياته القديمة. لم يمض وقت طويل حتى وصل الفريق لباب المقهى, كان كما تركه محفوظ تماماً: بناية كابية لها باب خشبي بفتحتين مطعمة بزجاج ملون يتصدر الواجهة شبه المثلثة التي تضيق كلما أقترب الشارع من البوابة وتتسع مع الابتعاد لتصبح للمقهى واجهتين إضافيتين علاوة على الواجهة الأمامية تاركاً البناية القديمة تطل على واجهات ثلاثة في تكوين عمراني غريب.

تعلو الواجهة المنخفضة يافطة تحمل اسم المقهى التراثي وتأريخ تأسيسه الذي يرجع للعام 1917, ومدون في أسفلها أسم مالكه: الحاج محمد الخشالي.

سقفه القديم المشيد بطريقة العقود البغدادية القديمة بقي على حاله عدا بعض الترميمات التي طرأت عليه يعلوه طابق أخر فوقه كشقة ملحقة لها شرفة مسورة بدرابزين حديدي قديم يعلو واجهة المقهى ويزينها هو الأخر يعود لحقبة قديمة من تاريخ الشارع العتيق.

حين وصولوا للمقهى وجدوا أن بابه مفتوح يستقبل بعض رواده القلائل ذلك اليوم: الطلبة والباحثين عن الكتب والمصادر التي تباع في ذلك الشارع,

أصحاب المكتبات والمطابع, العاملين في ذلك الشارع المختص بالطباعة والكتب ممن تعودوا على شرب الشاي أو الحامض فيه أوقات الاستراحات.

دخل النقيب ومن ثم تبعه محفوظ يرافقه الفنانين التشكيليين الثلاثة من ذلك الباب التراثي فوجدوا رجل مسن قد اعتلى هضبة الثمانين من العمر يجلس على مكتب خشبي كبير يقبع يسار الباب مباشرة.

الرجل ذو وجهه عريض نوراني يفصح لمن يراه عن طيبة وكياسة هو فعلاً يحملها, بشارب أشيب أبيض يزين وجهاً متبسم قليل التغضن رغم سنين عمره الطويلة, يلبس دشداشة عربية لونها أسود يكملها " يلك " لونه بني غامق ويعتمر على رأسه " حدرية " ويمسك في كفه بمسبحة حبابتها سوداء دقيقة نوعاً ما, كان يقلبها بين أصابعه الترفة ببطء ويراقب وجوه الداخلين والخارجين.

لم يتحرك من مكانه حين دخل الفريق وسلموا عليه, بل اكتفى بالترحيب بهم حين تقدم نحوه الفانين الثلاثة وأخبروه بكلمات قليلة شرحوا له فيها أنهم قد أرسلوا من بلاد المهجر في فرنسا من قبل فنان عراقي مغترب هناك يدعى (نداء كاظم) لكي يقوموا بالتحضيرات المطلوبة لترميم المقهى على نفقة الفنان المغترب.

رحب الرجل بالموضوع وأخذ يتحدث بلهجة ودودة:

- أهلاً وسهلاً ...تفضلوا اكعدوا ...

ونادى على عامله الذي سماه (حجي فؤاد) والذي تبين لاحقاً إنه صديق عمره الطويل:

- حجي فؤاد جيب جاي هنا أبويه.

فأجابه عامله (حجي فؤاد) المستتر خلف دكة الموقد في أقصى ركن المقهى الأيمن في الخلف باللهجة البغدادية:

- تأمر حجي صار!

فجاء حجي فؤاد بصينية مليئة بستكانات الشاي العراقية على الفور وكان هو الآخر رجل مسن يقارب عمره عمر الحاج محمد, يسير بصعوبة بين التخوت الكثيرة المتراصة التي تملأ البناية الواسعة والقديمة.

فشرع الحاج محمد الخشالي يقص عليهم تاريخ المقهى الذي قضى عمره الطويل فيه. فقال وهو جالس على كرسي خشبي خلف المكتب بلغة فصيحة تنم عن ثقافة ودراية بينما النقيب ورفاقه الفنانين الثلاثة ومحفوظ كانوا يجلسون على تختين آخرين عن يمينه ويساره يشربون الشاي, ويصغون له

بإمعان وهم يطالعون الجدران المليئة بالصور القديمة لشخصيات سياسية وفنية بارزة على ما يبدو من هيئتهم وهندامهم وعلى مد بصرهم وفي كل مكان:

- أنا مالك المقهى اليوم, والمقهى في الأصل هو مطبعة كان تعود للمرحوم محمود الشابندر, وهو شخصية بغدادية عريقة رحمه الله, وهو والد وزير الخارجية العراقي الأسبق موسى الشابندر في أربعينيات القرن الماضي, أسس هذه المقهى مع بداية القرن العشرين في ذات العام الذي احتل فيه البريطانيين مدينة بغداد على ما أظن. حينها قام البريطانيين, ونتيجة للوشاية بالحاج محمود الشابندر لديهم من قبل بعض التجار بعد شغب أو ثورة ضدهم في بغداد, قاموا بنفيه خارج العراق لفترة من الزمن لكونه تولى مع بعض الشخصيات البغدادية حركة مقاومة مسلحة سرية ضد لاحتلال, ومن بعد ذلك عاد إلى العراق بعد أن قضى مدة نفيه التي قررها البريطانيون حينذاك.
لكنه عندما عاد وجد أن ماكينة المطبعة إنجليزية الصنع قد سرقت والمطبعة كلها قد خربت ودمرت؛ لذلك قام بتغيير نشاطه التجاري لصعوبة إعادة المطبعة وملحقاتها ليحولها لمقهى أدبي ثقافي, أفتتحه عام 1917. وفي عام 1963 آلت ملكية المقهى إلي ...

فجأة حصل شيء غريب عندما ذكر الحاج محمد الخشالي حادثة حصلت للمقهى وهو يروي تاريخها الطويل...

الحادثة هي: في العام 2007 حصل تفجير انتحاري بواسطة سيارة مفخخة بالقرب من المقهى والمطبعة المجاورة له والتي أيضاً تعود ملكيتها للحاج محمد الخشالي وأدى ذلك التفجير لمقتل ثماني وستين شخصاً, ومن بينهم خمسة من أولاد الحاج محمد, كانت صورهم معلقة فوق رأسه تماماً حيث يجلس, كانوا كلهم يشبهونه رحمهم الله.

ما أن روى الحاج محمد تلك الحادثة حتى سمع محفوظ صوت أنين ينبعث من خلف جدران المقهى القريبة منه, تحول بعد برهة لصوت خافت غير مفهوم, حاول محفوظ أن يفسر الكلمات المبهمة التي كانت تتناهى لمسمعه دون جدوى.

ثم على الصوت فسمعه محفوظ بوضوح هذه المرة, كان صوتاً لفتى صغير ينادي عليه باسمه.

كان صاحب ذلك الصوت فتى يافع واضح وقد استشف ذلك محفوظ من خلال البحة التي تغلف صوته كتلك التي تعتري الفتيان مع بداية سن البلوغ.

أنقطع ذلك النداء برهة ثم عاد وتكرر, كان محفوظ على ما يبدو هو الشخص الوحيد - من بين الجميع - الذي يسمع ذلك الصوت والأنين؛ لأنه لاحظ الجميع منشغلين مع الحاج محمد الخشالي ينصتون له عدا النقيب الذي قام من مكانه وخرج ليتفقد القوة التي ترافقه, والمنتشر أفرادها على طول الشارع الضيق.

- محفوظ تعال ... أرجوك أنا أتألم... تعال إلى أنا هنا قرب دكة الموقد في الخلف... أرجوك تعال أريد أن أخبرك بأمر مهم!

نهض محفوظ من فوره وفهم الرسالة: فالأطفال الملائكة أخبروه أنه وحده فقط من سيسمع الصوت والأنين, وهو الوحيد الذي سيرى الشخص الذي يأن ويتكلم معه. لقد فهم اللغز الذي في الرسالة وتمشى باتجاه دكة الموقد المنزوية في الركن البعيد من المقهى الواسع. لما وصل وجدها خالية من الحاج فؤاد عامل المقهى لسبب ما, حتى إنه لم يكن موجوداً في بهو المقهى الخالي من الزبائن تماماً فسمع الصوت واضح هذه المرة:

- محفوظ لا تخف مني أذا رأيتني لأني محترق وأفهمني لأني أتألم... هم أخبروني أن أبوح لك بسري كي أرتاح...

أنا فتى عربي من دولة عربية ومسلم, لقد خدعوني وغرروا بي يا محفوظ, لقد جندوني عبر الإنترنيت, أنا لا أعرفهم فقط كنت أتلقى رسائلٌ يرسلونها إلي, طلبوا مني أن أجاهد في العراق لأن الأمريكان قد غزوه وأنا وافقت, فدعوني للقدوم للجهاد. وفعلاً أتيت, استقبلوني ونقلوني للصحراء ليدربوني هناك على القتال, وبعد فترة قالوا لي إن الأمير يريد محادثتك في المعسكر على انفراد, وهذا الأمير لم أره قبل ذلك اليوم, لأنه كان يتصل بي بواسطة رسائل يرسلها إلي فأخذوني إليه وقال لي بالحرف الواحد:

"هنيئاً لك أيه الفتى فقد وقع عليك الاختيار والباقي سيخبرك به الشيخ "

الشيخ كان أسمه شيخ فقط! لم يكن له اسم ينادونه به, له حماية ملثمون يمنعونا من الاقتراب منه والتحدث إليه, ولم يكن يختلط بنا كثيراً, ولم يكن مسموحاً لنا أن نسأل عن أي شيء, الشيخ وحده من يقرر وعلى الجميع الطاعة والتنفيذ. بعد يوم واحد أرسلني الشيخ مع رجال لا أعرفهم إلى بغداد, جاء أمره فجراً, أيقضوني من النوم وأخبروني بأن الشيخ يطلبك. أعطى الأمر وتحركنا قبل شروق الشمس نحو بغداد, وما أن وصلت أعطوني حقنة في ذراعي وحبة دواء طلبوا مني أن

أتناولها حين كنت راكباً معهم في سيارة حيث كان من المفترض أن يأخذوني لأقاتل الأمريكان في مكان ما من العاصمة. هم أخبروني إن الحقنة التي حقنوني بها والدواء الذي أخذته سيشجعني على القتال ويزيل الخوف عني, ما هي إلا دقيقة مرت حتى...

محفوظ:

- حتى ماذا ؟ يا .... ما اسمك ؟

أسمي نور الدين وأتبع:

- حتى شويت هكذا كما تراني...

وقام الفتى بإخراج نصف جسده من فوق محزمه لمحفوظ من داخل الجدار وكان محترقٌ بالكامل حتى أن وجهه كان بلا ملامح يحمل بيده ورقة مطوية ناولها لمحفوظ الذي خاف من المنظر البشع وتراجع بضع خطوات للخلف وقال له:

- دون ما فيها في كشكولك كي يعرف العالم...

ثم تلاشى خلف الجدران من حيث انبثق وما عاد يسمع أنينه ولا صوته.

دس محفوظ تلك الورقة في جيبه وعاد أدراجه للمكتب ليجلس معهم بعد أن أخفى الورقة فوجد الفنانين قد خرجوا رفقة الحاج محمد وهم يصورون واجهة المقهى من الخارج , وقف محفوظ قرب المكتب برهة يتأمل جدران المقهى المليئة بالصور, ومن ثم وبعد أن أكمل الفنانين المغتربين عملهم, توجه الجميع للمصفحات المصطفة عند أول الشارع ليغادروا المكان بينما كان محفوظ منشغل بالصور, فنبهه الحاج محمد الخشالي أن رفاقه غادروا المكان وعليه أن يلحق بهم. اقترب الحاج فؤاد من محفوظ لحظتها وسأله بمكر:

- هل أخبرك الفتى عن سره؟

محفوظ:

- من ؟

عقب حجي فؤاد وهو يتبسم:

- هذا المسكين يئن بشدة هم قالوا لنا أنه ما أن يأتي محفوظ هنا سيسكت الأنين!

فقال محفوظ متعجباً:

- من هم الذين قالوا لكم؟

النقيب ينادي على محفوظ ويطلب منه الإسراع لأن الفريق قد أبتعد قافلاً باتجاه المصفحات عند أول الشارع فهرول نحوهم وهو يبتسم. فقال له حجي محمد الذي خرج من باب المقهى بينما كان محفوظ يركض ليلحق بالقوة التي أبتعد أفرادها عنه:

- ستأتي هنا مرة أخرى أنا متأكد!

بعد أن عاد أفراد القوة من الواجب الطويل الذي استمر حتى ما بعد ظهر ذلك اليوم, وما أن تناول محفوظ الغداء وعاد إلى غرفته, أخرج كشكوله من الخزانة واستل تلك الورقة المطوية من جيبه التي أعطاها له ذلك الشبح المحترق في المقهى وبدء يدون في كشكوله كل التفاصيل المكتوبة فيها, والتي لم تفرق عن ما قاله له سوى شيء مذهل جعل محفوظ يرمي القلم من يده ويكمل قراءة الرسالة بذهول:

- بعد أن وجدت نفسي محترق كما رأيتني, جاء إلي رجلان بجناحين حملاني إلى شاطئ بحر بعيد فوجدت الأمير والشيخ اللذان جنداني للموت يجلسان تحت مظلة قرب الشاطئ, لكنهما كانا قد حلقا

لحيتيهما ونزعا عن رأسيهما غطاء الوقار, كانا يجلسان على كرسيين متجاورين يشربان الخمرة ثملين, وكان معهما فتاتين شبه عاريتين.
صحت عليهما فلم يسمعاني, كنت محمول من قبل الرجلين الآخرين ذوا الأجنحة فقالا لي هذان هما أميرك وشيخك! لقد خدعاك فهم ليسوا من دين محمد!
فأرجعاني للمقهى حيث وجدتني سجين الجدار أتألم ولم أغادره بعد ذلك مطلقاً, حبيساً في جدرانه, يمزقني الألم وتأكلني الحسرة.

نام بعدها محفوظ كي يتهيأ لواجب المساء على الجسر لكنه قد تذكر هديته من الفنان العراقي المغترب والتي تركها في صندوق المصفحة ولم يعرف ما بداخلها وأجل ذلك حتى يصحوا من نومه لأنه كان متعب ويشعر بالنعاس...

.....

الفصل التاسع

الرسالة السادسة:

"رفاه في كنيسة سيدة النجاة لم ترحل لديها لك سر ستبوح به إليك أستمع إليها لأنها تتعذب "

- عم محفوظ تعال!

- ها أنتم هنا حمداً لله ... أنا أراكم أنا فوق الجسر...

الأطفال كلهم:

- نعم تعال العب معنا يا عم محفوظ!

محفوظ:

- من هذه السيدة التي معكم؟ هل هي أمكم؟

الأطفال:

- كلا هذه رفاه... تعال تعرف عليها إنها طيبة ورقيقة!

محفوظ:

- السلم غير موجود... سأطير كما في المرة السابقة.

الأطفال:

- كلا لا تفعل ابق عندك, سوف تسقط! لأن جناحيك في الكنيسة!

محفوظ:

- أي كنيسة؟

الأطفال:

- سيدة النجاة, تلك التي فجروها وقتلوا فيها الأبرياء, رفاه هناك... هذه السيدة هناك...

محفوظ:

- ما بها رفاه أراها حزينة ولا تتكلم... لماذا؟

الأطفال:

- لدينا لك رسالة جديدة ّتخص رفاه... ساعدها! لكن بعد أن يساعدك أبو الغيرة عثمان... فعثمان يسكن في دجلة, جنته في قعر النهر...

محفوظ:

- من هو أبو الغيرة عثمان و ما هي الرسالة؟

الأطفال:

- رفاه في كنيسة سيدة النجاة لم ترحل لديها لك سر ستبوح به إليك أستمع لها لأنها تتعذب! وستعرف من هو عثمان عندما تتحسس قدميك قاع النهر!

محفوظ:

- من سيأخذني إليها؟

الأطفال:

- صديقك لن يساعدك بعد اليوم, وافتح هديتك وستفهم, بن رباح سيرشدك, أتصل به وسوف يساعدك مباشرة بعد أن تقرأ الرسالة التي مع الهدية!

محفوظ:

- أين أنتم؟ أنا لا أراكم... رفاه هل لا زلت هناك معكم... أين أنتم؟

أه ... أه ... أه ...

عندها استيقظ محفوظ يتلفت حوله, فوجد أنه قد تأخر في نومه حتى وقت الغروب, فخرج على الفور من غرفته وكان ذلك المساء قارص البرودة, النقطة قد أغلقت وجميع أفراد القوة في المطعم يتبادلون الأحاديث

ويضحكون وكان صوت ماديسون يلعلع في المكان وهو يؤدي مشهد من مشاهده الساخرة وهم يضحكون بصخب...

دخل محفوظ عليهم للمطعم فصاح به ماديسون:

- هي محفوظ تعال يا مترجمنا الهمام! تعال أنظم إلينا... تعال راجي لم يطهي لنا طعام العشاء...

تبسم محفوظ وتمشى جهة النقيب وجلس بقربه في المطعم بينما كان راجي يتذمر من ماديسون الذي كان يتهكم عليه لأنه قد غط في النوم وتأخر عن إعداد الطعام.

قال محفوظ:

- ليس راجي وحده من تأخر, فقد غلبني النوم أنا كذلك وأنا أعتذر للجميع...

النقيب:

- أنا من أمرت بأن لا يوقظك أحد من النوم لأنك تتعب كثيراً بلا بديل وقلت لهم دعوه ينام, وفي حال احتجنا إليه سنوقظه من النوم وقد مر

الوقت ولم يزر النقطة أحد يحتاج لترجمة كلامه لنا طيلة الوقت حتى أغلقنا النقطة...

عريف براد لمحفوظ:

- بالحق! وجدت حقيبة ثقيلة في صندوق المصفحة, النقيب أخبرني أنها هدية لك من الفنانين العراقيين الذين رافقتهم اليوم, إنها في غرفتي مر علي لتأخذها بعد العشاء.
- وأتبع مازحاً:
- هل دسوا لك في الحقيبة قنبلة؟ لا أنا أمزح فقط لا تخف يا محفوظ فتشناها وتأكدنا منها, إنها عمل فني ما, فهم فنانين ونحاتين! أليس كذلك؟

هز رأسه محفوظ دلالة الإيجاب وراح ماديسون الهزلي يمثل دور أخراً من أدواره الكوميدية للفريق, بينما كانوا يضحكون بصخب فيما عدا النقيب الذي كان يجلس صامتاً ويدخن السجائر, لدق تبدلت أحوال النقيب بعد أن باح لمحفوظ بالسر حتى أنه قد قلت شهيته للأكل, وما عاد يمزح ويضحك كالعادة, وهذا ما لاحظه عليه الجميع.

بعد أن تناول الجميع طعام العشاء انصرفوا لغرفهم وتركوا الطباخ الهندي راجي يلملم أطباق الطعام وعلب المشروبات من على الطاولات ويكمل غسل الأواني قبل أن يخلد للنوم. فعليه أن يصحو قبل الجميع ليعد طعام الإفطار وهذا ديدنه والروتين اليومي المعتاد منذ رحل عنه رفيقه كومار.

محفوظ في غرفته وقد أخرج الكشكول من الخزانة ودون فيه الرسالة الجديدة وكل التفاصيل.

كانت الرسالة الأخيرة التي تلقاها من الأطفال الملائكة هي السادسة من بين الأربعة عشرة رسالة التي أخبروه عنها, والتي سوف يتلقاها منهم بالتتابع كما أخبروه. وهذا يعني أنه تبقت لديه ثماني رسائل وينجز مهمته بالتمام, وهو الهاجس الذي أخذ يسيطر عليه. نعم فهو في منتصف الطريق تقريباً, وما أنجزه محفوظ جعله يكتسب الثقة في نفسه لدرجة أنه أخذ يستمتع بتنفيذ المهام التي يتلقاها.

دون كل شيء في كشكوله بخصوص الرسالة وبعد أن أنهى التدوين سمع طرقاً خفيفاً على باب غرفته, كان عريف براد الذي جلب له الحقيبة الثقيلة والتي نسي محفوظ أن يمر ليأخذها. الهدية التي بداخلها رسالة مهمة, والتي

حين سيقرأها سيفهم عند ذلك شيء مهم يسهل عليه حل لغز الرسالة والمهمة القادمة.

أخذ الحقيبة الثقيلة من براد وشكره على تجشم عناء حملها لوحده, دخل ليفتحها ليرى ما فيها, فهو متشوق لذلك.

وبعد أن فتح الحقيبة وجد الهدية, وهي عبارة عن علبة كارتونية كبيرة مستطيلة الشكل مغلفة بورق تغليف الهدايا الأنيق حجمها كبير مربوطة بشريط أحمر أنيق معلق في أعلاها ورقة صغيرة كتب عليها:

" إلى العزيز محفوظ "

شرع محفوظ بنزع الشريط وإزالة الغلاف عنها حتى لم يبقى سوى غطاء العلبة الورقي, وكانت ثقيلة, لما فتحها عرف سبب ثقلها لأنها كانت تحوي قطعة برونزية على شكل مستطيل نقش عليها حروف غريبة, أما الرسالة المكتوبة والمطوية, لم ينتبه لها محفوظ حيث سقطت في قعر العلبة لحظة أخرج اللوح البرونزي منها.

القطعة مرسلة من الفنان العراقي المغترب (نداء كاظم) والذي تبنى إعادة ترميم وإصلاح العديد من معالم بغداد الفنية من النصب والتماثيل والبنايات التراثية دمرت أو تضررت نتيجة الحرب الأهلية.

راح محفوظ يتأمل القطعة ليفهم لغزها الذي أخبره عنه الأطفال الملائكة في المنام لكنه فشل مراراً في تفسيرها؛ فالقطعة لا توحي بشيء قد يصل من خلاله محفوظ لفك اللغز الذي تحمله. إنها مجرد قطعة من البرونز منقوش عليها حروف بلغة لا يفهمها.

وضعها مسنداً إيها على جدار الغرفة قبالته وراح يطالعها وهو مستلقي على سريره في صمت عله يسبر غورها و يفك طلسمها ويصل لنتيجة ترضيه, بينما كان يتقلب ذات اليمين وذات الشمال على السرير, وبعد أن مرت ساعات طوال وهو على ذلك الحال بعد أن جفاه النوم, فكر في الاتصال بالجزائري بن رباح ليساعده, لكنه تذكر طلب الأطفال الملائكة منه بعدم الاتصال بابن رباح إلا بعد قراءة الرسالة التي ستصله مع الهدية. هكذا تراتبت الأحداث بالتعاقب لسبب ما.

فتذكر محفوظ حينذاك الرسالة من الفنان (نداء كاظم) التي غابت عنه, والتي قد تحمل له معها الحل لحيرته تلك.

عاد للعلبة فوجدها, فتحها وقرأها بتأني:

عزيزي محفوظ تحياتي لك ...

أهديك هذه القطعة البرونزية, بعد أن حدثني عنك طلابي الذين أرسلتهم للعراق ليقوموا بإصلاح النصب والتماثيل المهدمة في بغداد وأهمها نصب الحرية الذي دمر بالكامل وسرقت جميع قطعه البرونزية الأربعة عشر قطعة.

أنا متأكد أنك لن تفهم معنى هذه القطعة التي أرسلتها إليك إلا بعد أن تقرأ رسالتي هذه.

يا محفوظ إن هذه القطعة هي واحدة من أهم قطع نصب الحرية الأربعة عشر, والكتابة المنقوشة عليها كتبت باللغة السومرية, إنها لوح سومري مكانها عند القاعدة اليمنى للنصب, وهي جوهر النصب الذي بناه وصممه أستاذي الراحل جواد سليم بعد أن ترك لغزاً ورسالة للعراقيين في النصب ورحل عن الدنيا ولم يفصح عن مقصده الحقيقي من فكرة تصميم النصب, أنا في وقتها كنت أحد طلابه في كلية الفنون الجميلة في بغداد, وفي عام 1961 جاءته فكرة النصب فترك كل شيء وسخر نفسه, وبكل ما يملك من طاقة ووقت في سبيل إنجازه, وأنكفئ على صب تلك القطع البرونزية للنصب متنقلاً ما بين بغداد وفلورنسا بإيطاليا حتى أن الإجهاد وصل به حد خطير من نوبات قلبية كثيرة نقل على أثرها مرات عديدة للمستشفى بينما كان ينحت القوالب أو يصب البرونز في معمل الصهر في وزارة الثقافة

ولكنه كان يعود مباشرة من المستشفى للعمل متجاهلاً تحذيرات الأطباء ونصائحهم الملحة له بترك العمل المجهد في النصب. أنا كنت حاضراً يا محفوظ وشاهد على ذلك.

بعد أن ثبتت القطعة الأخيرة من النصب إلى مكانها, وكنت وقتها هناك معه, وقف يتأملها بغبطة وسرور رغم إنه كان يلهث وقتها متأثراً بأخر نوبة قلبية ألمت به. نقل بعد ذلك للمستشفى وفارق على أثرها الحياة رحمه الله. القطعة الأخيرة التي ثبتت يومها وفرح بها جواد هي هذا اللوح السومري الذي بين يديك الآن يا محفوظ!

يا ولدي لقد دمروا النصب ولم تكن حادثة سرقة من أجل البرونز أو بيع قطعه للأجانب, بل كانت جريمة متعمدة مع سبق الإصرار والتعمد لطمس معلم الحرية والوحدة الوطنية ليسهل عليهم من بعد ذلك تقسيم العراق وقد فعلوا والعالم كله يعرف ذلك إلا العراقيين الغافلين! فهم جعلوا من نهر دجلة الذي هو مصدر قوة وحدة العراقيين في الماضي وتكاتفهم, جعلوا منه اليوم حداً فاصلاً يفرقهم!

أنت من وقع عليك الاختيار كي تكمل ما أنجزه جواد سليم في بلدنا الذي سرقت منه حضارة عمرها سبعة الآلاف عام بعد أن تآمر عليه الأشرار

وقسموه وقتلوا أهله. لا تخشى يا ولدي من أي شيء! ومن تسميهم أنت الأطفال الملائكة أستمع إليهم وسيرشدونك إلى الطريق الصحيح.

وداعاً يا ولدي مع خالص أمنياتي لك بالتوفيق...

المخلص لك نداء كاظم

بعد أن قرأ محفوظ الرسالة عرف أن ملائكته الأطفال هم من ربطوا بينه وبين الفنان (نداء كاظم) المسن المغترب عن البلد لينجز المهمة. أخرج كشكوله من الدرج وأضاف الهدية والرسالة في صفحات الكشكول مع كل التفاصيل وأعاده إلى الدرج. لكنه فهم كل شيء إلا الجزء الثاني من الرسالة التي ظلت لغزاً محيراً بالنسبة له والتي هي جملة الأطفال الأخيرة:

عثمان يسكن في دجلة, جنته في قعر النهر...

.....

الفصل العاشر

الرسالة السابعة:

"عثمان في دجلة يسكن, جنته في قعر النهر"

بعدها شرع محفوظ بالاتصال بالحارس (بن رباح) من خلال إرسال الشفرة الأولى فجاءه رد بن رباح سريعاً.

وبعد أن أكمل الاثنان تبادل شفرات الأمان بينهما صعق محفوظ بالرسالة التي أرسلها له بن رباح:

- محفوظ اعلم إن صاحبك قد قتل قبل خمس دقائق من الآن, لقد انتحر يا محفوظ... إنه غارق بدمه في غرفته, لقد فضل الموت لكي يحميك قبل أن يحققون معه ويخدروه... لا تخرج من غرفتك إطلاقا هل هذا مفهوم؟ ابقي في الداخل ستكون بأمان... ولا تقاطعني !

لكد كشف رأس الأفعى أن عميله العقرب قد تم اختراقه وقد باح بالسر لاحدهم, لكنهم يجهلون لمن باح بسرهم لأنه انتحر بمسدسه الشخصي لدى دخولهم عليه قبل أن يخدروه.

قوه جاءت بأمر من رأس الأفعى هم الآن في غرفة النقيب يرافقهم ملازم تشارلز, وهم يفتشون في غرفته عن ذاكرة كومبيوتر إضافية (هارد أضافي) قام النقيب بنسخ كل الأدلة التي تدينهم عليها وهي موجودة في غرفتك الآن أنها تحت سريرك!

بعد نصف ساعة من الآن ستسمع صفارة التجمع, أخرج وأنظم للباقين في الصف, ستجد أن النقطة مليئة بهم, وهم من قوة العقرب. كلهم

ملثمون ويلبسون ملابس سوداء عليها رسم العقرب, بما فيهم الرجل الذي سيعلن لكم خبر انتحار داوني وسيقول لكم أنه خائن ويقول أن التحقيق سوف يشملكم كلكم.

أنهض من فورك وأرزم حاجياتك الضرورية في كيس بلاستيكي بما في ذلك الحاسوب الذي تستعمله الآن وأي أوراق تحتفظ بها وأهمها ذلك الهارد الإضافي الذي ستجده تحت السرير, وهو الأهم, وأجعل الكيس تحت ملابسك الداخلية في ظهرك وكن قريباً من درابزين الجسر, وما أن يبدأ ذلك الرجل بالكلام معكم أرمي بنفسك من فوق الجسر إلى النهر, وبسرعة, لأنهم سيخدرون الجميع وستعترف بكل شيء تحت تأثير المخدر. الآن رد بإمكانك الرد للاستفسار ولكن استعجل لأن الوقت محدود!

محفوظ مصدوم شلت أصابعه ودارت بخلده الكثير من الأشياء التي أراد أن يستفسر عنها من بن رباح لكنه أول ما فكر في أن يخبره بعدم قدرته على السباحة وأنه حتماً سيغرق, فكتب له على الفور وكانت أغلب الكلمات خاطئة إملائياً وغير مفهومة أثر الخوف والرعب الذي مر به محفوظ في تلك اللحظة:

- لا أستطيع السباحة سأموت...

رد عليه بن رباح:

- ستموت في كلا الحالتين! صدقني لأنهم بعد أن يحققوا معكم جميعاً سيقتلونكم وسيلصقون الحادث بهجوم إرهابي, لا تخف سأكون أنا بانتظارك عند الكورنيش, قم هيا لا وقت لديك.

انتهى

نهض محفوظ و نزل تحت السرير فوجد الهارد الذي أخبره عنه بن رباح كما ووجد كيساً بلاستيكياً قد أعده له النقيب كأنه كان يعلم بما ستؤول إليه الأمور, فجمع فيه كل أوراقه وأهمها الكشكول بعد أن أخرجه من الخزانة ووضع حاسوبه الشخصي فيه.

وفي تلك الأثناء سمع صوت صفارة التجمع وقد أطلقها أحدهم ثلاث مرات متعاقبة كدليل على الإنذار من النوع الثالث.

لبس محفوظ ملابسه ودس الكيس في ظهره تحت ملابسه كما وجهه بذلك بن رباح وخرج من الغرفة فوجد أن النقطة مليئة بأفراد قوة العقرب الملثمون كما أخبره بن رباح بالضبط وركض نحو مكانه بين أفراد النقطة الذين كانوا قد سبقوه للتجمع فتذكر أمر بن رباح بأن يكون قريباً من درابزين الجسر, فتراجع عدة خطوات للخف أصبح بعدها ملاصقاً للدرابزين.

وما أن أدار وجهه للأمام وجد ذلك الرجل الذي يقود قوة العقرب واقف هناك برفقة الملازم تشارلز, ولم يكن النقيب حاضراً لحظتها.

كان ظهر محفوظ ملاصق تماماً لدرابزين الجسر الحديدي ويلامس بزته العسكرية.

شرع ذلك الرجل بالكلام عن اكتشافهم لخيانة النقيب في جريمة خيانة عظمى وأن الكل سيخضع للتحقيق ورما بملازم تشارلز الواقف بقربه تجاه بقية الفريق بعد أن ضربه على رأسه بكفه فهوى تشارلز نحو الأرض قرب أقدام الفريق وظل جالساً على الأرض بعد أن عجز عن النهوض أثر الضربة القوية التي تلقاها على رأسه.

محفوظ أستجمع كل قواه ليرمي بنفسه من أعلى الجسر كما وجهه بذلك بن رباح بينما توجه بعض أفراد قوة العقرب واقتربوا من أفراد القوة ليطوقوهم تمهيداً لاعتقالهم جميعاً.

وما أن سمع محفوظ أمر ذلك الرجل لجنوده بتقييد الجميع حتى استدار بهدوء للخلف وركز أحدى رجليه على الدرابزين مستغلاً عتمة المكان وما هي إلا لحظة عين حتى رمى بنفسه إلى الماء من أعلى الجسر وغطس عميقاً في أسوء كابوس يعيشه رجل لا يعرف السباحة ليجد نفسه فجأة في

عباب نهر نهر جامح كنهر دجلة الهادر المرعب في ذلك الليل البهيم حتى أنه قد هبط لقاع النهر العميق وتحسسه بقدميه ولم يعرف ما الذي يفعله حينها؟ كيف يصعد للأعلى؟ هو لا يعرف السباحة مطلقاً, ظل يراوح مكانه في القعر المظلم الموحل ويتعثر.

فجأة أحس بيد أحدهم تمسك به من خاصرته وسط عتمة القاع وترفعه للأعلى بعد أن كاد يلفظ أخر أنفاسه ويموت.

فأخرجه صاحب اليد وسط النهر بعيداً عن النقطة وأوصله للجرف بالقرب من مرسى الزوارق في الأعظمية, لم يخرج من الماء منه سوى وجهه وأعلى صدره ولم يكلم محفوظ.

كان شاباً يافعاً لم يختط شاربه بعد لاحظ محفوظ ذلك في تلك العتمة الخانقة وذاك المخاض الرهيب. وبعد أن أوصل محفوظ للجرف غطس عائداً لقاع النهر وترك محفوظ يرتجف من البرد عند الجرف الموحل.

ما هي سوى لحظات وجاء بن رباح من الأعلى فسحب محفوظ من يده وكان محفوظ قد غاب عن الوعي تقريباً من شدة الخوف والبرد.

ما أن أوصله للسيارة التي ركنها بالقرب من الكورنيش ووضعه في مقعدها الخلفي حتى غاب محفوظ عن وعيه تماماً ولم يستيقظ إلا وهو في غرفة فاخرة لا يعرف أين موقعها ومن الذي نقله إليها حتى.

فتح محفوظ عينيه بصعوبة فوجد بن رباح يجلس قرب رأسه. سأله عن حاله وإن كان يشعر بأي عارض, فرد عليه محفوظ بصوت خافت مطمئناً إياه عن صحته.

- أنا بخير... كم الساعة الآن؟

- إنها العاشرة صباحاً!

كان محفوظ متشوقاً لأن يعرف تفاصيل ما حدث بالأمس؛ فهو لم يكن متأكداً من حقيقة ما جرى هناك على الجسر. هل كان يحلم؟ هكذا وجه سؤاله الأول لبن رباح الذي تجاهل السؤال ونهض من مكانه ليجلب الفطور من النادل الذي كان يطرق الباب. على ما يبدو إن بن رباح هو من بدل ملابس محفوظ المبتلة وهو من سهر معه طوال الليل. استشف ذلك محفوظ من خلال إقفال باب الحجرة على محفوظ حينما فتح الباب للنادل وطلب منه عدم إحداث صوت كي لا يعرف أحد من العاملين بوجوده في المكان. حتى إن بن رباح

كان قد جلب فراشاً وفرشه على الأرض قرب سرير محفوظ ليراقبه طوال الليل.

بن رباح يطمئن محفوظ الذي بدا قلقاً وخائفاً:

- حكاية طويلة لكن كل ما أستطيع قوله لك الآن أنك هنا بأمان والأدلة كذلك بأمان, أنت في الجناح الخاص بي في فندقي الذي أملكه (فلسطين مرديان) نم الآن وأرتاح فعلي أن أخرج للعمل, ولاحقاً سأقص عليك كل شيء حين أنقلك للمكان الأمن لأنهم يبحثون عنك في كل مكان والفندق غير آمن لتختبئ فيه.

خرج بن رباح من عنده وأخبره قبل ذلك إنه سيمر عليه في وقت لاحق لينقله للمكان الأمن الذي أخبره عنه. تناول محفوظ طعام الأقطار بشهية عارمة. كان جائعاً جداً, وبعد ذلك سلم جفنيه لسلطان النوم وغط في نوم عميق ...

- عم محفوظ تعال هنا...

محفوظ:

- لا أستطيع فأنا بعيد عنكم, أنا لست على الجسر الآن لكني أراكم... من هذا الشاب الذي معكم؟ من يكون؟

الأطفال:

- ألا تعرفه؟ هذا الذي أنقذك من الغرق بالأمس! أخبرناك عنه من قبل ألا تذكر؟ يوم قلنا لك بعد أن يساعدك أبو الغيرة عثمان.

محفوظ:

- آه .. نعم تذكرت, أنه هو لولاه لغرقت لأني لا أعرف السباحة.

الأطفال :

- يدعى عثمان .. لم ينقذك أنت فحسب! أنقذ الكثيرين من قبلك حين سقطوا من فوق الجسر... زوار الأمام الكاظم...واليوم هو في النهر يسكن.

محفوظ:

- هل يسمعني؟ قولوا له أن محفوظ ممتن لك لولاه لمت...

الأطفال:

عثمان يسمعك وقلبه معك في مهمتك الجليلة. أقرأ رسالة العقرب التي في الكيس ستحل لك لغز الكنيسة وكل الألغاز.

نعم الكنيسة ... رفاه ...

استيقظ محفوظ من النوم و وجد نفسه بمكان غير المكان الذي أخذه إليه بن رباح الليلة الماضية. مستلقي على سرير في غرفة نوم في منزل هادئ, وكانت الشمس مشرقة يكاد ضوئها يعمي عينيه المحمرتين. رفع رأسه عن الوسادة فرأى شابة جميلة محجبة ترتدي جبة إسلامية جالسة على كرسي بالقرب من سريره. وبعد أن سلمت عليه حين استفاق, راحت تعرفه بنفسها:

- أنا عراقية, لا تخف, اسمي زينب موظفة في شركة يملكها أستاذ جميل بن رباح وأنت في بيتي الآن نقلناك إلى هنا الليلة الماضية لتكون بعيداً عن العيون لأن كل رجال القوة الدولية يبحثون عنك وأنت هنا بمأمن وستختبئ هنا للفترة القادمة كما أخبرني أستاذ جميل.

محفوظ:

- أين أغراضي؟ أين الكيس؟

زينب:

- لا تقلق أنه هنا تحت السرير " وناولته إياه "

شرع محفوظ بتفقد الكشكول والهارد الإضافي ليتأكد أنهما لم يبتلا بالماء فلما وجد أن كل شيء على ما يرام سأل زينب:

- كيف سأكون بأمان هنا وأين بن رباح؟

زينب:

- أخبرتك أن لا تقلق, لن يعرف أحد بمكانك سواي أنا وأستاذ جميل, أنت في بيتي في منطقة الكرادة وأنا أسكن وحدي في البيت وسأتدبر الأمر, لا تقلق لن يحس أحد بوجودك ما دام أنك لن تخرج من البيت.

وأتبعت:

أنا أسفه فأنا مضطرة لأن أتركك لوحدك الآن. علي أن أخرج وأتوجه لعمل كلفني به أستاذ جميل وهو وسيأتي لزيارتك لاحقاً كما قال لي حين جلبك إلى هنا, ابق في الداخل ولا تخرج لقد جهزت لك طعام الإفطار أنه في المطبخ وكل شيء ستجده عندك. لكن لو كان معك هاتف محمول لا تستخدمه ولا تتصل بأحد وهذه تعليمات أستاذ جميل لأنهم يبحثون عنك وسيتعقبون أي اتصال تجريه...

محفوظ:

- لا أملك هاتفاً أصلاً فلست بحاجة إليه لأني ليس عندي من أتصل به, فأنا يا زينب لا أسكن في العراق. ولا أقارب لدي في أي مكان في هذه الدنيا...

زينب وهي تبتسم:

- نعم أعرف كل شيء عنك يا أستاذ محفوظ...

بعد أن خرجت زينب نهض محفوظ وتناول الكيس البلاستيكي وأخرج رسالة داوني التي وجدها مع الهارد في الكيس, ففتحها وشرع بقراءتها والتي كانت هي الحل لجميع الطلاسم والألغاز. وبعد أن أكمل قراءتها تبسم وردد مع نفسه بفرح عامر:

- الحمد لله لقد انكشفت المؤامرة كلها...

ربط الهارد الإضافي بحاسوبه وبدء يطلع على المعلومات والوثائق المحملة عليه تباعاً, وكانت عبارة عن وثائق وتسجيلات فيديو كثيرة تدين رأس الأفعى وأعوانه في تقسيم البلد وإشعال الحرب الأهلية من خلال تفجير المراقد وغيرها الكثير.

ثم أخذ الكشكول ووضعه على المكتب الصغير في الغرفة بالقرب من السرير وجلس هناك على الكرسي يدون كل شيء بخصوص أحداث الأمس والرسالة التي كتبها له النقيب والوثائق التي على الهارد.

ولزحمة الأحداث التي لديه؛ قضى محفوظ وقتاً طويلاً وهو جالس يدون في كشكوله كل شيء. بعدها شعر بدوار ووهن في بدنه فعاد لسريره ونام.

استيقظ محفوظ فزعاً على وقع صوت باب البيت الخارجي وقد فتحه أحد ما, فنهض من مكانه خائفاً واختلس النظر من خلف ستارة شباك الغرفة المطل على الباب الخارجي فشاهد زينب وهي تدخل البيت, بقي يراقبها وهي تغلق وراءها الباب وقد توجهت عبر الممر إلى مدخل البيت.

دخلت عليه وبعد أن سلمت عليه قالت له:

- أشو ما متريك؟ الأكل بعده على حالة؟

محفوظ:

- جنت تعبان ونمت من طلعتي ليهسه...

زينب:

- عندي أخبار الك... بلغني بيها أستاذ جميل...

أخبرته زينب إن رفاقه في النقطة قد قتلوا جميعاً بعد أن هرب من النقطة مباشرة, وقد عوضوهم بجنود غيرهم وأعلنوا موت محفوظ مع القوة, ذاعوا بياناً عن تعرض النقطة على الجسر لهجوم إرهابي قتل خلاله الفريق مع المترجم والطباخ الهندي...

- ها وعندي الك شي!

فناولته بطاقة شخصية من النوع ش وأخرى من نوع س كلاهما تحملان صورته لكن الأسماء والبيانات المثبتة فيها غير حقيقة " وقالت له:

- هاي دزهن استاذ جميل وكال خل راح يحتاجهن ودزلك جنطة ثكيلة وياهن ما أعرف شبيهه!

محفوظ:

- زينب لازم أزور كنيسة أسمها " سيدة النجاة " ولا تسأليني ليش بس ساعديني؟

زينب بعد أن تبسمت ثم أتبعت الابتسامة بضحكة عالية بصوتها الجميل:

ياه سيدة النجاة! هي مو بصفك! كبال بيتي عدل. تعال أشوفك إيها من شباك المطبخ... محفوظ أنت مسيحي؟

محفوظ:

- لا أني مسلم بس عندي عمل مهم في الكنيسة...

ونهض من مكانه وتمشى للمطبخ وكان يترنح من الدوار الشديد الذي كان يشعر به, حتى إنه كاد أن يسقط في الطريق إلى هناك, فقامت زينب بإسناده حتى وصل للشباك. شاهد الصليب العالي المحاط بالقوس الضخم على واجهة الكنيسة التي كانت قريبة جداً من بيت زينب ولا تفصلها عنه سوى عشرون متراً تقريباً...

الشمس كانت قد غابت وبدأ الظلام يهيمن على المشهد وكان الجو شديد البرودة فقالت له زينب:

- ما عليك أني أدبرها بس على شرط: تاكل لأنك مريض. عندي صديقة اسمها " ماتلدا " هي ابنة الشماس وهي تسكن بالكنيسة وراح تخليك تدخل للكنيسة بدون مشاكل.

محفوظ:

- عفية عليج!

زينب:

- بس تاكل كل الأكل الي راح أجيبه الك ها! هذا شرط!

هز محفوظ رأسه مبتسماً وتناول الحقيبة وفتحها فوجد اللوح البرونزي السومري موضوع مع الملابس والحاجيات التي أرسلها له بن رباح مع زينب, ولم يعد محفوظ يستغرب المعجزات؛ لم يسأل نفسه عن كيفية وصول اللوح السومري الثقيل لبن رباح رغم أنه قد تركه في غرفته في النقطة على الجسر عندما رمى بنفسه في نهر دجلة وهرب. لم يشغل بال محفوظ في تلك اللحظة أي أمر أخر سوى الكنيسة ومقابلة تلك الفتاة التي تدعى رفاه.

جلس محفوظ يتناول الطعام بينما كانت زينب في حجرتها تتكلم مع صديقتها " ماتلدا " من خلال الهاتف. كان بال محفوظ مع الاتصال المهم الذي كانت تجريه زينب, عليه أن يدخل الكنيسة بأي وسلة كانت, ومهما كانت المخاطر.

بعد أن أكمل محفوظ طعامه في المطبخ دخلت عليه زينب وبشائر الخير بادية على وجهها الأبيض المستدير, أخبرته أن ماتيلدا تنتظرهم بعد ساعة بباب الكنيسة, لقد وافقت على إدخال محفوظ إليها.

تقبل محفوظ الخبر بفرح غامر وشرع يجهز نفسه للخروج نحو الكنيسة القريبة. فبعد أن شرب محفوظ الشاي, دخل للحمام واستحم, بعدها خرج

وارتدى بذلة رسمية أخرجها من تلك الحقيبة التي جلبتها له زينب وجلس في الصالة ينتظر الموعد بلهفة. كانت زينب واقفة قرب الباب الخارجي تراقب الشارع لتمهد له الأمور ليخرج من بيتها, وبعد أن تأكدت زينب خلو الشارع من العيون لكونها لا تريد أن يرى أحد من الجيران وجود محفوظ عندها في البيت حماية له كما أوصاها بن رباح بذلك.

بعد برهة عادت زينب مسرعة وطلبت من محفوظ الخروج وانتظارها قرب باب الكنيسة لتتبعه لاحقاً بعد أن تقفل باب الدار.

خرج محفوظ متلفتاً باتجاه الكنيسة بخطوات سريعة وتوجه نحو الباب الرئيسية الكبيرة ثم التحقت به زينب فوجدا ماتلدا تنتظرهما عند الباب. وبعد سلام مقتضب, قامت بإدخالهما على عجل كما طلبت منها زينب التي اختلقت لصديقتها قصة عن محفوظ بأنه قريب لها جاء من بلاد المهجر ليكتب بحثاً عن الكنيسة التاريخية.

دخل محفوظ لداخل قاعة الكنيسة التي تقام فيها القداسات والصلاة وترك زينب وماتلدا تتحدثان في الخارج قرب الباب.

ما أن دخل محفوظ الكنيسة حتى شعر بأن يد خفية تجره من ذراعه وتأخذه للخلف نحو مكان كتب عليه المذبح, وقف أمامه خارج بابه الخشبية

المؤصدة فسمع أصوات مبهمة: صراخ أطفال ونساء وأنين كانت تنبعث من داخل المذبح. ثم سمع صوت إطلاق نار وتفجيرات مدوية وراح يرى, وهو واقف أمام الباب بالضبط, دخول مسلحين كان يراهم لكنهم لم يكونوا يروه, مثل أشباح فضية تجاوزوه وفتحوا الباب ودخلوا للمذبح. وقوفوا بالباب وقاموا بإطلاق النار من أسلحة كانوا يحملونها على أطفال ونسوة خائفين كانوا يختبئون هناك, بعدها غادروا وسكن صراخ النساء والأطفال المنبعث من المذبح فتمشى محفوظ بضع خطوات باتجاه الباب المفتوح أمامه, كأنه كان يشم رائحة البارود فعلاً!

لما دخل وجد دماءً كثيرة تملئ المكان وكانت لاتزال ترشح من تحت الأرض والجدران بطريقة ما, لكنه لم يجد أي أحد في المكان, حين أمعن النظر شاهد سيدة تمسك بتمثال العذراء وتقف خلفه, كانت تبكي بصمت, على جسدها الأهيف طعنات كثيرة, وشاهد سكين لا تزال مغروسة في قلبها, كان الدم يرشح من جرح السكين بغزارة على الأرض وحين وقع بصرها على محفوظ قالت له بصوت خافت:

- لقد رأيت يا محفوظ المجزرة! لم نفعل لهم شيء, كنا نصلي فقط, وكان أبونا القس عدي يدعو الرب للعراق أن يعمه السلام لكنهم قتلوه. أنا اسمي رفاه لقد قالوا لي أنك ستأتي وسوف تريحني من آلامي.

محفوظ:

- كيف أزيل ألمك وكل تلك الطعنات من على جسدك وصدرك؟ والسكين هذه المغروسة في قلبك؟

رفاه:

- لا تصدق كذبتهم عن قتلي, وتبين الحقيقة؟ وفي كشكولك أكتب عن أننا كنا نصلي منذ ولد المسيح على هذه الأرض بأن يعم السلام وأن تتوقف الدماء وسوف تريحني وتريح كل تلك الأرواح... أما أنا فقد ارتحت الآن, حماك الله يا أخي... حماك الله...

حينها سقطت السكين من صدر رفاه, وتوقف النزيف من جسدها, ليس جسدها فحسب, بل حتى إن الدماء التي كانت تملئ المذبح هي الأخرى تقهقرت وتلاشت خلف شاخص السيد المسيح المعلق على صليب خشبي وسط المذبح. بعدها تعالت دقات الأجراس معلنة الصلاة, وطرن بضع حمائم بيضاء, ورحن يرفرفن بأجنحتهن في قاعة الكنيسة المزينة بالنقوش الفسيفسائية الملونة, ورحن يحمن بين الأعمدة الرخامية الضخمة لهن رفيف هادئ, وقد حططن بعد ذلك على رؤوس التماثيل الكثيرة التي نصبت هنا وهناك, صوت رفرفة أجنحتها سحر محفوظ وجعله ساكن بلا حراك وسط

القاعة فتبدلت رائحة الدم والبارود بروائح البخور العطرة وتردد صوت تراتيل حنونة تداعب النفوس يشدوها أطفال صغار.

خرج محفوظ من هناك ولم ينطق بكلمة مع الفتاتين اللتين كانتا بانتظاره في الخارج. بعدها ودعت زينب صديقتها ماتلدا وخرجت رفقة محفوظ من باب الكنيسة وعادا للبيت تحت جنح الظلام.

ما إن عاد محفوظ لغرفته طلب من زينب ربط حاسوبه على الإنترنيت إن كان متوفراً لديها فأخبرته أنه موجود عندها, فتناولت منه الحاسوب وقامت بربطه على الشبكة. فهمت زينب إن محفوظ يرغب في أن يبقى لوحده فخرجت وتركته وحيداً يبحث في الإنترنيت عن تاريخ هذه الكنيسة وعن سبب الدماء فيها.

وسريعاً ما وجد ضالته: فالكنيسة قد تعرضت في العام 2010 لاعتداء من قبل إرهابيين اقتحموها واحتجزوا في داخلها رهائن بقوة السلاح, وقاموا بقتلهم ثم فجروا أنفسهم في الكنيسة. هكذا وجد عدة تقارير إخبارية ومقالات عن الحادثة.

عرف أن الأب عدي قد قتل ذلك اليوم ومعه العشرات فبحث عن أسمائهم ليعرف قصة الفتاة التي تدعى رفاه إن كانت بينهم, لكنه وجد شيئاً غريباً يخصها.

كانت رفاه فعلاً من ضمن الرهائن المحتجزين في الكنيسة ذلك اليوم, لكنها نجت من الكارثة ولم تمت مع الآخرين في حينها, لكنها ماتت مقتولة بعد شهرين من الحادثة. لقد روت رفاه الحادثة لأحدى الصحف في حينها كناجية من المجزرة وتحدثت برواية مغايرة لتلك التي تناولتها وسائل الإعلام والتي روجت لأن المسلحين الذين نفذوا الهجوم كانوا إرهابيين اقتحموا الكنيسة واحتجزوا رهان مدنيين ثم قاموا بأطلاق النار عليهم وتفجير أنفسهم جميعاً. كانت قصتها تختلف تماماً عن تلك الرواية: تحدث رفاه في حوارها مع تلك الصحيفة على إنها رأت بأم عينها جميع المسلحين وهم يخرجون من الكنيسة من باب السطح بعد أن لبسوا ملابس الأمن وغادروا المبنى قبل أن تنفجر عبوات ناسفة تركوها خلفهم. كانت رفاه تختبئ خلف الشاخص لحظتها ولم يرها الإرهابيون حينها, عندها هربت قبل انفجار العبوات إلى خارج الكنيسة ونجت.

وبعد أن تكلمت للصحفيين عن روايتها تلك, بشهرين, دخل عليها في منزلها رجال مسلحون وقتلوها طعناً بالسكاكين وهربوا.

فعرف محفوظ سر السكين المغروسة في صدرها, وتلك الطعنات التي على جسمها, وفهم أن الأطفال الملائكة قد أرسلوه إليها ليدون قصتها في كشكوله لترتاح من ألمها الذي قالت له أنه شفي بمجرد وصوله إليها. لقد غدروها, شهدت بالحقيقة فقتلوها!

نام محفوظ بعد أن دون في كشكوله كل شيء لأنه كان متعباً ولم يكن قد استعاد تمام عافيته بعد. فدربه طويل على ما يبدو, فعليه أن ينتظر ما تبقى له من الرسائل السبعة التي سوف يتلقاها من الأطفال الملائكة لينجز المهمة.

الفصل الحادي عشر

الرسالة الثامنة

" لزينب قصة استمع إليها لعل فيها لك الخير"

- عم محفوظ تعال نحن هنا...

محفوظ:

- أنا أراكم لكنكم بعيدون جداً, الجسر صار بعيداً عني, لماذا لا تأتون إلى هنا وتتركون الجسر؟

الأطفال:

- لا نستطيع فالجسر هو كل ما تبقى لدينا, هو بيتنا... المهم لا تشغل بالك بنا فنحن فرحين بما قمت به من أجلنا, ولا تقلق نحن نقف بجانبك, لم يتبقى وقت كثير عندك! ستكون رسائلنا لك كثيرة؛ لأن الوقت يمر بسرعة ونحن لا نملك الكثير من الوقت, لكن رسالتنا الأخيرة لك, إنها أهم رسائلنا لا تنساها يا عم!

محفوظ:

- نعم الكشكول...

الأطفال:

- أحسنت ودون هاتين الرسالتين لديك وهما الرسالتين الثامنة والتاسعة: لزينب قصة استمع إليها لعل فيها لك الخير.

أما الرسالة الأخرى:

سيزورون الانتخابات, وهذا أمر محتوم ليصعد العملاء الثلاثة, يومها كن في ضريح الشيخ معروف الكرخي, قرب القبر ستجد الدليل هناك. الحارس سيأخذك إلى هناك لا تقلق ...وعجل في ذلك! فأمامك يومان فقط...

نعم ... سأفعل ... نعم ... حاضر ...

فاستيقظ محفوظ من نومه فجراً, نهض من مكانه فسمع صوت تلاوة شجية للقرآن الكريم تنبعث من مكان ما في البيت. التلاوة كانت بصوت قارئ عراقي سمعه محفوظ ذات مرة في مكان ما لم يتذكره أول الأمر, كان ذلك القارئ يقرأ على أحد المقامات العراقية القديمة بأسلوب مميز, لقد تذكر: كان وقتها يعمل في مشروع بناء مرقد الشيخ معروف الكرخي كعامل بناء, عندما كان طالباً في الجامعة.

عمل من الإعمال الكثيرة التي تمرغ بها محفوظ بالعفر حتى أكمل دراسته بالإضافة لبيع السجائر والمكسرات في تقاطعات الشوارع وإشارات المرور أيام طفولته المرة.

ذكره ذلك القارئ بصوته الرخيم بالضريح المهيب, وبتلك الأيام التي قضاها هناك. لاشك إن ذلك الصوت هو نفس المقرئ الذي كان يسمعه في الماضي. نعم محفوظ متأكد من ذلك, لقد سمعه يتلو القرآن هناك في المرقد كثيراً, وتكلم معه ذات يوم حين التقاه عن جوار الضريح. كانت جملة واحدة قالها له ذلك الشيخ ولم يره بعدها مطلقاً لسبب مجهول. كان شيخاً طيباً وودوداً وقوراً وذا هيبة. كان يجلس فجر كل يوم قبالة الضريح الشريف بالضبط بينما كان محفوظ يمر بالقرب منه حاملاً بعض مواد البناء التي يطلب منه إحضارها. ذات يوم ناداه ذلك الرجل الوقور بالإشارة وطلب منه أن يقترب ويجلس بقربه فقال له جملة واحدة فقط بعدها غادر المكان ولم يره محفوظ من بعدها.

الجملة يتذكرها محفوظ كما نطقها المقرئ بالضبط, بلا زيادة ولا نقصان وبالحرف الواحد " أنت طاهر ونقي يا ولدي "

خرج محفوظ من الحجرة وتمشى بهدوء نحو المطبخ فوجد زينب وهي مشغولة تعد طعام الإفطار, التفتت خلفها فوجده وسلمت عليه بخجل لأنها كانت حاسرة الرأس بلا حجاب فعاد محفوظ من فوره وتوجه للصالة وجلس هناك ينصت بخشوع لصوت القرآن الكريم بذلك الصوت الرخيم الذي تبين له إنه يبث من المذياع الذي تشغله زينب في المطبخ. لم يكن الأمر مجرد

صدفة, فهو عليه أن يزور المرقد ذاته الذي سمع فيه هذا المقرئ أول مرة قبل حوالي عشرين عاماً لينفذ المهمة الجديدة.

دخلت عليه زينب وهي تحمل صينية الإفطار وجلست معه وقالت له أن اليوم هو أجازتها وستقضي اليوم بطوله معه في المنزل.

فقال لها محفوظ:

- تدرين أني ما سامع قرآن من فترة طويلة؟

ردت عليه زينب:

- أكيد ظروفك والغربة هي الي منعتك هناك.

فأخذ محفوظ يقص عليها قصته كاملة, بينما كانت تنصت إليه بشغف. روى لها كيف فتح فيه عينيه على الدنيا يتيم الأم والأب بعد أن أعدم رجال الأمن والديه وتركوه تحت رحمة خالته وزوجها الظالمين اللذان أجبراه على العمل وعاملاه أسوء معاملة. روى لها يومياته الصعبة حيث كان يقف على قدميه في تقاطعات المرور طوال النهار يبيع السجائر والمكسرات. كيف طرداه من المنزل وأودعاه في دار الأيتام.

وقص عليها تلك الأيام المرة التي قضاها في دار الأيتام, وما عاناه هناك حتى هرب وعاد إلى إشارة المرور قرب سينما البيضاء في بغداد الجديدة, التي أتخذ من قبو سلمها منام له ليلاً, ومن بيع السجائر والمكسرات عملاً له في النهار ليكسب قوت يومه ويبقى على قيد الحياة وهو يدفع ثمن جريرة لم يرتكبها.

ثم قص عليها كيف أصر على أن يكمل دراسته وكيف نجح في مسعاه حتى نال شهادة الإعدادية وكيف منعه جهاز الأمن وتقارير الحزب من حق التقديم للجامعات لأنه بالنسبة إليهم ابن الخائن الذي يجب أن لا يعيش في البلد مثل الأخرين. وكيف أن هذا اللقب قد لازمه فترة طويلة من حياته حتى حطم كل أحلامه وآماله.

وكيف أنه, وبعد سقوط نظام البعث, قد استرجع الأمل في الخلاص من تهمة ولقب " ابن الخائن " الذي حرمه من حقه في العيش كانسان مثل بقية خلق الله, لكنه صدم بواقع أمر منه وهو المحسوبية والرشوة وفساد الحكام الذي وقف عائقاً بينه وبين وظيفة شريفة تؤمن له قوت يومه بعد تخرجه من الجامعة, وكيف أن خالته التي ظلمته وطردته من منزلها هي نفسها من سرقت حقه في التعويض الذي خصصته الحكومة لذوي الشهداء السياسيين

وضحايا نظام البعث, كيف تسلقت على أشلاء أختها وزوجها المعدومين وصارت عضواً في البرلمان كمتضررة من نظام البعث وأركانه.

محفوظ روى لزينب الحكاية كلها وهو مغمض عينيه حتى إنه نسي أن يتناول إفطاره. وما إن فتح عينيه حتى وجد زينب تنشج وتكفكف دموعها مثل طفلة صغيرة بعد أن تأثرت بشدة لسماعها تلك الرواية التي لم تسمع مثلها في الروايات الحزينة ولا الأفلام الحزينة التي شاهدتها.

زينب هي الأخرى بدأت تسرد لمحفوظ قصتها التي لم تكن تقل حزناً عن قصته لا بل وأكثر...

فقالت له:

- والله ما أدري منين أبدي؟

اسمي زينب وعمري سبع وعشرون عاماً وكما ترى فانا أعيش وحيدة في هذا المنزل والسبب أني فقدت والداي وأخي وأختي كلهم في يوم واحد, ذات يوم عدت من عملي في الجامعة المستنصرية إلى منزلنا هذا, كان ذلك قبل ثلاثة أعوام تقريباً, ولم أعثر عليهم!

الجيران أخبروني أن ميليشيا قد حضرت للمكان وقامت باختطاف العشرات من أهل الحي ومن بينهم والداي وأخي وأختي وبعلم أجهزة

الأمن التي كانت بلا حول ولا قوة أمام سطوة المليشيات والعصابات المسلحة, كان ذلك في خضم الحرب الأهلية كوننا من السنة!

نصحني الجيران أن أذهب إلى أشخاص معروفين بكونهم من قيادات تلك المليشيات لأتفاوض معهم على فدية مالية كما كان شائعاً في فترة الحرب الأهلية وحتى ما قبلها.

مثل راعي غنم تسرق منه نعاجه فيفتديها من سارقيها بالمال, وهذا هو الوصف الأدق لتلك الصفقات المحفوفة بالمخاطر!

في الحقيقة خفت أول مرة كوني فتاة صغيرة بالعمر وجميلة في نفس الوقت. كنت وقتها قد عينت للتو كمعيدة في كلية الهندسة في الجامعة كوني قد تخرجت الأولى على الكلية؛ لذا قررت الاستعانة بزميل لي في العمل لينوب عني في مهمة البحث عن أفراد عائلتي والتفاوض مع الخاطفين وقد تبرع للمساعدة لغاية دنيئة كانت في قلبه دون علم مني.

ذات مساء أتصل بي ذاك الزميل النذل وقال لي أنه في مكان قريب من بيتنا وأن لديه أخبار عن أهلي وأنهم بخير.

ففرحت كثيراً وطلب مني أن أفتح له الباب ليدخل ويشرح لي التفاصيل. وفعلاً فتحت باب المنزل وخرجت إليه فوجدته يقف قرب

الباب ومعه ثلاثة شبان كانوا بوجوه مرعبة عليها ندوب وأثار جروح مقززة, فطلب مني أن أسمح له ولهم بالدخول للتفاوض بشأن عائلتي المختطفين.

في الحقيقة أنا تنبهت لغايته الدنيئة لحظتها, لكن بعد فوات الأوان لأنهم أربعة وأنا فتاة ضعيفة لا حول لي ولا قوة.

المهم حين رفضت, أدخلوني للدخل بالقوة, وبعد أن أمسكوني وقيدوني وتقدم النذل نحوي ففهمت في خضم ذلك الموقف أنه أستأجرهم ليقيدوني و...

وعذراً لا أستطيع أن أكمل, فالحديث يعيدني لتلك المشاهد المؤلمة...

ثم طأطأت زينب رأسها نحو الأرض وأجهشت بالبكاء.

محفوظ:

- مفهوم...

وأتبعت زينب:

- وبعد ذلك قاموا بسرقة كل ما أملك من المال والمصوغات الذهبية وهربوا وتركوني مكتوفة الأيدي ممزقة الثياب. لحظتها جاء ذلك النذل وجلس بالقرب مني وقال لي جملة لم أستطع نسيانها حتى بعد

أن مرت ثلاثة أعوام على تلك الحادثة حيث قال " العين بالعين والسن بالسن" عرفت لاحقاً من بعض الزملاء الذين زاروني للاطمئنان علي إنه فعل فعلته تلك طلباً للثأر لإحدى قريباته التي اغتصبت قبل مدة. لا أعرف لما اختارني أنا بالذات؟ فكلنا عراقيات وكلنا مسلمات وكلنا بشر.

المهم بعد ذلك حصل التقسيم وشرع التبادل في المنازل والعقارات وفي إصدار البطاقات بين السكان في جانبي بغداد كعاصمتين جديدتين.

أنا اخترت أن ابقي هنا وأن أستصدر البطاقة ش, أي أن أكون مواطنة (شيعه ستانية) وهذا ما نصحني به أحد أساتذتي في الجامعة والذي سكن وأختار جمهورية سنه ستان كونه سني, وقال لي بالحرف الواحد بعد أن أخبرته بخطف أهلي وما حصل لي من قبل زميلي في تلك الليلة " أنت وحيدة وجميلة يا زينب أبقي في شيعه ستان لأن الأمور هناك عندنا لا تبشر بخير"

وقد قصد بكلامه التنظيمات الإرهابية التي ملأت مجاميعها مدينة الكرخ بحثاً عن النساء الجميلات, وجمالي هو سبب نصيحته لي يا

محفوظ. وها أنا هنا سنية أقطن في شيعه ستان, وقد ساعدني اسمي في أن أندمج مع المجتمع الجديد.

وبعد أن فقدت عملي كحال ملايين العراقيين بعد التقسيم, وبت بلا دخل يعينني على شراء طعامي في أصعب ظروف مر بها شعب العراق ككل, بعد تلك الحرب المقيتة التي دارت رحاها في البلاد ونتج عنها خراب ما بعده خراب, عشت أياماً سوداء عسيرة.

بعد مدة استقرت الأمور هنا في شيعه ستان نوعاً ما, وقدمت شركات أجنبية ومستثمرين أجانب وطلبوا موظفين محليين برواتب مغرية وكان الأستاذ جميل بن رباح واحداً منهم. فتح مشاريع الاتصالات والإنترنيت وأعلن عن حاجته لمهندسين اتصالات وحاسوب فتقدمت للعمل لديه في مقر شركاته التي موقعها في فندق فلسطين مريديان وقد تم تعييني بأجر جيد والحمد لله.

لكن هل تعلم يا محفوظ أني أدفع لرجال الأمن هنا مبلغ شهري لقاء أن أنام من غير أن يقتحم منزلي رجال يروني جميلة وأستحق المغامرة ليقضوا ليلتهم وهم يتلذذون بلحمي؟

هل تعلم أن بن رباح هو الوحيد الذي يحميني بنفوذه لدى الجميع رغم أنه الغريب عن البلد؟ أما أخواني العراقيين فقد فقدوا غيرتهم وراحوا يخطفون هذه ويغتصبون تلك مثل الحيوانات!

نحن نتشابه من ناحية أننا ندفع ثمن شيء لا دخل لإرادتنا فيه, ذنب لم نرتكبه لنعاقب عليه.

أنت عانيت من جريرة لم ترتكبها لأن والدك قد انتمى لحزب معارض لنظام قمعي قاسي لم يفرق بين الأب الراشد وبين الطفل الرضيع.

أما أنا فجمالي هو جريرتي في مجتمع صارت فيه المرأة عبارة عن وسيلة إشباع نهم غرائز المتعصبين, زمن الفتاوى الدينية الباطلة مثل فتوى جهاد النكاح تلك التي تحلل سبي نساء الطوائف والأديان زوراً وبهتانا, مثلهن مثل أي غنيمة من غنائم المعارك كالبندق والدبابات.

ثم سكتت زينب وانشغلت بمسح دموعها التي انهمرت طيلة الوقت الذي كانت تروي فيها قصتها, بينما كان محفوظ يراقبها ويتذكر الرسالة بخصوص أن قصتها قد يكون فيها له الخير فقال لها وبلا مقدمات وعلى الفور:

- زينب تتزوجيني؟

رفعت رأسها نحوه بينما كانت تكفكف دموعها وقالت له:

- تقبل بوحده فقدت شرفها؟

وضع محفوظ يده على فمها وقال لها:

- تتزوجينني ؟

لم ترد عليه بعدها, ربما قد منعها الخجل, فقال لها محفوظ بعد أن مسح الدمع عن عينها بمنديل ورقي تناوله من الطاولة التي كانت أمامه ثم اقترب منها ووضع رأسها في حجره وقال لها وهو يتبسم:

- السكوت من علامات الرضا...

في الحقيقة إن زينب بحسنها الأخاذ وعيونها العسلية وجسدها الأهيف سحرت محفوظ منذ الوهلة الأولى التي رآها فيها, ولم يكن طلبه للزواج بها من باب الشفقة والتعاطف مع اليتيمة المنكسرة. كان دافعه حب ولد في خضم مخاض أهوج. حب عذري لم يعرفه محفوظ من قبل ولا حتى زينب. هي الأخرى كانت تبادل محفوظ مشاعره وتخفيها عنه.

هكذا تصارح الأثنان بحبهما واتفقا على الزواج. كانت تلك المرة الأولى التي يخطط فيها محفوظ لحياة وأسرة. قال لها إنه لم يتصور من قبل تلك

اللحظة التي يقع فيها في حب أمرة ويقرر الارتباط بها. كانت حياته عبارة عن دوامة عارمة أخرجته منها زينب برقتها وعفويتها.

أما زينب فقد أحبت في محفوظ تلك الغيرة التي كان ينضح بها وشهامته يوم ترى عليه تلك الحسرة التي تعتريه حين يسمع بما جرى لأهل البلد في غيابه.

في اليوم التالي, وكان يوم الثلاثاء, الثلاثون من شهر تشرين الثاني نوفمبر عام 2021, أي قبل موعد الانتخابات بيوم واحد, تزوج محفوظ من زينب ببطاقته الشخصية ش التي زوده بها بن رباح وتجمع الجيران في بيت زينب وهم يرقصون فرحين لزينب المسكينة اليتيمة التي جاءها قريب لها من المهجر ليتزوجها ويقيم معها في بيتها كما أخبرتهم.

وحان وقت الزفة الغريبة التي قررها محفوظ ليجمع أهل الحي في سابقة لم تحدث من قبل.

فقد قرر محفوظ, وبعد أن يعقد القران رجل دين مسلم, وبعد إتمام مراسيم حفل الزفاف والعرس في الدار, قرر أن يتوجه الجميع لكنيسة سيدة النجاة القريبة لإكمال مراسيم الاحتفال بمشاركة الإخوة المسيحيين القلائل الذين تبقوا في الحي, واللذين أصروا على التمسك بوطنهم والعيش في منطقة

الكرادة داخل, وقد رحب الشماس والد ماتيلدا بالفكرة من فوره عندما أخبرته ابنته أن صديقتها زينب وزوجها المسلمين يطلبان الإذن منه أن يحتفل بزواجه في الكنيسة.

وقف الشماس والقساوسة وأهل الحي المسيحي في الباب ينتظرون قدوم العروسين والمحتفلين على وقع ترانيم الجوق المتأنقين بباب الكنيسة يحملون بأيديهم الورود والشموع كما يحملون الطيبة والمحبة للجميع بدموع الفرح التي راح الشماس يكفكفها عن عينيه الزرقاوين.

ماتيلدا لبست لتكون الإشبينة, وأمها حملت بيدها طبق فيه الشمع وتيجان الآس, بينما كان أطفال الحي المسيحي فرحين مع أهليهم ينتظرون ويترقبون وصول العروسين.

الشماس قرر أن يكون لزينب أبوها الذي يمسك بيدها في مراسيم الزفاف.

خرج محفوظ وزينب من باب البيت وسط الزغاريد العراقية والأهازيج البغدادية وأستقبلهم من جهة الكنيسة الإخوة المسيحيين " بالزرنا " وهو الطبل والمزمار.

فتلاحم الفريقان في باب الكنيسة في مشهد ملحمي جميل. كانت ماتيلدا تحمل ثوب الزفاف خلف زينب يرافقها شاب مسيحي صار هو إشبين

لمحفوظ. دخلوا للكنيسة يتقدمهم الشماس والقساوسة ودقت أجراس الكنيسة معلنة عن إتمام العرس لمراسيمه بصلاة رددها الجميع خلف الأب وتمنيات الجميع للعروسين بحياة سعيدة.

فرح عم الكل, لاحظ محفوظ بريق الأعين العطشى للبسمة بعد كل ذاك الكم الهائل من الحزن. قرأ ذلك في الوجوه الضاحكة, حتى الزغاريد كانت عالية مدوية تنثرها النسوة من أفواههن بقوة وكأنها الفرحة الأول في الحي بعد أحزان متعاقبة.

دموع الفرح التي سالت على خدود الشماس ورفاقه قالت للجميع أننا أخوتكم, لا فرق بين نبينا ونبيكم, كلاهما قد حملا رسالة من الرب ذاته.

المسلمون من أهالي الحي راحوا يقبلون وجوه أخوتهم المسيحيين من جديد بعد فتاوى التحريم وعاد العناق بينهم. وقفوا يتبادلون الأحاديث بعد جفاء ومقاطعة. عرس محفوظ كان مثل اسفين عظيم حطم جدار الفرقة بين أهل الحي الواحد.

عاد محفوظ وزوجته زينب لبيتهم بعد انتهاء الحفل فرحين. لأول مرة يفرح فيها محفوظ فرحاً حقيقياً في حياته كلها. دخل البيت ممسكاً بيد زوجته زينب وغادر أهالي الحي لبويتهم. في تلك اللحظة بالذات شعر محفوظ بالحيرة؛

هل يخبر زوجته التي ستشاركه حياته القادمة بسره؟ أم إن عليه أن يخفي عنها أمر المهمة الخطيرة الملقاة على عاتقه؟ سيدع للقرار للأطفال الملائكة, هم من سيقررون ذلك, فهو يجهل عواقب الأمور, سينتظر, وريثما يأتيه الرد, سيكتم كل شيء عن زينب, والأيام القادمة ستحمل له الخبر اليقين.

الفصل الثاني عشر

الرسالة التاسعة

"تزوير الانتخابات"

في صباح اليوم التالي استيقظت زينب من نومها فلم تجد محفوظ بجانبها, خرجت من الغرفة لتجده جالسٌ على المكتب منشغل يقلب بحاسوبه الشخصي, فجلست بالقرب منه وقالت له:

- محفوظ أنا مو غشيمة, أعرف بيك انت وأستاذ جميل ضامين شي علي!

في السابق لم تتدخل زينب فمحفوظ كان مجرد رجل غريب عنها, مجرد رجل كلفت من قبل ولي نعمتها بأن تخبئه في بيتها, لكنه اليوم زوجها الذي تحب وتخاف عليه ولا تريد أن تخسره, هي تشعر إن زوجها وجميل بن رباح يقفان في وجه المدفع, وأي مدفع؟ لم تنطلي عليها تلك الكذبة بشأن محفوظ وهروبه من النقطة في تلك الليلة, وأفراد القوة الذين تم تصفيتهم بعد هروبه مباشرة. والقصة التي اختلقها بن رباح عن سبب مطاردتهم لزوجها لكونه قام بإفشاء أسرار عسكرية. هي متأكدة إن زوجها تفتش في ماضيهم القذر, مؤامراتهم التي حاكوها ضد البلد. كل العراقيين يعرفون أن من قسمهم وفرق بينهم قوة خارجية سيطرت على الأحزاب السياسية التي حكمت العراق الموحد حتى تجزأ, أحزاب خدعت الناس بشعاراتها البراقة, كانت تجاهر بالمطالبة بحقوقهم حتى فرقتهم, العراقيون كلهم يعرفون ذلك, لكنهم يجهلون تلك الجهة التي قررت التقسيم.

تلك الجهة قوية بالتأكيد, بحيث أن الكثيرين قد قتلوا لمجرد تصريح إعلامي, أو نشر مقال في جريدة عن مخطط التقسيم, لا بل وحتى ثرثرة كلام عابر في مقهى كانت تؤدي لمقتل من يتحدثون عن مخطط التقسيم. زينب ليست تلك البلهاء التي تنطلي عليها مثل تلك القصص المحبوكة بإتقان, قالت له بنظرات وجلة:

أنت وجميل تنبشون بذاك الوحل عن دليل يربط تلك الجهة المقتدرة بالي صار بالعراق, وهذا خطير جداً ما راح يسكتون.
أنت زوجي وما أريد أتدخل بقراراتك وأسرارك, لكني أحبك وأخاف عليك وما أتحتمل خسارتك.

محفوظ:

- حبيبتي لا تخافين علي الله يحميني وتأكدي من هذا الشي.

طلب منها الاطمئنان وعدم القلق, والوقوف بجانبه في المهمة التي أخذ منها وعداً بأن لا تسأله عنها. كل ما قله محفوظ لزينب إنه يقف, بمساعدة أشخاص لم يذكرهم, بوجه مخطط لئيم يحاك في الخفاء لقتل المزيد من الأبرياء. لقد أخفى عنها أمر الأحلام والمهمة التي كلف بها لكنه أخبرها بالمخطط القادم, الحرب القادمة التي سيضرمونها بين شعوب الدول الثلاث وستحرق الأخضر واليابس. أخبرها أن الجريمة التي ارتكبوها بالتقسيم تهون عن الذي يخططون إليه في الأيام القادمة.

- شون عرفت؟
- عرفت هالشي بطريقة لا تسأليني عنها...

أخذ منها وعداً بأن لا تسأله عن مشاوير سيقوم بها بمساعدة بن رباح في الفترة القادمة. أخبرها إنه في مهمة جليلة, ووحده من سيقف بوجه حربهم التي يخططون لها .

- هذا كل الي أكدر أكوله الج زينب.

زينب:

- أنا وياك وأوعدك راح اساعدك وما أسألك بس أني أحبك وأخاف عليك!

محفوظ:

- لا تخافين واطمئني...

وبعد أن هدأ محفوظ من روع زينب شرع يرسل الشفرة الأولى لجميل من حاسوبه بينما خرجت زينب من عنده لتعد طعام الإفطار.

وبعد أن أراد محفوظ أخبار بن رباح عن ضرورة أن يكون ذلك اليوم في ضريح الشيخ معروف الكرخي في مدينة الكرخ تفاجئ أن بن رباح هو من رتب له ذلك وقال له:

"هيئ نفسك وأحمل معك بطاقتك الشخصية س التي أرسلتها لك مع زينب" وأخبره أنه سيمر عليه بعد ساعة ليأخذه لمرقد الشيخ معروف الكرخي الكائن في مدينة الكرخ.

زينب جلبت الطعام ووضعته أمام زوجها على الطاولة ثم شغلت التلفزيون على محطة الأخبار وكانت تلك المحطة تعلن عن بدأ الاقتراع في البلدان الثلاثة صبيحة ذلك اليوم لاختيار رئيس لكل بلد من البلدان الثلاثة في وقت متزامن.

وهؤلاء الرؤساء الثلاثة هم من سيتسلمون زمام السلطة من الحكام المدنيين الأجانب الثلاث الذين عينتهم منظمة الأمم المتحدة ليحكموا البلدان الثلاثة بعيد التقسم.

كان المذيع يحث الناس بصوت عال في البلدان الثلاثة للخروج والمشاركة في الانتخابات التي ستعلن نتائجها في الخامس عشر من الشهر الجاري مذكراً الجميع بأن الرؤساء الثلاث المنتخبون سيتسلمون السلطات من الحكام المدنيين في الأول من شهر كانون الثاني يناير لعام 2022 المقبل.

نهض محفوظ من مكانه وأخذ يهيئ نفسه كما طلب منه بن رباح للرحلة الأولى له خارج النقطة على الجسر, وهي الأولى له في جانب الكرخ من

خلال حمله للبطاقة التي يحملها الناس هناك وهي البطاقة س. راجع البيانات المزيفة التي فيها تحسباً لأي سؤال قد يوجه له من قبل نقاط التفتيش كما طلب منه بن رباح..

مر الوقت سريعاً, جاءت زينب لمحفوظ وقالت له أن بن رباح قد أتصل بها وهو ينتظره في سيارته قرب باب البيت.

بعد أن خرج محفوظ وجلس في السيارة وتحركت, وبعد سلام مقتضب قال بن رباح بجدية مفرطة:

- إليك الخطة, بعد أقل من ربع ساعة سنجتاز أحد الجسور على نهر دجلة, وهذه المرة ستعبر عليه وأنت كمواطن من موطني جمهورية سنه ستان, لا مترجم من مترجمي المنظمة الدولية, ومن هناك سنصل إلى ضريح الشيخ معروف الكرخي .. بالمناسبة هل تعرفه؟

محفوظ:

- نعم أعرفه رض الله عنه.

بن رباح:

- سنكون داخل المرقد حتى أخر النهار لأننا ضمن فريق دولي لمراقبة الانتخابات, وقد سجلتك فيه باسمك الذي في البطاقة التي تحملها اليوم, وعليك أن تكون حذراً لأن لا يكشف أمرنا, هذا المركز الانتخابي يجمع فيه كل صناديق الاقتراع كلها من البلدان الثلاثة بواسطة سيارات النقل والطائرات حتى!

أن الإشراف على المركز هذا مباشر من قبل القوة الدولية وممثلين من مختلف دول العالم سيكونون هناك بالمئات, وهو محمي من قبل القوة الدولية. وأتبع:

كل ما أعرفه أن هناك عملية تزوير ستحصل, وهي كبيرة عليك كشفها وتوثيقها, لكني لا أعرف التفاصيل.

محفوظ:

- هذا المركز لماذا لم يضعوه في المنطقة الدولية الخضراء؟

بن رباح:

- سؤال جيد, دعني أجيبك عليه بسطور قليلة رغم إن الإجابة عليه تتطلب ساعات من الكلام.

لقد اتهمت الأحزاب المشاركة بالانتخابات المنظمة الدولية بأنها قد تزور الانتخابات لصالح مرشحين بعينهم؛
لذلك فأن المنظمة الدولية اختارت هذا المكان عبر القرعة ليكون هو مركز الجمع الرئيس للصناديق تمهيداً للفرز.

محفوظ:

- ها فهمت! وأتبع:
- وكيف سأكشف أنا هذا التزوير وكيف سأوثقه؟

بن رباح بعد أن أخرج طرف شفته السفلى, وفتح ذراعيه في السيارة واسعاً تاركاً المقود على الغارب:

- الله أعلم؟ هذه مهمتك وليكن الله في عونك!

حاول محفوظ أن يزيح عن نفسه الارتباك من خلال النظر للشوارع من خلال نافذة السيارة. كانت الشوارع خالية من السيارات بعد فرض حضر تجوال المركبات عدا من يحملون التصاريح الأمنية بذلك مثل بن رباح ومحفوظ. أفواج كبيرة من المواطنين كانوا يسيرون مشياً على الأقدام متوجهين نحو مراكز الاقتراع المنتشرة في كل الأحياء, منهم من كان يلوح لسيارة بن رباح بأصابعهم المصبغة باللون البنفسجي دلالة على أنهم قد

أتموا الانتخاب, ومنهم من تجمعوا يرقصون في الشوارع على شكل مجموعات مبتهجين فرحاً لأنه سيكون لهم رئيس يمثلهم بدل الحاكم المدني المعين, أملاً منهم في أن يحمل لهم الخير بعد سنين عجاف مرت عليهم.

وصلت السيارة لنقطة التفتيش على جسر الباب المعظم, وهي نقطة كتلك التي على جسر الأئمة تديرها وتشرف عليها القوة الدولية. وبعد أن أخرج بن رباح أوراقه وتخويله طلب منه الجندي التابع للقوة الدولية مواصلة السير للعبور.

حبس محفوظ أنفاسه لأنه لا يجيد الكذب في مثل تلك المواقف.

عند وصول السيارة قبالة المرقد الشريف شعر محفوظ بقوة غريبة تجره نحو الداخل لكنه أخفى ذلك عن بن رباح الذي كان منشغلاً يقدم أوراق التخويل والتصريح لموظفي الاستعلامات والحرس عند البوابة الرئيسية. عرفهم بنفسه ومحفوظ بالاسم المزيف على إنهما مراقبين للإنتخابات فسمحا لهما بالمرور.

هناك في المركز على محفوظ وبن رباح أن يجلسا في مكان مخصص لمراقبة عمليات جمع الصناديق الانتخابية التي ستصل تباعاً من الدول الثلاث بعد غلق المراكز الانتخابية. وفعلاً توجها نحو مكانيهما وجلسا هناك

برهة, عاودت تلك القوة الخفية تجذب محفوظ جهة المرقد مثل مغناطيس عظيم فطلب محفوظ من جميل الإذن بزيارة المرقد الشريف لأنه يشعر برغبة ملحة بذلك فطلب منه بن رباح عدم التأخر وعدم الكلام مع أحد كي لا ينكشف أمرهما.

توجه محفوظ نحو المرقد بخطوات وئيدة وهو يقلب البصر في هيبة المكان وروحانيته الطاغية, سرعان ما وصل إلى درجات السلم الطويلة التي تقود من يروم الوصل للمرقد المعلق في الأعلى, وأخذ بارتقائها الواحدة تلو الأخرى حتى دخل ووجد رجل مسن جالس وجهه للمرقد وظهره على محفوظ فقال دون أن يلتفت إلى محفوظ الذي صار يقف خلفه تماماً:

- يا بني أجلس بقربي سأقرأ القرآن وعليك أن تنصت!

وشرع يقرأ تلاوة مباركة من القرآن الكريم وكان هو ذات المقرئ بشحمه ولحمه الذي التقاه محفوظ قبل سنوات طويلة هناك, وقد تأكد محفوظ من ذلك من خلال ملامح وجهه النوراني التي لم تتغير على الإطلاق ومن خلال نبرة صوته المفخمة.

أنصت محفوظ للمقرأ حتى أتم قراءته وصدق ثم قال لمحفوظ:

- قم يا بني نزور قبر الرجل الصالح!

فنهض محفوظ ولم ينبس ببنت شفة مع الرجل كأنه قد خرس أو فقد لسانه.

وبعد أن أتما الزيارة التي قرأها المقرئ بصوت شجي خافت, وقد حاول محفوظ أن يردد كلماتها من خلفه لكنه عجز عن ذلك بشكل غريب!

قال لمحفوظ:

- هل تعلم بقصة هذا الرجل الصالح؟ ها تذكرت لن تستطيع الكلام! أنا سأقص عليك قصته يا ولدي...

لما سمع محفوظ جملة لن تستطيع الكلام؛ حاول أن يجمع كل قواه لينطق ولو بكلمة واحدة لكنه عجز عن ذلك فرد عليه المقرئ:

- لا تفعل يا ولدي فعبثاً تحاول, لا تقلق فصوتك سيعود إليك قريباً... دعني أقص عليك قصة الشيخ الصالح:
إنه مسيحي! نعم نصراني وقد أسلم, كان كثير العبادة والصيام والدعاء حتى أصبح الناس يتبركون به وهو راقد هنا اليوم...
تعال معي لأريك أمراً مهماً...

تبعه محفوظ مثل ظله, لكنه لاحظ أنه يبتعد عن المرقد الذي هو أمامه مباشرة وراحت الأرض ترتفع تحت قدميهما حتى وجد نفسه في مكان يعرفه

محفوظ وقد تجول فيه كثيراً! لكنه نسيه وراح يمسك بجبهته ويفرك برأسه ليتذكره!

فتذكر " إنه مقر القوة الدولية, مكان السفارة الأمريكية "سابقاً" قبل تقسيم العراق بالتحديد, وهو المقر الكبير في داخل المنطقة الدولية الخضراء!

سحبه الشيخ من يده فجعله يرى الألاف من صناديق الاقتراع وهي مكدسة في حاويات حديدية مغلقة بأقفال راحت الأقفال تنكسر تلقائياً وتتفتح أبوابها ليراها محفوظ فتعجب وأراد الكلام لكن الشيخ رد عليه:

- صور يا ولدي بتلك التي في جيبك! وأهم ما تصوره أرقام وبيانات الحاويات المعلقة على أبوابها لأنها ستكشف زيفهم وهي دليل على مؤامرتهم على العراق.

صورها محفوظ كلها بينما كان يتمشى بين الحاويات العالية, وعاد للشيخ الذي ما أن وضع كفه عليه حتى سقط محفوظ مغشياً عليه.

فتح محفوظ عينيه فوجد نفسه قرب المقام الطاهر ووقد تحلق من حوله بعض رجال الدين. فقال لهم:

- الشيخ وينه؟ الشيخ الي جان وياي وينه؟

أجابه أحدهم:

- ماكو شيخ هنا يا ولدي! أنت جيت وحدك من الباب و فجأة أغمي عليك...

نهض محفوظ وحمل بيده كامرته التي كانت ملقاة بالقرب منه وخرج متوجهاً نحو بن رباح, الذي سأله عن سبب تأخره فطلب منه محفوظ أن يعودا على الفور للبيت إن أمكن لأنه مريض ويشعر بدوار شديد.

بن رباح ذهب إلى فريقه الذين كانوا معه في مهمة المراقبة وأخبرهم أن صديقه مريض جداً ويحتاج لنقله على الفور للمستشفى. بعد دقيقة عاد وأصطحب محفوظ للسيارة التي ركنها في موقف قريب ورجع به إلى البيت. وبعد أن أنزله قال له محفوظ:

- لا تقلق لقد وجدت الدليل!

رد عليه بن رباح:

- جيد لكن استعجل فلم يتبقى لك وقت طويل! هذا كل ما أعرف مع السلامة.

فدخل محفوظ للبيت شاحب الوجه مثل ميت, فاستقبلته زينب بملامح قلقة حين لاحظت توعك زوجها وتعبه الشديد. كان يرتجف من البرد, انحنت لحذائه ونزعته وأجلسته على الأركة في الصالة وقربت منه المدفأة وكان يمسك كامرته بيده ولم يتركها طرفة عين طوال طريق العودة.

استفسرت زينب من محفوظ عما جرى له, فطمأنها بكلمات قليلة وطلب منها أن تحضر له كوب شاي ساخن فنهضت من عنده لتصنع له الشاي.

رغم تعبه ومرضه, قاوم محفوظ نحوله وحاجته الملحة للراحة والنوم, شغل حاسوبه وربط الكامرة عليه لينزل عليه مقاطع الفيديو والصور التي صورها ليحفظها؛ فالدليل الذي يحمله في كامرته أهم من كل شيء.

أتم محفوظ عملية التنزيل, من خلال نقل جميع مقاطع الفيديو والصور التي وثق فيها أرقام وبيانات الحاويات التي كانت تحمل الصناديق المجهزة سلفاً للتزوير, ثم نقل كل تلك المعلومات الرقمية إلى الهارد الإضافي الذي تركه له النقيب قبل أن ينتحر, والذي فيه كل الأدلة على الجرائم التي ارتكبت بحق العراق, والتي ستدين رأس الأفعى من خلال تتبعها عبر بيانات الشركة الناقلة للحاويات وهذا سيأتي قريباً.

لحظتها شعر محفوظ بالراحة والنصر؛ فقد أنجز مهمة أخرى, المهمة الأصعب من بين مهامه التي قام بها. تحسنت حالته الصحية لاحقاً بحيث أنه شعر بالجوع وطلب من زينب أن تعد له وجبة العشاء بعد الغروب مباشرة.

جلبت زينب الطعام وأنظمت لمحفوظ الذي كان يشاهد التلفاز, والذي أعلن من خلاله عن انتهاء فترة الاقتراع وبداية عملية فرز الأصوات في الدول الثلاث.

فقال محفوظ لزينب:

- تعرفين من راح يفوز بهذه المهزلة ورح يعلنون هذا بعد أسبوعين؟

زينب:

- وشمدريني والله عليك سوالف قابل أني بالمفوضية؟

فقال لها محفوظ:

بسنه ستان راح يفوز واحد اسمه " ناصر السلمان"
وبكردستان راح يفوز واحد اسمه " سعد البرواني "
وبشيعه ستان راح يفوز واحد اسمه " محمود الطبراوي "

قالت زينب بتعجب:

- عزة! ذوله أعرفهم! العراقيين كلهم يعرفونهم, هذوله أمراء الحرب الأهلية, وهذا الأخير الطبراوي لعنة الله عليه هو وزمرته الي خطفوا أهلي الي ما أعرف مصيرهم ليهسه.

لحظتها دمعت عيني زينب فالتفت إليها محفوظ ووضع رأسها في حجره وهو يعدها أن موعد الانتقام الرباني منهم بات قريب, ومن كل الذين اشتركوا في سفك دماء الأبرياء من كل الأطراف. حياة محفوظ تغيرت جذرياً نحو الأحسن, أصبح له هدف في هذه الحياة بعد أن كان حبيس ماضيه الأليم, وحاضره المليء بالعقبات, ومستقبله المجهول. أصبح باستطاعته الخروج من المنزل كل يوم والتجوال في شوارع بغداد, أو على الأقل في جانب الرصافة, بعد أن كان ممنوع عليه حتى ولو مجرد التفكير بذلك. لا يعرف محفوظ لما تذكر قصة رهان النقيب مع ذلك الكردي المسكين وورقة المائة دولار التي بقيت معلقة في الغرفة الصغيرة في تلك الليلة بالتحديد؟ هل لأنه خرج من مدينة الرصافة نحو مدينة الكرخ وعاد لبيته سالماً عكس ذلك المسكين الذي لم يعد لبيته كما راهن على ذلك, وخسر رهانه. من يدري؟ فمحفوظ كان قد وضع قدميه على طريق النصر القريب ترعاه يد الله وقدره الذي جاء به لبلده مرة أخرى بعد عذابات مريرة وطول جفاء.

الفصل الثالث عشر

الرسائل الأربعة الأخيرة

- عم محفوظ ... تعال نحن هنا نلعب بيت أبو بيوت تعال العب معنا!

محفوظ:

- ها أنا أراكم أنتم هنا قرب البيت وقد تركتم الجسر, لقد اشتقت إليكم كثيراً.

الأطفال:

- جئنا لتوديعك يا عم, الشيخ يسلم عليك ويقول أنك طاهر ونقي! الشيخ الذي تسميه المقرئ.

محفوظ:

- لما الوداع؟ أين أنتم ذاهبون؟

الأطفال:

لقد أخذت بحقنا وحق الجميع.

محفوظ:

- لكني لم أنجز المهمة بالكامل, يتبقى اربعة رسائل عدا الرسالة الأخيرة التي بخصوص الكشكول, حتى الكشكول لا أعرف ما هي رسالته؟

الأطفال:

- لا تقلق سنكون بقربك, وأنت ستحل كل الألغاز فقط أحفظ الرسائل التي سنتلوها عليك:

الرسالة العاشرة: قم بتسليم كل الأدلة التي لديك للحارس سيمر عليك اليوم وهو بالباقي سيتكفل, هو الأخر لن تراه ثانية لكن لا تخبره بذلك, فقد قدر الله الأمر كما قدر لك أن تكون المنقذ!

الرسالة الحادية عشرة: إعادة القطعة الناقصة للنصب, من دونها يخلو النصب من روح جواد سليم, اللوح السومري الذي أوصلناه إليك, أذهب به للنصب وقل لهم لقد عثرت عليه وسلمه لمن ستجده هناك ستجد النصب مكتمل إلا من القطعة التي لديك.

الرسالة الثانية عشرة: زر ماضيك حيث عملت بعد الملجأ هناك رسالة لك.

الرسالة الثالثة عشرة: قم بزيارتنا حيث نرقد ففي هذه الأرض لنا مرقد!

دون هذه الرسائل الأربعة في كشكولك أما الرسالة الأخيرة, الكشكول, سيدلك قلبك لاحقاً على الحل, فقط عد للمتنبي, لمقهى الشابندر وسيخبرك صاحب المقهى ماذا تصنع بالكشكول لكن بعد أن تنجر

الرسائل الأربعة التي أخبرناك بها, لكن عليك أن تؤجل تنفيذها كلها لما بعد رأس السنة, ودع قلبك يرشدك لا عقلك!

محفوظ:

- طيب أين سترحلون؟
- لا تسأل يا عم, وزينب لا تخبرها بأمرنا كي لا تفقدها وهذا أمر مهم!

أديت ما عليك على أحسن وجه ولا تنسى الرسالة الرابعة عشرة بخصوص الكشكول! لا تسميه بعد اليوم كشكول:

سمه " بيت أبو بيوت " وتذكر سيدلك قلبك على الحل...

- حسناً سأسميه "بيت أبو بيوت...

زينب ...

زينب ...

زينب!

زينب:

- محفوظ شبيك؟

محفوظ:

- أريد مي, عطشان... جيبيلي مي.

نهضت زينب من فراشها خائفة, كان محفوظ متعرقاً ويرتعش بشدة, جلبت له كوباً من الماء شربه وبعدها توجه خارجاً نحو المكتب. قال لزينب أنه مجرد كابوس وطلب منها أن لا تقلق وأن تعود للنوم.

نظر للساعة فوق رأسه وكان الوقت تمام الخامسة فجراً, أشعل المدفئة النفطية وجلس مع نفسه يلملم تفاصيل أخر الرسائل وأخر لقاء له مع الأطفال الملائكة, أخرج كشكوله من الدرج, وقبل أن يكتب حرفاً واحداً فيه, فتح الصفحة الأولى الفارغة وكتب فيها بالخط العريض " بيت أبو بيوت " هم قالوا له ذلك, ثم دون كل الرسائل التي تلقاها في منامه وكل التفاصيل التي وصلت إليه, وما أن أتمها بالكامل جلس يفكر وحيداً بعد أن جفاه النوم.

ومع إن الرسائل ومهماتها كلها مؤجلة التنفيذ لما بعد رأس السنة, وعقب وحفل تسليم السلطة في الدول الثلاث لكن محفوظ تملكه شعور بالقلق على زينب التي حذره الأطفال الملائكة من البوح لها بأي شيء عن السر الذي يخفيه عن الجميع. لا تخبر زينب بأمرنا كي لا تفقدها! زينب التي أمست هي كل شيء بالنسبة إليه. عليه أن يحتاط في كل خطوة يخطوها مستقبلاً ليدفن

سره مع نفسه ولا يدعها تعرف بأي من تفاصيله. لقد أتاه الأمر الذي كان ينتظره ويحيره. لقد حسم الأطفال الملائكة الأمر.

قام من مكانه بعد برهة وأتصل بجميل بن رباح بالشفرات ذاتها المتفق عليها بين الأثنين للأمان طبعاً وكما هو معتاد, طلب بن رباح من محفوظ أن يهيئ له كل الأدلة المحفوظة لديه: الهارد الإضافي, والوثائق والرسائل التي عند محفوظ, أخبره إنه يحتاجها اليوم ليفضح المتآمرين. كان بن رباح مستعجلاً فقطع الاتصال بعد دقيقة واحدة وحوار مقتضب:

- اسرع يا محفوظ فاليوم هو يوم الانتقام!

وما هي إلا ساعة حتى جاء بن رباح وأخذ كل الأدلة من الباب ورحل عن محفوظ, وكان ذلك هو اللقاء الأخير بين الأثنين فعلاً.

بقيت عيون محفوظ معلقة بسيارة صديقه بينما تلاشت مبتعدة عن البيت بسرعة. بن رباح ذلك الرجل الثري الذي سخر نفسه وكل ما يملك من أجل مساندة محفوظ في مهمته من أجل بلد ليس بلده. رجل جزائري خاطر بحياته وكل ما يملك من أجل بلد ليس ببلده وشعب ليس بشعبه. قبل المخاطرة رغم علمه ببطش وقسوة العصابة التي يحاربها ويعمل ضدها, على عكس

الملايين من العراقيين الذين شاركوا بطائفيتهم العمياء وتعصبهم القومي والديني والمذهبي بتدمير بلدهم وتفتيته لثلاث دول هزيلة ومتناحرة.

قبل أن يرحل بن رباح, وبعد أن أخذ كل الأدلة, قال لمحفوظ جملة تردد صداها طويلاً لدى محفوظ:

- نهايتهم صارت قريبة!

رحل بن رباح وترك محفوظ وحيداً قبل أن ينجز المهمة تماماً. نظر محفوظ بوجه صديقه نظرة أخيرة, كانت نظرة الوداع الأخير بين جنديين في خضم حرب شرسة. لم يستطع محفوظ أن يخبر صديقه بأنهما لن يريا بعضهما مرة أخرى. الأطفال الملائكة قالوا له إن لقاءه ببن رباح سيكون الأخير لكن عليه أن لا يخبره بذلك. محفوظ كان يجهل حينها كيف سيختفي بن رباح عنه للأبد, لكن قلبه يستشعر بالقدر الذي كان يتربص بصديقه وحارس مهمته الجليلة. لكن محفوظ لن يتوقف مهما حدث, لقد حسم أمره مسبقاً وقرر المضي قدماً في المهمة التي لم يتبقى لها سوى خطوات قليلة ويتمها.

الفصل الرابع عشر

الرسالة العاشرة

" نشر الأدلة وعروش تسقط "

لم يخطر ببال احد أن ذاكرة إضافية لكومبيوتر بحجم علبة سجائر تقريباً, وبضع قصاصات ورقية؛ تفعل كل هذا الفعل الذي حصل وتحقق! فبعد يوم واحد فقط من قيام بن رباح بنشر تلك الوثائق والأدلة والرسائل والصور المخزنة على الهارد الإضافي على موقع الكرتوني متخصص بنشر مثل تلك الفضائح الدولية, والتي بعد نشرها بدقائق قليلة أخذت تطيح بعروش الظالمين الواحد تلو الأخر. حدث ذلك في نفس اليوم الذي ودع فيه محفوظ بن رباح ساعة اخذ منه الهارد والأدلة: لكن فرحة محفوظ لم تكتمل؛ فقد قتلوا بن رباح بعد ساعات قليلة من قيامه بالنشر, قوة مسلحة كبيرة دخلت فندقه وقاموا بقتله, تتبعوه وقاموا بتصفيته بعد أن كشفوا موقعه وهويته. بعد أيام قليلة ألقي الأمين العام للمنظمة الدولية بنفسه خطاباً في الجمعية العامة اعترف فيه بضلوع موظفين ينتمون للمنظمة الدولية بمؤامرة قذرة حصلت في العراق, وقدم اعتذاره بالنيابة عن المنظمة للشعب العراقي وتوعد بمحاكمات علنية ستطال المتورطين.

كما أنه قضى ساعة كاملة في خطبته تلك مطأطأً رأسه وهو يعلن للعالم أجمع أن ممثله المعين في العراق(مارك بايدن) هو المجرم الرئيس وزعيم لتلك المؤامرة الدنيئة.

حفل تسليم السلطة تم إلغائه, فالثلاثة الذين زورت الانتخابات لصالحهم لم يتسلموا السلطة في الدول الثلاث كما هو مخطط له, لقد تم إيداعهم في السجن, بعد أن خرجت الجماهير الغاضبة في الأيام القليلة التي أعقبت كشف المؤامرة, فوضت حكومة عراقية وطنية مؤقتة بزعامة شخص وطني تمهيداً لفترة انتقالية وانتخابات ديمقراطية فعلية.

الشعب توحد خلف الحكومة الانتقالية وخلف الزعيم كما لقب العراقيون رئيسهم الجديد. خرج الرئيس الجديد بعد إعلان تسلمه للمنصب وتوسط الحشود التي توجهت لتزيل الحواجز من على الجسور وهو يهتف مع الجماهير العريضة التي تلاقت عند الجسور في مشهد غاب عن بغداد أربعة أعوام عجاف.

محفوظ كان مع تلك الحشود التي أزالت حواجز جسر الأئمة وقد شاركهم في ذلك. لقد تذكر تلك الأيام التي وقف فيها خلف تلك الحواجز المقيتة, وتذكر أحلامه التي صنعت المستحيل. شعر بزهو عارم؛ إنه النصر.

البطاقات المقيتة غسل عارها نهر دجلة بعد أن رمى كل أهالي بغداد ببطاقاتهم في النهر يوم الوحدة.

وكذا الحال في بقية المحافظات وقد صار ذلك تقليداً حتى أن الفرات قد شارك شقيقه دجلة في المدن والقرى المطلة عليه.

خطب الزعيم في الأول من كانون الثاني عام 2022 خطبة جعل كل العراقيين وقتها يذرفون الدموع لأنه بدأ خطبته تلك بدموع الغيرة.

شيدت المراقد المهدمة: مرقد الجوادين في الكاظمية, أبي حنيفة في الأعظمية, والعسكريين في سامراء.

سيق المجرمون من كل المدن للمحاكم زمرا, شاشات التلفزيون عرضت للناس المحاكمات العلنية التي تفتتح بالاتي:

بسم الله وبسم الشعب تشكلت محكمة الوحدة في العاصمة بغداد.

رأس الأفعى (مارك بايدن) قدم هو الأخر ليحاكم مع العملاء الثلاثة في المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي والجلسات كانت علنية أيضاً.

عاد الناس بالملايين لبيوتهم من الهجرتين الخارجية والداخلية وتشكلت لجان خاصة في كل المناطق للأشراف على ذلك.

معسكرات النهروان للاعتقال القسري تم إغلاقها وصنفت من قبل المنظمة الدولية كجريمة ضد الإنسانية.

في غضون شهر واحد سحبت كل دول العالم اعترافها بالدول الثلاث وأعلنت الاعتراف الصريح بجمهورية العراق ممثلاً رسمياً للشعب العراقي بكل أطيافه و مذاهبه ومكوناته.

في حملة نادى بها ناشطون على مواقع التواصل الاجتماعي لرفع العلم العراقي بألوانه الأربع وكلمة الله أكبر التي تزينه على سطوح المنازل دخلت موسوعة غينتس للأرقام القياسية وعدت بمثابة استفتاء الشعب العراقي لتقرير المصير, صورها العالم كله من خلال برامج تلفزيونية عرضت في أغلب دول العالم.

محفوظ وزينب رفعوا أكبر علم في حي الكرادة غطى واجهة منزلهما بالكامل.

كانت الجماهير تحتفل بشكل يومي على شكل أعراس سيارة تعبر الجسور بين الكرخ والرصافة وكذا الحال في كل مدن العراق من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.

أهالي البصرة نظموا رحلات مجانية نحو الرمادي وتعود أخرى بالمثل من الرمادي إلى البصرة. دهوك, أربيل, السليمانية, وكركوك حذا أهلها حذو أهل البصرة وتبعتهم جماهير النجف, كربلاء, العمارة, والديوانية

,الناصرية, السماوة, الكوت, الحلة, ديالى, تكريت والموصل. أفواج تمر كلها في بغداد وتحتفل هناك يوماً كامل.

أشرقت شمس العراق من جديد بعد ظلام دامس دام لأربعة أعوام من الفرقة والتشرذم. وكان لذلك النصر جندي مجهول اكتفى بالوقوف بالظل, وبمشاركة الناس الفرحة والسرور مخفياً عن الناس دوره الفذ, ورسائل الأطفال الملائكة التي تلقاها ووحدت البلد وكشفت المتآمرين.

الفصل الخامس عشر

الرسالة الحادية عشرة

"إعادة القطعة الناقصة للنصب, من دونها

يخلو النصب من روح جواد سليم "

كل ما تبقى لدى محفوظ رسائل ومهمات أربع عليه أن ينجزها ويكمل المهمة برمتها. فبعد أن خرج وشارك الجماهير هو زوجته زينب افراحهم بالوحدة ونهاية عهد التقسيم المظلم, كرس محفوظ معظم وقته وحياته لنشاطات الوحدة وفعالياتها الكثيرة في البلد, ينظم فعاليات احتفالية, يساعد العوائل التي تعود لمنازلها التي هجروا منها أيام التقسيم, يزيل الشعارات الطائفية التي كانت تملأ جدران البيوت والبنايات العامة, ويساعد الناس في رفع الحواجز التي كانت تقسم البلد, فهو كان في مقدمة الجماهير التي رفعت الحواجز من حول المنطقة الدولية الخضراء, التي فتحت للناس وأصبحت تعرف بمنطقة الشعب, وتحولت أغلب مرافقها في وقت لاحق لمنتزهات وأماكن ترفيهية. لكن لدى محفوظ مهمة يجب عليه أن ينجزها: خرج محفوظ من داره صبيحة يوم العاشر من كانون الثاني عام 2022, كان يوم الذكرى السنوية لاندلاع الحرب الأهلية, والذي قررت الحكومة العراقية الفتية أن تجعله يوماً وطنياً لتوحيد البلد؛ لتمحو من ذاكرة العراقيين ذكرى تلك الحرب الأليمة.

محفوظ كان يحمل بين ذراعيه اللوح السومري الذي أرسله له الفنان العراقي المغترب (نداء كاظم) ليسلمه لمن سيجدهم عند النصب. إنها المهمة التالية

لديه, وقد عقد العزم على أن يؤديها ذلك اليوم بالتحديد. قلبه دله على ذلك, الأطفال الملائكة أرشدوه لأن يتبع قلبه في مهماته الأربعة الأخيرة.

ركب في سيارة أجره وتوجه نحو ساحة التحرير. قال لزينب أنه سيشارك مع الجماهير العريضة التي ستخرج للاحتفال بالعيد الوطني للوحدة في الساحة الشهيرة.

كان صباحاً جميلاً من صباحات بغداد الموحدة. بغداد التي توحدت بكرخها ورصافتها, وتوحد معها العراق أجمع.

في الطريق شاهد محفوظ الإعلام العراقية ترفرف في كل مكان من حوله: فوق أسطع البيوت والمباني العالية, السيارات, وتلك التي كانت ترفرف فوق هامات الجماهير التي تحملها. رافقه ذلك المشهد منذ اللحظة الأولى التي ركب فيها سيارة الأجرة حتى وصل لساحة كهرمانة التي تزينت هي الأخرة بحشد كبير من الأعلام الكبيرة والجماهير الغفيرة التي كانت تزحف نحوها مروراً بشارع السعدون متوجهة لنصب الحرية حيث يقام الاحتفال المركزي هناك.

كان الناس يرقصون بفرح غامر, شيباً, شباباً, رجالاً ونساء, حتى الأطفال ببراءتهم عبروا عن فرحهم ذلك اليوم بتواجدهم بين الجماهير المحتفلة.

حشود غفيرة جاءوا للساحة من كل أنحاء العاصمة, وحتى من المدن الأخرى تواجدوا هناك وراحوا يرددون هتافات الفرح وتمجيد الوحدة. لافتات من البصرة وأربيل والرمادي وغيرها من المدن العراقية التي شارك أهلها جماهير العاصمة تلك الفرحة.

لكن محفوظ, ولما تراءى له النصب من بعيد, بعد أن ترجل من سيارة الأجرة, أخذ قلبه يخفق بشدة, كان المنظر مهيبا, الجماهير تحف النصب المتألق من كل جانب وكان هناك نفر عمال معلقين فوق صقالات معدنية منصوبة أمام النصب, لمحهم محفوظ من بعيد, كانوا يكملون عملية ترميمه على ما يبدو. لم يكن النصب موجوداً في المرة السابقة التي زار فيها محفوظ المكان. شاهد حينها مكانه الخالي من هيبته المعتادة. مجرد أطلال حولها بعض الركام الذي خلفه هدم النصب, لكن المشهد ذلك اليوم كان مختلفاً, عاد النصب شامخاً بعد أن أكتمل بناءه تقريباً, الهيكل الخرساني على شكل لافتة عريضة يشمخ في مكانه, ومعظم القطع البرونزية مثبتة عليه في مكانها فيما خلى من فراغ يشوه المنظر الجميل. أقترب محفوظ من النصب حاملاً معه القطعة الناقصة, لاحظ محفوظ مكانها الخالي من بعيد, الحفرة المستطيلة عند أسفل القاعدة اليمنى للنصب. القطعة التي يناظر حجمها حجم المكان الخالي بالضبط يحملها محفوظ بين ذراعيه.

هذا ما لاحظه محفوظ وهو يشق طريقه بصعوبة وسط الحشود المتجمعة هناك حين وصل على مقربة من المكان. وقف حينها ليلتقط أنفاسه وتلفت يبحث عن مسؤول عملية الترميم هناك.

وسرعان ما توجه نحو مجموعة عمال تجمعوا تحت النصب كانوا منشغلين بأعمال الترميم. كان محفوظ متلهفاً لأن ينجز المهمة؛ فتوجه نحوهم حاملاً معه القطعة الناقصة. أومأ لأولئك العمال بيده, فتقدم نحوه شاب وسيم تبين له لاحقاً أنه المهندس المشرف على العمل, سلم على محفوظ بصوت عالي لكن محفوظ لم يسمع كلماته بوضوح بسبب الجلبة الكبيرة الصادرة من الحشود الكبيرة المحتفلة من حولهم؛ فالشوارع كانت غاصة بالناس عن أخرها من حول النصب.

- عندي القطعة البرونزية الناقصة...

لم يفهم ذلك المهندس ما قاله له محفوظ, فأخذه المهندس من يده وتوجها مشياً نحو حديقة الأمة خلف النصب التي سور جزئ منها بسور حديدي ليحفظوا فيها بعض مواد العمل والآليات اللازمة لعملية الترميم, وكانت بعيدة عن الجماهير قليلاً بحيث صار المكان أكثر هدوءً ليتمكن محفوظ من الكلام مع المهندس ويشرح له الأمر. وبعد أن تعارفا قال محفوظ للمهندس الشاب:

- عندي القطعة برونزية التي تكمل النصب! اللوح المسماري البرونزي الي مكانه جوه بالقاعدة اليمنى!
- ها! جيد...

المهندس بعد أن تناولها من بين ذراعي محفوظ:

اي والله فعلاً هي! بالضبط... شكراً يا أستاذ محفوظ... تعال وياي استاذ لمكان قريب من هنا؟ للورشة الي نصبناها بناية ثانوية العقيدة للبنات, هي مو بعيدة, لازم نسجل أسمك وتلتقي بالفنانين اللي أشرفوا على أعادة النصب, لازم تسلم عليهم, القطعة اللي جبتهه حضرتك جانت مدوختهم!

لم يعترض محفوظ على ذلك, وتوجه مع المهندس من فوره أملاً منه أن يجد من بين الفريق احد الفنانين التشكيليين الثلاثة الذين رافقهم هنا ذات مرة قبل الوحدة, وأعطوه الهدية من الفنان المغترب (نداء كاظم)

لما دخل محفوظ بناية الثانوية, وجد عدداً كبيراً من الشبان يعملون بجد على نحت وتقطيع الحجر وصقل البرونز, قسم منهم كانوا يرسمون على ورق كبير تخطيطات لتماثيل ونصب أخرى, لم ينتبه أحد منهم لوجود محفوظ؛ فالضوضاء كانت عالية. صاح بهم المهندس بصوت عالي:

- اللوح السومري الناقص بنصب الحرية يا شباب! سلمه النه الأستاذ محفوظ ! هوينه يا شباب!

"وكان بين يدي المهندس بعد أن أخذه من محفوظ "

الجميع تركوا ما بأيديهم وهرعوا نحو المهندس الذي وضعه على طاولة خشبية فتفحصوه بأيدهم, وكانت الفرحة بادية على وجوههم.

فعرفهم المهندس بمحفوظ وعرفهم إليه حيث قال له:

- هؤلاء الشباب الذين تراهم يقطعون الحجر ويصقلون البرونز هم طلاب كلية الفنون الجميلة تطوعوا للعمل من يعاونهم فنانون ونحاتون من جميع المحافظات لإعادة وترميم معالم بغداد الأثرية والنصب والتماثيل. وهناك (وأشار بيده إلى مجموعة من الأساتذة الجالسين في مكتب كبير وسط القاعة الواسعة) هم أساتذة الكلية, وهم من تطوعوا للإشراف على عمليات البناء والترميم لجميع النصب التذكارية والتماثيل التي تهدت وسرقت أيام التقسيم.

محفوظ بعد أن خاب فأله في أن يرى أحد أصدقائه الفنانين الثلاثة في المكان, فهم لم يكونوا حاضرين هناك فقال للجمع:

- طبعاً استعنتم بالفنانين العراقيين المغتربين بالخارج...

وحاول بجملته تلك أن يصل إلى الفنانين الثلاثة أو الفنان العراقي المغترب (نداء كاظم) الذي أرسل له القطعة المفقودة من النصب (اللوح السومري البرونزي)

- نعم بالطبع ...

رد عليه المهندس وبعض الطلاب

- هناك لوحة شرف مكتوب عليها أسماء الفنانين العراقيين اللي تطوعوا للعمل على ترميم وإعادة إعمار النصب والتماثيل المهدمة, قررنا أن ندون أسمائهم على تلك اللوحة حت الناس تعرف دورهم ومساهماتهم.

توجه محفوظ وقرأ الأسماء الموجودة فلم يعثر فيها بينهم لا على أسماء الفنانين الثلاث ولا على اسم النحات العراقي (نداء كاظم) حينها صدم محفوظ وتسرب الشك إلى قلبه! كان يروم التأكد من إن الأمر لم يكن مجرد سهو في إدراج أسماء جميع الفنانين الذين أسهموا في عمليات الترميم. ترك محفوظ اللف والدوران حينها وتوجه بالسؤال المباشر لأحد الشباب الذي كان يقف بقربه مباشرة:

الفنان نداء كاظم مو هو اللي تحمل نفقة ترميم نصب الحرية, أني هيج سمعت! فأجابه الشاب:

- منو النحات (نداء كاظم) رحمه الله ...

محفوظ في دهشة:

- ها توفي نداء كاظم؟ الله يرحمه... بعد الجهد اللي بذله في إعادة نصب الحرية, مات وما شاف بعينه هذا الإنجاز يتحقق...

وراح يردد تلك العبارات مرات متعاقبة وسط دهشة الجميع وهم يتلفتون بوجوه بعضهم البعض مستغربين!

فرد عليه أحد الأساتذة الجالسين في المكتب, وكان على ما يبدو قد سمع كل الحديث الذي دار بين محفوظ وذلك الشاب, وخصوصاً ترحم محفوظ على الفنان (نداء كاظم) و قوله أنه هو من أعاد النصب لما كان عليه:

- يا أستاذ النحات العراقي نداء كاظم أستشهد في بداية الحرب الأهلية عام 2019, كان في داره في حي البلديات ببغداد ينحت تمثالاً فقتلوه لأنهم قالوا عنه أنه كافر يبني الأصنام...

وكركر ضاحكاً وقال بلهجته البغدادية:

- على أساس أنهم من قتلوا مليون عراقي بالحرب الأهلية كانوا أنبياء!

لم يصغ محفوظ لأي كلام بعد ذلك ورحل عن المكان وعاد أدراجه إلى البيت بعد أن سلم القطعة وثبت أسمه في سجلات خاصة تخلد أسماء الذين يعيدون الآثار المفقودة.

وصل محفوظ للبيت ظهر ذلك اليوم متعباً ومشوشاً. ما قله له ذلك الأستاذ عن موت النحات العراقي نداء كاظم أبان الحرب الأهلية صدمه وزعزع ثقته بنفسه. من أرسل أولئك الفنانين للنصب؟ لقد رافقهم محفوظ بنفسه قبل أشهر قليلة! هل الرسالة الموقعة من نداء كاظم لمحفوظ مزيفة؟ تضاربت الحقائق عند محفوظ, وتزعزعت ثقته بنفسه مجدداً! كانت زوجته زينب تعد طعام الغداء حينها, دلف لحجرة النوم دون أن يتبادل معها الأحاديث المعتادة. لا بل حتى إنه لم يطلب منها تحضير الطعام كما تعود على ذلك حين يرجع للبيت من بعد مشوار طويل مثل مشواره ذاك. لم يكن يشعر برغبة بالحديث مع أي أحد, أراد العزلة ليفكر بالأحداث التي مر بها ذلك اليوم, وبالمفاجئة التي تلقاها. بكلمات قليلة أخبر زينب أنه متعب وسوف ينام, طلب منها أن لا توقظه من النوم لأي سبب كان.

لما دخل الغرفة, وجلس على السرير, تردد صوت ذلك الأستاذ في مسمعه مثل وقع مطرقة كبيرة تدك رأسه المشوشة:

" يا أستاذ نداء كاظم قتل في بداية الحرب الأهلية عام 2019 في داره في البلديات قتلوه لأنهم قالوا عنه أنه كافر يبني الأصنام...

فراح محفوظ يردد مع نفسه:

- أنا مجنون ... أكيد أنا مجنون ...
- لا وجود لنداء كاظم ولم تصلني منه رسالة ولا حتى الأطفال الملائكة, هم من نسج خيالي ... أنا مجنون!
- من أنا؟ أنا لست محفوظ! وأنا لست هنا في العراق...

جملاً هستيرية سريعة رددها محفوظ مع نفسه وهو يرتعش ويحرك رأسه في كل الاتجاهات, وأحياناً كان يضرب بقبضته على مسند السرير بقوة.

حاول محفوظ أن يستجمع كل الإحداث من جديد لعله يقنع نفسه بشيء ما, ربما بيقين يشفي حيرته تلك, لقد وصل به الأمر للشك في نفسه, وحتى من هم حوله؛ فتح باب الغرفة بحذر ليتأكد من أن زوجته زينب موجودة أصلاً, فهو قد شك حينها حتى بوجودها في البيت, هل كانت زينب هي الأخرى من نسخ خياله؟ فلمحها بعد برهة تخطف من المطبخ نحو الصالة, ورغم

مشاهدته لها في تلك الفينة إلا إن ما جرى له من هزة قوية صباح ذلك اليوم أثرت به وجعلته يعيش في دوامة شك عملاقة لدرجة أن أخذ ينكر حتى وجود زوجته التي يحب في حياته.

فتح خزانة الملابس فوجد ملابسها في مكانها, كان يبحث عن أي شيء يساعده على رد ثقته المهزوزة بنفسه, وبالأحداث التي عاشها بخصوص رسائل الأطفال الملائكة وكل شيء, وتذكر الكشكول!

قفز من مكانه وفتح باب الغرفة وأنسل خلسة نحو مكتبه في الصالة, تناول الكشكول المخبئ في الدرج المغلق وعاد نحو الغرفة بهدوء كي لا تلاحظه زينب.

جلس يقلب بصفحات الكشكول الكثيرة, فتح الصفحة الأولى, أول أحلامه حيث كان على جسر الأئمة, ثم راجع جميع الأحداث التي عاشها ودونها بنفسه بين طيات هذا الكشكول. وحين وصل للصفحة الأخيرة, وضعه في حجرة وأستل تلك الرسالة من النحات العراقي (نداء كاظم) التي أرسلها له رفقة اللوح السومري البرونزي, مع أولئك الفنانين العراقيين المغتربين الثلاثة, والتي أخبره فيها أن هذه القطعة تمثل جوهر النصب, وما أراده أستاذه جواد سليم من فكرة تصميم وتشييد النصب, ولم يكن اللوح مجرد

قطعة من البرونز منقوش عليها حروف سومرية, هذا ما ورد في تلك الرسالة لمحفوظ من النحات العراقي نداء كاظم, لكنه لم يقتنع بذلك أيضاً؛ لأنه راح يردد:

- أنا من كتب كل هذا, لا وجود لكل شيء من حولي, حتى أنا غير موجود أصلاً**!** حتى هذا الكشكول, أنا من أبتدعه ودون فيه كل هذه الصفحات, هذا إن كنت أنا موجود فعلاً**!** وإن كان هذا الكشكول هنا فعلاً**!**

خاض محفوظ حينها صراعاً مريراً مع وسواس أهوج تملكه وأوصله لحافة الجنون. وبعد أن تعب من كثرة التفكير في الصدمة التي هزت كيانه صباح ذلك اليوم, أغشي عليه وغط في نوم عميق لم يصحو منه حتى المساء على صوت زينب وهي توقظه من النوم.

لاحظت زينب أن زوجها قد تغير, أمر ما يحدث لمحفوظ, فقد رفض محفوظ أن يتناول طعامه, وبدى عصبياً على غير عادته, خرج من المنزل نحو الشارع حتى دون أن يخبرها بوجهته. لقد أراد محفوظ حينها العزلة عما حوله, أو الهروب من واقعه الذي تحول لوهم مطبق. توجه نحو المنتزه القريب من بيته, جلس هناك وحيداً لساعة يتأمل مع نفسه ويتذكر كل تلك

الأحداث. النحات الذي أهداه قبل شهور جزئ ناقص من نصب الحرية تبين له أنه مقتول قبل أربعة أعوام!

لكن محفوظ تمالك نفسه, هو على الأقل لم يستسلم لوقع الصدمة الكبيرة, لقد كان قوياً فعلاً. فلقد أتخذ قراراً مهماً, فعلى الرغم من تسرب الشك لقلبه بكونه يعاني نوعاً من الفصام, وباعتقاده البات بعدم تلقيه للرسائل لا من الأطفال الملائكة ولا غيرهم, إلا أنه ومن خوفه على زينب التي يحبها تذكر وصية للملائكة الأطفال بوجوب عدم البوح لها بالأمر لأن ذلك سيؤدي لفقدها بطريقة ما؛ فقرر أن يلتزم بها, ولا يشكو أو يحكي لزينب عن قصة ذلك النحات العراقي ولا عن الرسائل والمهمات التي فكر- في لحظة ضعف - في أن يشاركها سرها لعلها تساعده بشيء يحل له خيوط اللغز الجديد التي التفت حوله وأوصلته لحافة الجنون.

تلك الرسالة, بخصوص زينب ووصية الأطفال له بعدم البوح لها بالسر جعلت محفوظ يتمالك نفسه ويصمد.

- كي لا أفقد زينب!

قالها محفوظ لنفسه بثقة قبل أن يعود للبيت.

كما وأنه قرر في المنتزه أن يتصرف على سجيته السابقة, وأن يحافظ على رباطة جأشه, ولا يشعر زينب بأي شيء قد يلفت نظرها لما كان يعانيه من صراع مرير مع ذاته وأحداث لا شاهد عليها سواه هو نفسه, وكلمات دونها بنفسه في كشكول وبضع قصاصات ورقية. فجميع شهوده أموات قضوا نحبهم, النقيب الأمريكي داوني, الجزائري بن رباح, نداء كاظم الذي أرسل له تلك الرسالة, حتى الأطفال الملائكة قد رحلوا وتركوه في أحنك أوقاته وأحوجها إليهم!

وحتى الفكرة التي خطرت له في المتنزه بأن يسأل زينب سؤال عرضي عن عملها السابق مع بن رباح كي يتأكد أنه كان موجوداً فعلاً, وهل إنه فعلاً قد قتل, قد أستبعدها من تفكيره ورفضها وعدل عنها كي لا يكون لرد زوجته عليه وقع كوقع رد ذلك الأستاذ عليه في مدرسة العقيدة للبنات في الورشة, والذي سبب له هذا ذلك الجرح الغائر في وجدانه, بحيث أنه لم يعد يثق في كل ما حوله.

بعد أن أوى محفوظ للفراش ودخلت عليه زينب للغرفة مازحها كي لا تشعر بالهزة التي تعصف بكيانه, تبادل معها أحاديث عابرة, تصرف على سجيته معها كي لا تشعر بشيء مما كان يعانيه. لكن زينب حاذقة, تقرأ ما بين سطور زوجها الذي تبدلت أحواله فجأة. لقد ظنت أن الفراغ الذي كان يعيشه

زوجها هو من غيره للحالة التي بدا عليها, وسببت له تلك الهزة التي كانت بادية عليه.

وهي جالسة بقربه, اقترحت عليه أن يذهب لنقابة المحامين ويجدد هويته القديمة ويزاول مهنة المحاماة ليشغل وقت فراغه. كانت نصيحته له كالبلسم العجيب, فجأة تبدلت أحول محفوظ, لقد راقت له الفكرة ووافق عليها. وقال إنها فكرة سديدة, وعدها بأن يفعل ذلك, في الغد سيتوجه ليكمل الإجراءات.

بعدها تمكن التعب والنعاس من محفوظ وغط في نوم عميق, أطفأت زينب نور الحجرة وخرجت من عنده لتكمل عملها في المطبخ...

- أين أنت يا عم محفوظ؟
- نعم أنا هنا! لماذا كذبتم علي بخصوص نداء كاظم؟

الأطفال:

- كلا لم نكذب يا عم, نحن لا نكذب, أنه فعلاً من أرسل إليك اللوح والرسالة, نحن ميتون وقد ساعدناك في كل شيء... نحن أرواح مثله هو أيضاً ميت, وروحه طاهرة! لقد ساعدك وأرشدك بروحه.
لا تقلق أنت لست بمجنون, واللوح السومري كان يحتفظ به في بيته فعلاً, لقد اشتراه قبل موته وخبأه في بيته, هو من أرسله إليك, أو

بالأحرى روحه, أسمك اليوم مدون هناك, نحن قررنا عدم العودة إليك لكننا خشينا عليك وعلى عقلك, وكي تعلم:
ستلاقي بالرسائل الثلاثة ما يشبه أحداث اليوم, لكن لا تقلق فأنت المنقذ وحافظ على زينب...

استيقظ محفوظ من نومه فوجد زينب نائمة بجانبه, أيقظها محفوظ فرحاً لأنه تأكد إنه لم يكن مجنوناً يتخيل أحداثاً لم تحصل. جاءه البرهان واستعاد ثقته بنفسه مجدداً.

توجه محفوظ يومها إلى نقابة المحامين العراقية. بعد أن تناول محفوظ طعام الإفطار خرج من البيت متأنقاً على الأخر, وقد سببت له أناقته الزائدة تلك قرصه من زينب بأظفارها الطويلة ممازحة إياه أنه ربما قد تسرقه منها واحدة من المحاميات الجميلات اللواتي سيعمل معهن في المحكمة.

رد عليها محفوظ بقبلة طبعها على جبهتها, قال لها إن نساء الدنيا جميعهن لن يزحزحنه عن حبها. لقد استعاد محفوظ ذاته بعد عودة الأطفال الملائكة إليه في منامه. كانت عودتهم إليه ذلك اليوم مصيرية؛ إذ لولا منامه بهم تلك الليلة بالتحديد لربما قد إنهار محفوظ وسقط في هاوية الجنون. كانت زيارتهم له تلك الأخيرة! وقد فهم محفوظ ذلك جيدا.

وبعد أن توجه للنقابة وقضى هناك معظم أوقات النهار ليقدم أوراقه ويتم الإجراءات التي تكللت في نهاية المطاف بإصداره لهوية جديدة ورخصة لمزاوله المحاماة مرة أخرى.

بعد أن أستصدر محفوظ الهوية, لم يعد للبيت مباشرة, بل توجه نحو نصب الحرية مرة أخرى لسبب ما!

نزل من سيارة الأجرة وتوجه نحو النصب الذي بدى مكتملاً تماماً؛ اللوح السومري كان قد ثبت في مكانه عند أسفل القاعدة اليمنى للنصب. توجه محفوظ نحو النصب قلقاً, كان يبحث عن شيء ما هناك! إنها اللوحة الكبيرة, لوحة الشرف, تلك التي وضعت تحت النصب, لافتة كتب عليها شيء ما, اقترب منها محفوظ وقرأها:

...نوجه شكرنا وتقديرنا للذوات المدرجة أسمائهم في أدناه ممن أعادوا القطع الأربعة عشر التي سرقت من النصب...

وكان أسمه يتذيل القائمة ومكتوب قبالته:

"اللوح المسماري البرونزي أعاده المواطن العراقي محفوظ كأخر قطعة من قطع النصب ولولاها لما أكتمل النصب, فهي على رأي الفنان الراحل نداء كاظم بدونها النصب يخلو من روح جواد سليم رحمه الله "

فالتفت محفوظ من حوله, فمر شاب يحمل كتباً استوقفه محفوظ فطلب منه أن يقرأ له حيث أشار له بسبابته متحججاً له بأن اليافطة عالية ولا يستطيع قراءة ما مكتوب عليها بوضوح, فقرأ له الشاب كما قرأها هو نفسه, فتبسم محفوظ وظل واقفاً قبالة النصب يتأمل قطعه الأربعة عشرة قطعة لبرهة من الزمن بعد رحل ذلك الشاب ثم قفل محفوظ بعد ذلك راجعاً لبيته فرحاً لأنه فعلاً كان يحلم ولم يكن مجنوناً. هم أخبروه, الأطفال الملائكة قالوا له:

أسمك مدون ستجده هناك...

كان ذلك الدليل الذي أقنعه بأن كل الأحداث التي مر بها حقيقية ولم تكن من نسج خياله.

الفصل السادس عشر

الرسالة الثانية عشرة

" زر ماضيك حيث عملت بعد الملجأ هناك لك رسالة "

حل الربيع في العراق قبل أوانه ذلك العام, وأزاح دفئه برد الشتاء القصير على حين غفلة, أورقت أشجار الحديقة في بيت محفوظ وزينب وأزهرت تحمل لهما الخير, ليست أشجارهم فحسب بل إن زينب هي الأخرى لديها خبر لمحفوظ حين سمعه طار من الفرح.

- محفوظ أنا حامل بالشهر الثالث!

أخيراً قرر محفوظ أن يصبح أباً ويكون أسرة, كان يرفض تلك الفكرة بشدة, لطالما جابه رغبة زينب بالرفض, لكنه أخيراً أقتنع ووافق. لم يكن رفضه للفكرة بلا مبرر, أو مجرد عناد عابر, كان يخشى من أن يلقى أطفاله المصير ذاته. حادثة واحدة جعلت من محفوظ يقرر على إثرها أن يعدل عن رأيه ويصبح أباً وينجب أطفالاً. قال وقتها لزينب:

" اليوم تأكدت أن بإمكاننا أن ننجب طفلاً له مستقبل في هذا البلد "

زينب فرحت كثيراً حينها, وسألته عما كان قد غير رأيه, وما الذي طرأ؟ كان وقتها راجعاً للتو من المحكمة, دخل البيت فرحاً فقال لزينب:

- زينب اليوم جابوا شيخ دين مجتف!

روى لها الحادثة متشفياُ, كان شيخ دين جلبه الناس مقيداً للمحكمة بالقوة, كانوا من طوائف مختلفة, شيعة, سنة, مسيحاً, عرباً وأكراداً, جلبوه للمحكمة من حي من أحياء بغداد والقوا به في باحة المحكمة بالجرم المشهود!

ردت عليه في وقتها زينب مستفهمة:

- ليش شسوة الشيخ؟

فرد محفوظ وهو يسرد لها بشغف بما جرى لذلك الشيخ في قاعة المحكمة:

- حضرته أعتلى المنبر وألقى خطبة!

زينب:

- ما كانت خطبته؟

محفوظ رد بذات التشفي:

- خطبته كانت التحريض على الطائفية!

وفهمت زينب ماذا قصد زوجها وردت:

- أحسن والله شرعوا قانون تجريم الطائفية في البلد

وقال لها حينها:

- اللي صار بالبلد كله من وره راسه وراس أمثاله

ردت زينب حينها عليه:

- أي والله صدك...

كانت تلك الحادثة هي السبب الحقيقي وراء رغبة محفوظ في انجاب الأطفال وتكوين أسرة والاستقرار في العراق. ولدى محفوظ مفاجأة أخرى لزينب!

ففي يوم الحادي والعشرون من شهر آذار عام 2022 تهيأ الزوجان للخروج بنزهة ربيعية, إنه عيد نوروز أو عيد الربيع الذي يحتفل فيه كل العراقيين بالخروج للمنتزهات والحدائق العامة. قال لها:

لدي مفاجأة لك يا زينب!

بعد نهار طويل قضاه الزوجان في حديقة الزوراء, حيث تناولا غدائهم هناك وسط العائلات الكثيرة التي تجمعت بتزاحم كبير في المتنزه, كونه عيد

الربيع الأول بعد الوحدة, مناسبة حرم العراقيين من الاحتفال بها لأربعة أعوام مضت, فالاحتفالات كانت ممنوعة من قبل المتطرفين أيام التقسيم.

قرابة العصر لملم الزوجان أغراض الغداء وفراش النزهة الجميلة, زينب متشوقة لأن ترى المفاجئة التي وعدها بها محفوظ ذاك الصباح فذكرته بها فقال لها:

...اصبري شوية ولا تستعجلين على رزقج...

ركب الزوجان سيارة أجرة وسارت بهما نحو المكان الذي ستعرف فيه زينب المفاجأة التي وعدها بها زوجها. محفوظ طلب من زينب أن تغمض عينيها ولا تفتحهما إلا بعد أن يطلب منها. كانت تراوغ بالنظر خلسة, لكن محفوظ كان منتبه لها, كلما حاولت النظر يكزها بسبابته ممازحاً إياها!

- لا تغشين!

حتى سمعت منه الأمر:

- هسه افتحي عيونج...

لما فتحت زينب عينيها لم تصدق ما رأته؟

يافطة كبيرة معلقة على واجهة شقة في منطقة زيونه الراقية مكتوب عليها:

" شركة زينب للاتصالات ولخدمات الإنترنيت "

نزلت من سيارة الأجرة ورفعت رأسها تنظر نحو اليافطة العالية وهي تمسح عينيها غير مصدقة لما تراه, إذ لطالما حلمت زينب في تأسيس مثل تلك الشركة.

فقالت لمحفوظ وهي تتلعثم:

- هاي الشركة بسمي؟ أكيد تتشاقه؟

محفوظ:

- يالله شوفينا شطارتج! وبعد عندي الج مفاجئات اليوم!

أمسك محفوظ يد زينب ودخل معها باب العمارة, ارتقيا السلم سوياً حتى وصلا لباب شقة المكتب المعلق فوقه يافطة نحاسية أنيقة يتصدرها أسم الشركة. ناولها مفتاح فتحت به زينب الباب الخشبي كما طلب منها محفوظ فوقفت مذهولة من أناقة الأثاث وفخامته. كان المكتب مجهز بكل شيء يخص خدمات الاتصالات والإنترنيت بحسب خبرتها الطويلة باعتبارها مهندسة اتصالات وقد مارست العمل في شركة بن رباح سنوات عدة.

تفقدت الزينب الأجهزة في الشركة التي جميعها من نوعيات معتبرة ومن صنع شركات عالمية لها شهرة واسعة في صناعة تلك الأجهزة. تعرف زينب إن تجهيز الشركة بمثل تلك الأجهزة الجديدة قد كلفت محفوظ مالاً كثيراً.

فقال لها محفوظ :

- المفاجئة الثانية : تعالي خارج المكتب يا ست زينب! هذا المكتب الذي يقابل مكتبك هنا سيكون مكتبي أنا... وأتبع:
- والمفاجئة الثالثة: هذه الشقة التي في نهاية الممر هناك ترينها؟ سنسكن فيها أنا وأنت والمولود الجديد! وأتبع:
- المفاجئة الرابعة والأخيرة: المحلات التي تحت والشقق الثلاثة كلها ملكنا وهي مسجلة في دائرة التسجيل العقاري باسمك أنت!

زينب وقد تلعثمت تحت تأثير قوة المفاجئات المتلاحقة:

- لكن هذه البناية أنها في زيونة! وهي منطقة راقية وغالية, العقارات فيها مكلفة جداً! من أين لك ثمنها يا محفوظ؟ هل سرقت بنكاً ما؟

محفوظ راح يخبرها بمصدر المال الذي اشترى فيه هذه البناية كلها وسجلها باسمها حيث قال لها أنه ذهب لزيارة ماضيه بالصدفة قبل مدة, توجه لبناية

سينما البيضاء بالتحديد في بغداد الجديدة حيث نام بالماضي تحت سلمها, ولما وصل هناك التقى بصاحب السينما الذي أخبره بالمفاجئة: جميع أموال خالته وقصرها كلها آلت إليه بعد أن تم سجنها هي وزوجها لثبوت تزويرهما الحقائق لسرقة حق محفوظ في التعويض. وقد أخفى محفوظ ذلك عن زينب لأنه قرر أن يعمل ذلك مفاجئة لها.

حتى القصر الكبير التي كانت تملكه خالته قبل هروبها خارج البلد هي من أمواله التي سرقتها منه بالغش والمخاتلة وبنفوذها أيام ما كانت عضواً في البرلمان فقد ألت إليه ملكيته. باعه محفوظ وأشترى بثمنه هذه البناية وخصص شقتين منها كمكتبين لهما وشقتين فتحهما على بعض كي يكون بيتاً واسعاً لهما ولأبنهما الذي هو في الطريق.

وأخبرها أن لها في بيت الكرادة ذكريات تؤلمها يريد أن ينسيها إياها بانتقالهما للسكن في شقتهما الجديدة. وقفت زينب مذهولة حينها. لم تجد الكلمات المناسبة. لم يكن بوسع محفوظ أن يخبرها بكل التفاصيل, راح يذكرها باليوم الذي جاء بورقة وقلم وأخذ يمازحها قبل مدة عن نوعية الأثاث الذي تريد أن يجهز به بيتها, سخرت وقتها منه قائلة:

- ما تكسبه من المحاماة في سنة كاملة لن يكفي ثمن ولو أريكة من أرائك الصالة التي أحلم بها!

حين دخلت وجدت ذلك الطقم قبالتها في الصالة الكبيرة. تذكرت أنها هزأت به عن حلمها في تلفزيون تسعين عقدة وقد سجله محفوظ في الورقة التي كان يحملها ليعرف من زينب نوع الأثاث الذي تطلبه ليجلبه لها:

- وما ماركته يا ست زينب؟
- امم طيب أجعله من أغلى الأنواع!

وهو فعلاً ما وجدته يتوسط الصالة الواسعة. لا بل وحتى أثاث غرفة النوم طلبته ذلك اليوم أن يكون خشباً روسياً من شركة ركن الأثاث في الكرادة فوجدتها فعلاً من ذلك الخشب ومعلم بعلامة ركن الأثاث الشهيرة.

حتى الغسالة الكبيرة, المكواة, والثلاجة الكبيرة. الحمام والرخام المستورد, المطبخ الإيطالي, التحف وكل ما دونته في تلك الورقة بينما كانت تسخر من محفوظ ذلك المساء وجدته في شقة الأحلام ساعتها.

لم تجد زينب غير دموع الفرح طريقة لتعبر لمحفوظ فيها عن مشاعرها. جلست في الصالة تبكي وراح هو يضحك عليها ويكنيها:

" أم دميعه "

دلالة على أنها تبكي في كل المواقف المفرحة منها والمبكية فجلس بقربها وقال لها:

- غداً سننتقل إلى هنا وهنا سيولد ولدنا إن شاء الله ومن الآن لن تتعبي ولن تعملي عند أحد, لك شركتك الخاصة بك وعملك الخاص كما وأن هناك مبلغ كبير باسمك في المصرف وهذا دفتره. لقد زاد عن شراء وتأثيث هذه البناية مال وضعته في المصرف باسمك, فالمال الذي أرجعته الدولة مع ثمن القصر الذي قد بيع بسعر خيالي مبلغ كبير جداً. هذا من جانب ومن جانب أخر المحلات الأربعة في الأسفل, مؤجرة كلها بإيجار سنوي وحده يكفينا طول العام دون أن نعمل يا حبيبتي. بيتك الذي في الكرادة سنؤجره ولن نبيعه لأنه بيتك وبيت طفولتك وأحلامك وسنزوره من أجلك من وقت لأخر.

في اليوم التالي أنتقل الزوجان إلى شقتهما الجديدة ومكتبيهما الأنيقين. جلست زينب مع محفوظ في الصالة تتأمل الحياة المرفهة التي تنعم بها, للمرة الأولى في حياتها, الأمان الذي فقدته يوم فقدت عائلتها. فضفضت زينب

لمحفوظ عن تلك الأيام المرعبة التي عاشتها وحدها في بيتها من غير رجل يحميها في وسط تلك الغابة التي كانت تعج بالوحوش من حولها.

حكت له على أنها أمضت ليالي طويلة وهي نائمة في الحمام لأنها سمعت صوت خطوات شخص خارج جدران صالة بيتها, أو إنها كانت تتوهم ذلك من خوفها. لكنها روت له عن تلك الليلة التي رأت بأم عينها ثلاثة رجال داخل سور بيتها, كانوا يحاولون كسر قفل باب الصالة المؤدي للبيت, ولولا أن دورية شرطة مرت بالقرب من الدار فسمعوا صوت منبهها فهربوا لكانت ميتة هي اليوم لأنها كانت نائمة في الحمام. لما سألها محفوظ عن سبب نومها في الحمام:

- لما كنت تلجئين للحمام في تلك المواقف؟

أجابته بجواب حين سمعه منها طأطأ محفوظ رأسه ووضعه بين رجلية:

- في تلك الفترة ربطت سلك من قابس الكهرباء وقمت بإنزاله حتى الأرض في الحمام جعلته موصولاً بالكهرباء على الدوام كي أكهرب به نفسي ومن يحاول أن يلمسني ثانية, فهم كانوا كالكلاب وقتها ينهشون لحم بنات الناس باسم الدين في كلا المدينتين يا محفوظ.

قال محفوظ وهو يزفر بقوة:

- لا توجد كلمات مناسبة لتعبر عن وصف ذلك الموقف, حتى دموعك هذه لن تكفي, لا ولا حتى كل دموع الناس مجتمعين! أين ذهبت غيرة العراقيين التي كانوا يعرفون بها؟ وأين الحمية التي كان ترضعها الأمهات لأولادهن؟ أين ذهبت؟

فقالت له:

- هل عرفت لماذا قلت لك ذات يوم لو أن الله قدر عليك فسوف ألتحق بك ومباشرة؟ ببساطة لأني ما عدت أملك في هذه الدنيا غيرك ...

عاش الزوجان أوقات سعيدة. الخير كل الخير وجده محفوظ حين زار ماضيه كما أخبره بذلك الأطفال الملائكة برسالتهم له تلك فعلاً. لقد تبدلت أحوله وأحوال زوجته نحو ما كان يصبوان إليه وأكثر. عاشا حياة هانئة, يعملان في مكتبيهما المتجاورين نهاراً وفي الليل يقضيان أوقاتهما في التجوال في شوارع بغداد الموحدة. مثل عصفورين خرجا من قفص صغير وحلقا سوية في سماء الحرية بينما يترقبان بشغف قدوم طفلهما الأول. لكن لدى محفوظ رسالتين متبقيتين لينجز مهمته السرية, وعليه أن ينفذهما فيما تبقى له من الوقت, عليه أن يدع رسن حصانه لقلبه ليدله على إنجاز مهمتيه المتبقيتين له, وهو متأكد إن قلبه سيدله, وعناية القدر تحفه في مهمته الجليلة

التي حملها على عاتقه وحده طيلة عام مضى والتي أنجزت في معظم تفاصيلها. مهمتين فقط لا غيرهما ويكتمل عقد رسائله وأحلامه. هو متشوق لذلك اليوم الذي سيحمل فيه الكشكول ويتوجه به لمقهى الشابندر حيث سيحل صاحب المقهى طلسمه وينتهي كل شيء بعدها ليفي محفوظ بعهده للأطفال الملائكة وينتهي دوره.

الفصل السابع عشر

الرسالة الثالثة عشرة

" قم بزيارتنا حيث نرقد ففي هذه الأرض لنا مرقد "

لسبب ما, هنالك قناعة ترسخت لدى محفوظ وبات مقتنع بها حد الجزم, وهو أن زمن المعجزات قد ولى مع الرسائل العشر الأولى. وهذا الجزم تأتى من خلال الرسائل الثلاثة الأخيرة ومهماتها اليسيرة.

فبعد أن كانت الرسائل السابقة مهماتها كلها تكاد أن تكون مستحيلة, بل وأغلبها وصل محفوظ معها لليأس من تنفيذها, ولولا تلك العناية الإلاهية الخفية التي أحاطت بمحفوظ لربما فشل كل هذا الذي تحقق على يديه.

كما وأن هذه الرسائل الأربعة الأخيرة كلها وأن كان في الاثنين الأخيرتين نوع من العناية الإلهية والتوفيق الخفي إلا أنها لا ترقى إلى تلك المعجزات التي رافقت المهمات العشر الأولى.

محفوظ بات مقتنع بذلك لاسيما وأن الأطفال الملائكة قرروا الرحيل وعدم العودة بعد أن هجروه في الأحلام سوى من عودة يتيمة ليحفظوا للرجل عقله, وهذا يعني له أن المعجزات مرتبطة بهم وبرحيلهم. نعم لقد ولى زمان المعجزات فعلاً فيما عدا تلك الروحانية التي ترافق تحقق الأحداث التي أخبره بها الأطفال الملائكة: قصة زينب التي استمع لها وعلى أثرها حصل زواجهما, مبلغ التعويض الذي استرده محفوظ وجعل منه غنيا والذي لولا

رسالة الأطفال له بوجوب زيارة مبنى السينما لما عرف محفوظ به أبداً. هذا ما استنتجه محفوظ لكن الأمر لا يسلم من تفسير أخر!

كما أن رسائلهم الأربعة الأخير له قد ختموها بعبارة " دع قلبك يرشدك لا عقلك " وهذا دليل أخر قد عزز كل قناعاته وجزمه.

أدى محفوظ ما عليه و تحقق على يديه نصر عارم. النصر الذي قاده جندي مجهول لا يجرأ حتى أن يخبر زوجته عنه دوره فيه كي لا يفقدها.

نصر حققه بأحلامه فوحد وطن قطعت أوصاله, وتجزأت أرضه, وتناحر أبناء شعبه, ودمرت حضارته, بحرب أهلية شعواء راح ضحيتها مئات الألاف من أبنائه.

وحتى وأن تجرأ محفوظ وأعلن للعالم كله أنه حامل لواء ذاك النصر فمن سيصدقه؟ فكل شهوده قد رحلوا عن هذه الدنيا!

ماذا سيخبر العالم؟

ثلاثة صبية صغار جاءوه إليه في منامه و أخبروه! ثم أعطوه رسائل تحمل ألغازاً ومهمات نفذها وحده؟ من سيصدق؟

هو نفسه قد كذب نفسه مراراً, حتى أنه قد رمى نفسه بالخبل والجنون مرات عدة.

ماذا سيقول لهم عندي كشكول! وحتى هذا الأخير لن يجرأ محفوظ على الاستعانة به لأنه مكتوب بخط يده مع بضع رسائل ووريقات مجهولة, سيقولون له عنها حتى هذه لن تقنعنا بها لأنها قد تكون رسائل من مخبول قد عاون بها مخبول مثله!

سيتهمونه بالجنون وفعلا سيفعلون!

هنا فهم محفوظ السبب وراء تحذير الأطفال الملائكة له بأن لا يخبر أحداً عن أحلامه, ولا بالقصة برمتها! فهم محفوظ أخيراً, كي لا يتهمه الناس بالجنون ويعاني بقية عمره من ذلك. أو لربما قدسية المهمة تقتضي السرية التامة! من يدري؟

لذا راح محفوظ وفي خضم ذاك الصراع مع ذاته يمني النفس لو أنه يزيح الحمل الثقيل عن صدره وينجز أخر مهمتين ويعود ويرمي كل شيء وراء ظهره ويلتفت لنفسه ولبيته. لاسيما وإنه على أبواب أن يرزق بطفل من صلبه وعليه أن يتفرغ لرعايته وليعيش حياة مستقرة بعيدة عن أي وساوس قد تنغصها. حوارات خاضها محفوظ مع نفسه مراراً وتكراراُ, أتعبته

وشغلت باله طويلاً. عاد محفوظ للشقة مبكراً ذلك اليوم. كان عائداً للتو من المحكمة, جلس طويلاً في غرفة المحامين ذلك اليوم يتأمل الأيام الماضية, والقادمة طبعاً, فهو يقف اليوم قاب قوسين أو أدنى من إنجاز المهمة برمتها, وعليه أن ينفذ المهمتين الأخيرتين ويعود لحياته الجديدة. بعد ذلك التفكير الطويل؛ شعر بتعب وصداع فقرر العودة للمنزل. وما إن وصل حتى أخبرته زينب بخبر كاد يطير معه من الفرحة, فقد قالت له:

- لقد قتل نفسه , لقد انتحر (مارك بايدن) حصل ذلك في السجن! هناك أنباء عاجلة عن ذلك في كل المحطات ...

مثل محفوظ عدم مبالاته بالموضوع وجلس يتابع الخبر من التلفاز ومن محطة أمريكية تبث في العراق:

- عثر صباح اليوم على المبعوث الأممي السابق(مارك بايدن) منتحراً في السجن التابع للمحكمة الجنائية الدولية في لاهاي وقد انتحر بواسطة مسدس حصل عليه من أحد الحراس بالرشوة فأطلق من خلاله رصاصتين على نفسه الأولى في الصدر ومن ثم أطلق النار على نفسه رصاصة أخرى في الرأس كما أفادت التحقيقات الأولية بالحادث, يذكر أن بايدن متهم بأكثر من مائة جريمة ضد الإنسانية

كان هو المتسبب الرئيس فيها عندما كان يشغل منصب المبعوث الأممي في العراق في العامين الماضيين كلها أدين بها كمجرم حرب وقد حكم عليه إلى الآن بمائة وخمسين سنة سجن والإعدام بالحقنة الكيميائية خمسة وعشرون حكماً وأحكام متفرقة أخرى بالتعويض عن الأضرار التي لحقت بجمهورية العراق وشعبه إبان الحرب الأهلية عندما كان مساعداً لممثل البعثة الدولية في ذاك الوقت وحتى إلقاء القبض عليه من خلال وثائق وأدلة بثها أحد أتباعه على شبكة الإنترنيت والذي عثر عليه منتحراً قبل أن يلقى القبض على بايدن. هذا وجدير بالذكر إن التحقيقات لازالت مستمرة بحق المتورطين معه ويذكر أن حكم الإعدام سينفذ يوم الجمعة القادم بحق ثلاثة من كبار المسئولين العراقيين هم كانوا من المفترض أن يحكموا دوله الثلاث بحلول العام الجاري لولا تلك الوثائق والأدلة التي كشفت تواطؤهم مع بايدن في مخطط تقسيم البلد والحرب الأهلية التي حدثت قبل التقسيم ومخطط كبير لحرب بعد تسليم السلطة تم وئدها من خلال ضبط أسلحة محرمة دولياً كانت راسية في أحد موانئ إحدى الدول الأوربية.

انتهت الأخبار العاجلة إلى اللقاء "

قهقه محفوظ عالياً في الصالة فقالت له زينب ممازحة إياه:

- تشفى حبيبي تشفى هو انت تكرههم وتموت منهم...

محفوظ:

- لا أضحك شامتاً, أقسم على ذلك!

زينب بتعجب:

- على ماذا تضحك أذن؟

رد محفوظ بعد أن أرخى رأسه على الأريكة:

- على انتحار سجين يتم بواسطة مسدس مهرب للمنتحر في سجن محكمة دولية مراقب بأدق أجهزة المراقبة والتفتيش ثم يقوم سيادة المنتحر بإطلاق النار على نفسه في صدره فينسى أنه لن يموت بسرعة فيعود ويتأسف لنفسه فيطلق النار على رأسه!

وتبعها بضحكة أعلى من تلك التي ضحكها في المرة الأولى وتنبهت زينب وقالت له:

- المذيع هيج كال؟

قال لها محفوظ:

- لا مو هيج بس هو الصدك هيجي...

لا يعرف محفوظ لما حرك خبر انتحار المجرم بايدن عزمه على تنفيذ المهمة الثالثة عشرة: زيارة مرقد الأطفال الثلاثة كما طلوا منه ذلك. لكن المهمة عسيرة جداً, فضحايا الحرب الطائفية في البلد بالملايين, كيف سيستدل عليهم؟ هم لم يذكروا له أي تفصيل عن حياتهم سوى أسمائهم, علي, عمر, هلكرد. وحتى القصة المؤلمة عن قتلهم بالطريقة الوحشية التي نفذها المجرمون بحقهم, كانت شائعة حينها واستخدمها الإرهابيون في قتل عشرات الألاف من أطفال البلد في حينها.

مع مرور الوقت شعر محفوظ أن الرسالة الثالثة عشرة والتي تخص زيارة مرقد الأطفال الملائكة هي الأصعب من بين كل المهمات وحتى تلك التي تليها بخصوص الكشكول.

الصعوبة تكمن في أنهم رحلوا دون أن يفصحوا له عن مكان مرقدهم هذا, وحملوه وقلبه مهمة الاستدلال على مكان ذلك المرقد.

كان قد دب في قلبه اليأس من أن ينجز تلك المهمة لولا صدفة عجيبة!

زينب جاءها المخاض في تلك الليلة. نقلها محفوظ على عجل للمستشفى وكانت حالتها صعبة جداً. لقد عانت في الأيام الأخيرة مضاعفات شديدة.

الطبيبة بعد أن عاينت زينب قالت لمحفوظ أنه حالتها صعبة وهي ستلد خلال ساعة لكن بعملية جراحية وهي بحاجة للدم من فصيلتها عليه أن يجلبها من مستشفى أخرى, فصنف دمها نادر وغير متوفر في مستشفى العلوية للولادة.

خرج محفوظ من باب المستشفى مسرعاً ليحضر الدم لزينب من مصرف الدم في مستشفى الكندي التعليمي كما طلبت منه الطبيبة. ركب سيارة أجرة وأخبر سائقها بأن يسرع نحو مصرف الدم بمستشفى الكندي. وفي الطريق شعر أن قلبه يقول له لا تذهب لمستشفى الكندي! فطلب من سائق السيارة أن يغير مساره نحو مدينة الطب البعيدة. شيء ما تحكم بعقله وجعله يفعل ذلك. كان على وشك الوصول لمستشفى الكندي, السائق أخبره بذلك" استاذ مو تكول زوجتي حالتها خطرة! مو ترة مدينة الطب بعيدة!

محفوظ تجاهل نصيحة سائق سيارة الأجرة وأصر بشكل ملح على رأيه فاستدار سائق السيارة من فوره. وبعد أن أوصله لهناك كانت المعجزة!

في باحة المستشفى الكبيرة قبالة مصرف الدم وبالقرب من بناية الطب العدلي شاهد محفوظ ذاك المرقد!

لم يلمحه حين دخل أول مرة, مر بقربه فخفق قلبه, كانت عتمة المكان تخفيه عن ناظريه, يقبع بعيداً وسط شجيرات الحديقة الواسعة للمستشفى.

كان على شكل مجسم لبيت بحجم سيارة صالون صغيرة لفت انتباهه وتمشى بهدوء نحوه, كان ينتظر موظف المصرف ليجهز له طلبية الدم.

كان هناك معاون طبي شاب يقف قرب محفوظ يدخن سيجار خارج البناية بيده كوب شاي يشرب منه فبادره محفوظ بسؤال دون حتى أن يسلم عليه:

- ما هذا الشيء هناك؟

رد الشاب:

- هذا بيت أبو بيوت !

رد محفوظ وهو مذهول:

- شنو؟ بيت ماذا.. ؟

فقص عليه الشاب القصة بالكامل دون أن يقاطعه محفوظ:

قبل يومين فقط جلب رجل من أهالي بغداد هذا المجسم الذي تراه هناك وقدم به طلب للمستشفى ليوضع في هذا المكان, فوافق على ذلك المدير وحتى

وزير الصحة. قال إن المجسم يعود لأولاده الثلاثة الذين قتلوا في الحرب الأهلية عندما كانوا يلعبون به في حديقة دارهم, مسلحون مجهولون قاموا برمي رمانة يدوية عليهم وقتلوهم. يومها جاءوا بهم للمستشفى للعلاج, كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة, كانوا ينزفون بشدة, أنا كنت هنا وقتها وشاهدتهم حين فارقوا الحياة الواحد تلو الأخر ولأن المكان هنا كان يغص بجثث الموتى في تلك الفترة اللعينة وضعناهم هناك حيث المجسم في الحديقة كان أبوهم ينشج بقربهم وهو يقبلهم بالتعاقب كالمجنون, أنا سمعته ولا أزال أتذكر كلامه:

" قتلوهم لأنهم يعلمون الأطفال في الحي على حب العراق"

لاحظ محفوظ مجسم البيت مطلي بألوان العلم العراقي حتى أن كلمة الله أكبر كتبها واحد منهم بخط طفل كانت تتوسط ذاك المجسم! وعليه أثار شظايا الرمانة و لهب نيرانها وبقع دماء رغم مرور سنوات عدة على الحادث إلا إنها لا زالت باقية!

سأله محفوظ بإلحاح:

- هل تعرف أسماءهم؟

رد الشاب بينما محفوظ, بينما كان يتمشى بخطوات واسعة نحو المجسم, لكنه توقف بعد أن سمع أسمائهم, وأخذ يصغي لبقية الحكاية التي راح الشاب يرويها لمحفوظ:

- علي وعمر وهلكرد وأضاف:

- قال أبوهم أنا من فرط حبي لبلدي العراق نذرت أن أجعل من أسماء أولادي رمزاً للوحدة في الحي, الذي تسربت إليه الفتنة الطائفية المقيتة, حتى أني ربيتهم على حب البلد. حتى لعبهم كانت تتغنى بحب العراق, مجسمهم هذا كان بناءً على طلبهم هم لأنهم قالوا له قبل يوم من قتلهم أنهم يريدون بيتاً صغيراً يضعونه في الحديقة يسمونه العراق لأنه ما عاد أحد من أطفال الحي يلعب معهم لعبتهم الحبيبة لقلوبهم النقية " بيت أبو بيوت " التي كانوا يلعبونها مع أطفال الحلي لأن أهاليهم قد منعوهم منها خوفاً من بطش الأشرار.

لعبوا به ذاك اليوم كثيراً حتى دق باب دارهم مسلحون فخرج إليهم أبوهم, كانوا خمسة يضعون لثام على وجوههم ويحملون الأسلحة بأيديهم وقالوا له أنك تحرض الناس على الخيانة وأنك في بيتك تحتفظ لليوم بعلم النظام البائد, وهو مرسوم على لعب أطفالك هناك وأشاروا للمجسم أو بيت أبو بيوت...

قال الوالد و بعد أن سمع كلمة خيانة وعلم نظام بائد فصرخ بوجوههم من غله لهم وسبهم ولعنهم علانية وفي وضح النهار فقالوا له جملة واحدة فقط:

" راح تندم "

- وها أنت كما ترى يا أستاذ قد ندم أبوهم على ذلك فعلاً!

رد عليه محفوظ, بعد أن اغرورقت عينيه بالدمع وهو يتأمل ذلك المجسم بعد أن سار نحوه مرة أخرى, تاركاً ذلك الشاب واقفاً خلفه, وقال له بصوت عالي:

- لم يندم أبوهم, ولا أولاده, لأنهم جعلوا كل من تلطخت أيديهم بدمهم الطاهر يندمون, تلك الأيادي القذرة التي قتلتهم ندمت وشبعت اليوم ندماً, أما هم فاليوم هم طيور في جنة الله يتنعمون هناك, وهذا بيتهم هو اليوم بيت لكل العراقيين, وهذا دمهم الطاهر على المجسم, هو دمك ودمي ودم الجميع يسري في عروقنا وبفضلهم توحد هذا البلد من جديد.

فجلس محفوظ بجانب بيتهم الصغير يتأمله ويؤدي مراسيم زيارة ملكوتيه كتلك التي يؤديها راهب في ديره وهو يتمتم همساً لهم بأسمائهم ويقول:

- أنتم من جعل من قتلوكم يندمون.

ذلك المساء عاد محفوظ للمستشفى مرتاح البال, بعد أن أنجز المهمة ما قبل الأخيرة. وقف بباب صالة الولادة في مستشفى العلوية للولادة ينتظر الخبر المفرح الأخر تلك الليلة. الخبر الذي هلت به عليه الممرضة بعد عودته بالدم من مدينة الطب:

- مبروك إجاك ولد أستاذ!

في اللحظة التي عرف محفوظ بالخبر قرر أن يسمي الطفل الذي رزق به عراق, وقد فرحت زينب لذلك. ليلتها طار محفوظ من الفرحة الغامرة ولم ينم حتى الصباح, وما أن عاد مع زينب للشقة في اليوم التالي حتى أشترى عجلاً كبيراً وذبحه في باب العمارة وفرق لحمه على المارة.

.....

الفصل الثامن عشر

الرسالة الرابعة عشرة والأخيرة

الكشكول

في صاح اليوم التالي خرج محفوظ لينجز مهمته الأخيرة. لم يتبقى في جعبته سوى كشكوله, الذي عليه أن يتوجه به نحو مقهى الشابندر في شارع المتنبي.

حمل بيده كشكول جلدي بحجم كتاب عادي وجده بالصدفة في جراره بعد أول حلم كان قد حلمه. كشكول غريب, حتى أن أورقه تختلف عن الورق المألوف. ورق أصفر يوحي شكله بأنه قادم من حقبة موغلة بالقدم. وحتى غلافه الجلدي يدل على ذلك. جلد طبيعي له رائحة المعاطف الجلدية. وحتى القلم الذي وجده محشور فيه قلم عجيب! يكتب الحروف ويخط الكلمات بسرعة دون أن يجف مداده رغم كتابته لكل تلك الصفحات الكثيرة. لم يعرف محفوظ له نوع ولا شركة, كان أملساً بلا طلاء أو رسم أو نقش.

كانت رحلة محفوظ نحو المقهى خيالية, لقد انطوت الأرض تحت قدميه ليصل لهناك سريعاً وسط دهشته من قصر مسافة الرحلة وسلاستها. وقف قبالة المقهى بيده كشكوله كما هو مطلوب منه ليختم حل الرسائل الأربعة عشر ويرحل.

تقدم نحو باب المقهى الخشبي بثقة, دفع إحدى فرضتيه بيده اليمين ممسكاً كشكوله الذي حفظه بكيس بلاستيكي خوفاً عليه من التلف.

حين دخل المقهى وجد على ذات المكتب, عند يسار الباب, شاباً يافعاً بالعمر ربما كان عمره قرابة الخمسة والعشرين عاماً, يشبه لحد بعيد الحاج محمد الخشالي صاحب المقهى.

سلم عليه محفوظ ورد الشاب التحية بصوت ودود ووجه مبتسم, فوقف محفوظ يتأمل المقهى من الداخل, فوجده كما تركه تماماً سوى من هذا الشاب الوسيم الذي تواكب هيئته الإفرنجية ما هو سائد هذه الأيام عكس المقهى التاريخي الذي يحاكي بناءه التراثي وأثاثه الباهت حقب سابقة من تاريخ العراق.

سمع محفوظ دعوة ملحة من ذلك الشاب بالجلوس بقربه على ذات التخت الذي كان قد جلس عليه رفقة الفنانين التشكيليين الثلاثة والنقيب من قبل فأجاب الدعوة على الفور.

صاح الشاب على عاملة بصوته الندي بأن يجلب الشاي للضيف بعد أن رحب به على الطريقة العراقية بجملة " الله بالخير " وكان محفوظ يترقب أن يرى حجي فؤاد بعد أن غاب عن المكتب حجي محمد الخشالي صاحب المقهى لسبب ما يجهله.

جاء العامل من بعيد يحمل صينية استكانات الشاي لكنه كان هو الأخر شاباً يافعاً غير حجي فؤاد مع أنه يشبهه كثيراً, لولا فارق السن بين الاثنين, يعزز الشبه بينهما ذات الهيئة والهندام: فهو يرتدي دشداشة بغدادية متحزم عليها بحزام جلدي بني فاتح ويعتمر برأسه (جراوية) و يحتذي بقدميه (كيوة) تصنع يدوياً من خيوط القطن الغليظ, وتفاصيل تراثية أخرى, ظهر بها ليواكب بها المقهى التراثي القديم.

قبل أن يسأل محفوظ عن الحاج محمد الخشالي رفع رأسه نحو الأعلى - خلف المكتب - ليتفقد صور الشهداء الخمسة, أولاد الحاج محمد الخشالي, التي رآها في المرة السابقة, فصدمه المشهد!

الصور صارت سبعه ! الخمسة القديمة تعتليها صورتي الحاج محمد الخشالي والحاج فؤاد على كل منها شريط أسود كباقي الصور الخمسة التي تحتها, فلم يعد محفوظ بحاجة لأن يسأل عنهما, فقد عرف أنهما قد فارقا الحياة.

لكن متى فارقا الحياة, وكيف؟ هذا هو السؤال الذي عليه أن يحذره مع الشاب كي لا تتكرر معه حادثة المشغل في مدرسة العقيدة بخصوص الفنان العراقي المغترب (نداء كاظم) والذي تسببت له بذلك الموقف المحرج الذي

كاد أن يلفت معه الانتباه لمحفوظ في وقتها. إذ إن الأطفال قد حذروه, من البوح بالسر الكبير لأي كان, ولأي سبب كان.

قال للشاب وكان العامل هو الأخر قريب يضع (استكانات) الشاي على المكتب:

- رحم الله الحاج محمد والحاج فؤاد ...

رد عليه الشاب والعامل كلاهما برد الرحمة لأمواته كما هو متعارف عليه عند العراقيين, فسأل الشاب محفوظ:

- هل تعرفهما يا أستاذ؟

محفوظ:

- نعم حق المعرفة... وأتبع بسؤال:
- ما أسمك؟

الشاب:

- أسف نسيت أعرفك بنفسي... أنا علي ابن أخ الحاج محمد وهذا لقمان أبن الحاج فؤاد رحمهما الله ...

محفوظ:

- متى توفيا؟ لأني كنت مسافراً خارج العراق لفترة من الزمن.

وكان محفوظ يريد بهذه الجملة أن يعرف الحقيقة دون الخوض بتفاصيل اللقاء القديم بالرجلين؛ لأنه أحس أن وفاتهما قد تكون حدثت في فرتة سابقة لزيارته للمقهى رفقة الفنانين والقوة الدولية كما حدث له مع حادثة وفاة النحات العراقي نداء كاظم, وهو بهذا سيصل للحقيقة متجنباً الوقوع بالحرج.

فأجابه علي:

- الله يرحمهم قد توفيا بعد شهر واحد من الوحدة, الواحد تلو الآخر يا سبحان الله, خلال أسبوع واحد, فحجي محمد مات أولاً وبعد أن انتهي مجلس عزاءه مات حجي فؤاد!

محفوظ:

- الله يرحمهم ... يا سبحان الله ..

وبعد أن أطمأن محفوظ, على أنه فعلاً كان قد زارهما من قبل وأنهما قد تحدثا إليه وتحدث إليهما راح يسرد للشابين أحاديثهما وحكايات الحاج محمد الخشالي عن المقهى وهو بالطبع قد أخفى عن الشابين الحديث الأخير الذي

دار بينه وبينهما, عندما أخبراه عن روح الانتحاري التي تسكن المقهى. قص عليهما بحزن عن نضال الحاج محمد الخشالي كي يستمر المقهى في عمله رغم الحرب التي شنت عليه من أجل أن يتركه ويبيعه بعد أن حاول عدة أشخاص الاستيلاء على البناية كما رواها له الحاج محمد ولرفاقه...

فقال له علي:

- الحرب مستمرة يا أستاذ ... عذراً ما اسمك؟

أجاب محفوظ معرفاً باسمه:

- أسمي محفوظ, أنا عائد من الولايات المتحدة الأمريكية وقد قررت العودة للعيش هنا في بغداد مؤخراً.

علي لمحفوظ مع تأييد من لقمان بهز الرأس:

- الحرب تلك لا تزال مستمرة لحد الآن...

فبدء الاثنان يحكيان لمحفوظ عن محاولات كثيرة من أناس كثر أرادوا هدم المقهى أو الاستيلاء عليه لولا وقوف المثقفين والأدباء في شارع المتنبي لحماية البناية والمقهى حيث قال له لقمان كلام حاول علي أن يمنعه من البوح به لمحفوظ " بعض الشفة السفلى بصف الأسنان العليا " لكن محفوظ

عرف إن وراء محاولة علي تلك خطب ما! فأحس محفوظ أنه في ذلك الأمر الذي يحاول علي إخفاءه عنه حل طلسم الكشكول الذي بيده.

المقهى كان فارغاً سوى من بعض زبائن القلائل فقال علي للقمان:

- لقمان أنت روح شوف الزبائن خاف يريدون شاي!

لكن محفوظ قال لعلي جملة على ما يبدو قد أحدثت وقعاً سحرياً فيه جعلته يغير معها تعابير وجهه, فقد قال له:

- لا تخف مني يا أستاذ علي! أنا أعرف بكل شيء, الحجي الله يرحمه أخبرني بكل شيء!

محفوظ قال هذه الجملة هنا من وحي ما دله به قلبه لا عقله لأنه لم يفكر بما قال سوى جملة جاءت على لسانه عبطاً وعلى ما يبدو أنها آتت أكلها بعد أن أقترب منه علي حتى وضع فمه في أذنه وهو يتلفت وقال:

- إذن دعني أقص عليك الحقيقة! عمي حجي محمد وحجي فؤاد قتلا! نعم لقد تم تسميمهما! هذا ما حاولنا أثباته من خلال التحقيق في المخفر بعد أن عرفنا بالحقيقة. ولا تسأل من أخبرنا بذلك, لأنك لن تصدقنا وستقول عنا مجانين! لكن دعني أقول لك إن شأت صدقتني أم لا؟

لقد علمنا بالأمر أنا ولقمان من خلال الأحلام!

وراح يتلفت حوله بينما شاهد محفوظ تعابير رعب علت وجه علي ورعشة انتابت لقمان وأتبع علي بصوت خافت:

- أرواح أطفال ثلاثة زارونا في المنام وقالوا لنا أن المقهى قصته قصة! أخبرونا إنه سوف يأتي ذات يوم رجل ما سموه (المنقذ) يحمل بيده كشكول فارغ, غير مكتوب فيه ولا حرف واحد, سيسلمه لكما وتحفظانه في المقهى هنا في هذا الدرج, وبعد أن يأتي الليل ستأخذه أرواحهم لمنقذ أخر غيره ليكون هو حامي البلد وحضارته من بعده, بعد أن أدى الذي قبله دوره على أكمل وجه وأن هذا المنقذ سيأتي يوماً ما ليودع كشكوله هنا, وقد سبقه في ذلك الدور عشرات الأشخاص من قبله, وهنا في هذا المقهى مكان التسليم والاستلام.

والعملية مستمرة على مر قرون من الزمن, وحادثة الإنجليز في بداية القرن العشرين عن محاولتهم هدم المقهى لها علاقة بما قالوه لنا أنا ولقمان, يا أستاذ أخبرونا عن مثلث ناقص فوق الهرم الأكبر في مصر وحرب شعواء تشنها منظمة المثلث ضد العراق وحضارته والتي مركزها بغداد, وقالوا لنا لا تخافوا فسيأتي المنقذ ليسلم كشكوله وسيبقى المقهى.

حتى تفجير المتنبي الذي قتل خلاله أبناء عمي الخمسة كان من صنع تلك المنظمة وكان يستهدف المقهى لا الشارع وهذا ما أخبرونا به في الأحلام, أنا ولقمان لم نروي تلك القصة لأحد غيرك! نحن نخشى أن نتهم بالجنون مثل ما حدث لنا حين أخبرنا الشرطة بدليلنا على مقتل عمي وحجي فؤاد, طردنا ضابط المخفر يوم قلنا له أنهما قد قتلا بالسم, قلنا له إن مصدر معلوماتنا هي الأحلام!

ليس ذلك ما يقلقنا فقط! فخوفنا من أن نقتل مثل حجي محمد وحجي فؤاد يمنعنا من أن نقص تلك القصة للناس.

وأتبع لقمان:

- أخبرني أبي رحمه الله قبل يوم واحد من مقتله يومها جاءني في العيادة, فأنا طبيب, ولا تستغرب ذلك! وقال لي يا لقمان لقد قتلوا حجي محمد ويريدون قتلي أنا أيضاً وكان مجلس عزاء حجي محمد قائماً في حينها, فسألته من هم؟ قال لي (المنظمة) وكان يتلفت خائفاً فظننت أن والدي قد خرف من أثر تقدمه بالعمر وقال لي أنهم دسوا السم لحجي محمد كي لا يكتشف قاتله, يومها لم أصدقه ... لكني تأكدت من صحة كلامه لاحقاً يوم حملت بيدي تقرير تشريح والدي

الذي لحق بصديق عمره, بعد يوم واحد من زيارته لي في العيادة, وجدت فيه أنه تم دس سم قاتل له في شراب قد شربه.

هذا التقرير عملته بعد أن حللت نموذج من دمه سراً بعد أن جاء التقرير الرسمي يؤيد وفاة والدي بأزمة قلبية زوراً.

يومها رأيت الحلم الأول وقد ذهبت لدار الحاج محمد رحمه الله فوجدت ابن أخيه علي, وهو مهندس بترول مرموق, فرحت ألف وأدور معه في الحديث كي لا يتهمني بالخبل لكن هو من باغتني وأخبرني عن أحلامه التي تطابق أحلامي...

بعد ذلك فتحنا المقهى الذي أوشك أن يبيعه علي لرجل دفع فيه أضعاف سعره في ذات اليوم الذي زرته فيه.

هذا الرجل كان من خارج العراق وهو عراقي مغترب مثلك.

حين عرف ذلك الرجل بتغيير علي لرأيه في بيع المقهى هاج هنا وماج وأرعد وأزبد وتوعدنا بشر قادم.

ومنذ ذلك اليوم ونحن ننتظر قدوم من سيحمل لنا الكشكول و يسلمنا الأمانة التي باتت حمل ثقيل يؤرقنا.

محفوظ وهو يستمع للقصة صدقهم فوراً لأنه على تماس مع تلك الأحداث وهو خابر لها وقد عايشها.

لكن مع كشكول فارغ غير مكتوب فيه ولا حرف! هذا ما لا يتطابق مع ما يحمل؟ فكشكوله ممتلئ عن أخره, هذا من جانب, ومن جانب أخر منظمة المثلث هي الأخرى جديدة عليه رغم سماعه عن قصص كثيرة تحكي عن منظمات تعمل بالسر لتدمير دول معينة!

تحير محفوظ؛ هل يخبرهم عن الكشكول الذي يحمله تحت أبطه؟ أم يقفل للبيت وينهي هذا الحوار الذي بدأ يدب في قلبه خوف شديد بعد الذي سمعه منهما؟

تذكر الرسالة:

" قلبك سيدلك "

هنا خلا المقهى تماماً من الزبائن بعد أن جاء أخر زبون وحاسب علي عن مشاريبه وخرج من الباب تاركاً الثلاثة وحدهم في المقهى.

فقال له لقمان بعد أن صمت يطالع وجه محفوظ:

- أنت قد تكون منهم لأنك... نعم قد تكون منهم! وراح يصرخ بصوت عالي ..

علي:

- لقمان أسكت!

محفوظ لكلاهما:

- عندي كشكول! لكنه ليس بفارغ فهو ممتلئ على أخره...

فأخرجه من كيسه وفتحه فسقطت عيون الثلاثة على صفحاته!

كانت بيضاء من غير سوء!!!

كانت أول صفحة بعد الجلد خالية تماماً, تلك الصفحة التي كان محفوظ قد دون فيها بخطه " بيت أبو بيوت " , قلب محفوظ بقية الصفحات الواحدة تلو الأخرى وكلها كانت خالية من أي كتابة.

أين كل تلك الصفحات الممتلئة؟ أين كل تلك الأحداث المتشابكة؟

غمغم محفوظ بكلمات مبهمة, تحت وقع الصدمة تعثر لسانه وانعقد فجأة .. حينها فقط هدأ لقمان من هياجه وقال:

"سبحان الله " كررها أكثر من مره حتى اغرورقت عينيه بالدموع ومثله علي الذي أخذ ينشج بالبكاء, إلا محفوظ الذي فتح ذراعيه تاركاً الكشكول مشرعاً على ساقيه وقد سال عليه لعاب سقط من فمه المفتوح وهو يتمتم:

هذا موعد ... وقد سبقه من قبله موعد ... كما سبقه من قبله موعد على مر قرون خلت ...

لم ينطق محفوظ بعدها وترك الكشكول لعلي ولقمان يقلبانه ورحل, فهو لم يكن هناك على الجسر بالصدفة وإنما جاء به القدر...

في نفس تلك اللحظة و في مكان ما على وجه الكرة الأرضية يجتمع بشكل سري, ثلاثة رجال في بناية داخل قاعة مظلمة تحت أستار الليل بعيداً عن العيون الغافلة.

طاولتهم عتيقة, ومثلثة, وكراسيهم منصوبة عند الزوايا الثلاثة للطاولة, ملامحهم كانت غير واضحة كونهم يضعون نظارات سوداء غامقة, يرتدون بدلات رسمية لا ينتمي لجيلها مسابح تتدلى من رقابهم حتى منتصف صدورهم مصنوعة من خرز غريب يزين كل منها كركش مذهب ينتهي بهرم صغير تدل نهايته غير المهذبة؛ على أنها مقتطعة من هرم أكبر منه بالحجم.

أحدهم:

- لو أنه قد باح لزوجته التي عرفنا أن اسمها زينب بالأمر لوصلنا له قبل التسليم وغنمنا الكشكول الملعون ولكنا نجحنا في إتلافه وانتهينا, لكن ما باليد حيلة! لم يبح لها بالأمر, ولا زلنا نجهل هوية المنقذ مع أننا نعرف مكان التسليم.

أخر:

- مخطط عمره قرن من العمل المتواصل الدؤوب قد فشل بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من أن يتحقق.

أخر:

- صفحة علينا نسيانها ومن اليوم علينا أن نجند رأس أفعى وعقرب يساعده وعلينا أن نزيل المقهى مكان التسليم بكل الطرق كما وعلينا أن نزيل من بغداد نصب الحرية كي نتخلص من تلك الروح التي زرعها جواد سليم فيه لتحرسها. نعم ذلك اللوح السومري الذي دون عليه جواد سليم كلمات الأحجية السومرية التي عجزنا عن فكها هي من تحمي هذا البلد الذي يقف بوجه أحلامنا ومخططاتنا!

قالوا جميعاً:

خسرنا جولة لكن الحرب مستمرة...

انتهى .

ديالى

2018 - 2013